

أرنولد توينبي

مختصر دراسة للتاريخ

الجزء الرابع

ترجمة: فؤاد محمد شبل
مراجعة: أحمد عزت عبد الكريم
تقديم هذه الطبعة: عبادة كحيلة

ميراث الترجمة

1717

علي مولا

مختصر دراسة للتاريخ
(الجزء الرابع)

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر سنة ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1717
- مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الرابع)
- أرنولد توينبى
- فؤاد محمد شبل
- وأحمد عزت عبد الكريم
- عبادة كحيلة
- 2011

هذه ترجمة كتاب:

A Study of History (Vol. IV)

By: Arnold J. Toynbee

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com

Tel: 27354524- 27354526

Fax: 27354554

مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الرابع)

تأليف : أرنولد توينبي

ترجمة : فؤاد محمد شبل

مراجعة : أحمد عزت عبد الكريم

تقديم هذه الطبعة : عبادة كحيل



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

توينبى، أرنولد، ١٨٨٩ - ١٩٧٥

مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الرابع) / تأليف: أرنولد توينبى،
ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: أحمد عزت عبد الكريم.

القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١

٣٢٨ ص، ٢٤ سم

١- التاريخ

(أ) شبل، فؤاد محمد (مترجم)

(ب) عبد الكريم، أحمد عزت (مراجع)

٩٠٧،٢

(ج) العنوان

رقم الإيداع ٢٠١١ / ٤٩٧٠

الترقيم الدولى : 978-977-704-486-8

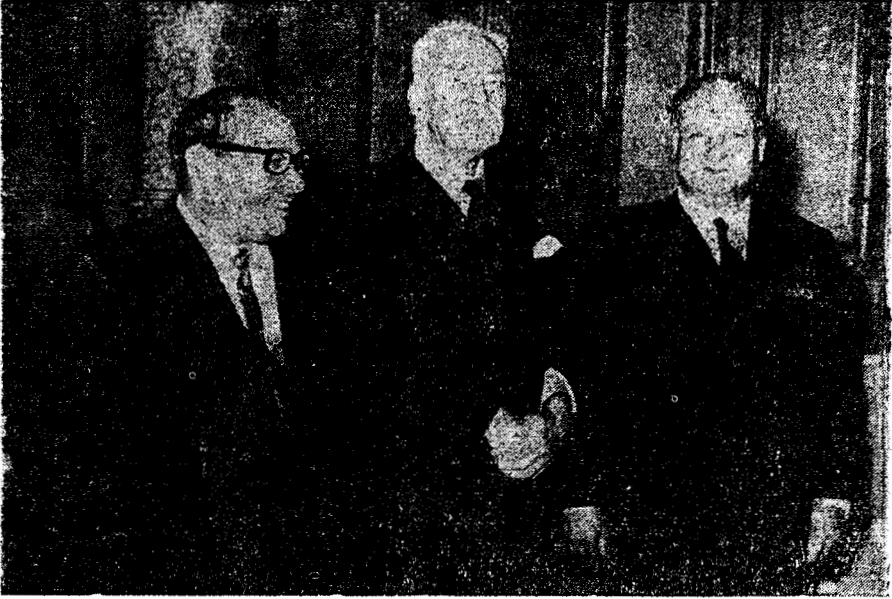
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

صورة تذكارية

١٨ أبريل ١٩٦٤

(القاهرة)



في الوسط : الأستاذ آرنولد توينبي مؤلف الكتاب
وإلى يمينه الدكتور أحمد عزت عبد الكريم مراجع الترجمة
وإلى يساره الأستاذ فؤاد محمد شبل مترجم الكتاب

للمترجم

- ١ - تقرير غرفة الإسكندرية التجارية عن الأحوال الاقتصادية لمصر والعالم ١٩٣٦ / ١٩٣٧
- ٢ - النظام المالى فى الإسلام
- ٣ - عصب الحرب
- ٤ - الدستور السوفيتى - دراسة تحليلية انتقادية (رسالة جامعية)
- ٥ - المدينة الفاضلة - بحث فى النظام الاقتصادى والاجتماعى عند الكتاب المثاليين
- ٦ - السياسات الاقتصادية الدولية
- ٧ - دراسات فى اقتصاديات القارة الإفريقية
- ٨ - ترجمة كتاب مختصر دراسة للتاريخ للأستاذ توينبى - ترجمة (أربعة أجزاء)

مقدمة

فلسفة التاريخ عند توينبي

أمضى العلامة « أرنولد توينبي » أربعين عاماً في تأليف موسوعته العظيمة « دراسة للتاريخ ». إذ شرع يعمل فيها عام ١٩٢١ وانتهى منها عام ١٩٦١ .

ففي عام ١٩٣٤ نشر الأستاذ توينبي الأجزاء الثلاثة الأولى ، وأتبعها عام ١٩٣٩ بالأجزاء الثلاثة التالية . ثم نشر عام ١٩٥٤ الأجزاء الأربعة الباقية . وكان أغلب الظن أن تنتهي دراسته عند هذا القدر ؛ لولا توالى التعليقات والانتقادات ، فحفزته إلى إصدار الجزء الحادى عشر ويضم خرائط تاريخية . ثم نشر الجزء الثانى عشر عام ١٩٦١ ، يرد فيه على نقاده ويوضح الكثير من النقاط التى غابت عليهم ، كما يصحح طائفة من الوقائع التى وردت فى أجزاء مؤلفه الماضية على ضوء الكشف الأثرية الحديثة والتطورات الدولية .

ولست الدراسة التاريخية الواضحة المعالم عند توينبي ، هى الأمم أو العصور ، لكنها المجتمعات ؛ أو بالأحرى الحضارات . وقد قسمتها إلى إحدى وعشرين حضارة ، لم يتبق منها سوى خمس هى : المسيحية الغربية ، والمسيحية الأرثوذكسية ، والإسلامية ، والهندية ، وحضارة لشرق الأقصى . وتضاف إليها مخرّفات المجتمعات المتحجرة الغير المعينة الشخصية ؛ مثل حضارة اليهود والبارسين .

لكن الحضارات الخمس القائمة فى الوقت الحاضر تنسب إلى حضارات أقدم منها . من ذلك :

اتصال حضارة المسيحية الغربية (أى حضارة البلاد التى اعتنقت اللون الغربى من المسيحية - الكاثوليكية والبروتستانتية ، وحضارة المسيحية الأرثوذكسية) أى حضارة البلاد التى اعتنقت المذهب الأرثوذكسى من المسيحية - بلاد البلقان وروسيا) بصلة البنية بالمجتمع المحلي (أى اليونانى) ، الذى ينتسب بدوره إلى المجتمع المينوى (مركزه كريت) .

وإذا تتبعنا المجتمع الإسلامى إلى أصوله ، نجد أنه حصيلة إندماج مجتمعين كانا مُمَازِين في الأصل هما : الإيراني والعربي . وباقتفاء أثر هذين المجتمعين نجد وراءهما مجتمعاً مندرساً يدعى المجتمع السورى ، الذى تفرع بدوره عن المجتمع السورى .

ويذكر المؤلف عن المجتمع المصرى أنه مجتمع فذ للغاية ، انبعث في الجزء الأسفل من وادى النيل في غضون الألف سنة الرابعة قبل الميلاد ، وانقضى في القرن الخامس الميلادى ، بعد أن ظل باقياً - من بدئه إلى نهايته - ثلاثة أمثال عمر المجتمع العربى منذ قيامه حتى الآن . ولم يكن للمجتمع المصرى آباء ولم يخلف ذرية ، ولا يجوز لأى مجتمع حال أن يدعى الانسحاب إليه . وهذا مما يزيد من شأن انتصار فكرة الخلود التى رنا إليها المجتمع المصرى وحققها على الصخر . وإن الأهرام - كما يقرر الأستاذ المؤلف - ما تنفك تحمل منذ خمسة آلاف سنة ، الدليل الصامت على وجود منشئها ، ويُتوقع بقاؤها مئات آلاف أخرى من السنوات القادمة بعد نهاية أصحابها . ولا يُستبعد - كما يتوقع الأستاذ توينبى - أن تظل حتى بعد لنا الإنسان نفسه .

ويرى الأستاذ توينبى أن للأحداث التاريخية جانبين : مادى وروحانى ، وهنا يفرق عن غيره من المؤرخين الذين إما يقتصرون على سرد الأحداث التاريخية دون استقصاء دوافعها ، وإما يفسرونها تفسيراً مادياً مثلاً يفعل فلاسفة الاشتراكية الذين ابتكروا فلسفة التفسير المادى للتاريخ .

ومدار هذه الفلسفة ؛ تفسير الأحداث التاريخية وسير الأجيال من حروب
ومجاعات وقيام دول وفنائها ، ونشوء عروش وسقوطها . . . تفسيراً
مستنداً إلى العوامل الاقتصادية المجردة . فكان أن جرّتهم هذه النظرة في
تفسير التاريخ ، إلى إستخلاص مبدأ الصراع الطبقي الذي يعتبرونه نذير
لثورة الاجتماعية .

وعلى أساس التاجيتين المادية والروحانية يعرض توينبي لبدائيات
الحضارات وارتقاءاتها وأسيارها . . الخ .

١ - بدائيات الحضارات

لا يقبل المؤلف الفكرة القائلة بوجود حضارة واحدة هي الحضارة
الغربية . كما يدحض نظرية إستطارة الحضارة القائلة بأن مصر هي أصل
جميع الحضارات . وعنده أن من بين المجتمعات الحضارية الإحدى
والعشرين ؛ ثمة خمس عشرة حضارة تتصل بصلة البنية بحضارات
سابقة . لكن ثمة ستة مجتمعات فقط قد البعثت مباشرة من الحياة البدائية ؛
تلك هي :

المصرية - السومرية - المينوية - الصينية - المايانية - الأنديانية ؛
(والأخيرتان نشأتا بأميركا الجنوبية) .

ولا يمكن أن يُعزى قيام الحضارات إلى صفات مُعيّنة في جنس من
الأجناس ، إذ لا يمكن أن يرتبط التفوق الروحي والذهني بلون البشرة ؛
فالواقع أن جميع الأجناس قد ساهمت في إنبعاث الحضارة .

وتتداعي بالمثل النظرية القائلة بأن توافر ميزات خاصة في بيئة ، يكفل
إنبعاث الحضارة فيها . فهل تعتبر مثلاً - البيئة الخاصة التي أتاحها النيل
لمصر ، ميزة إيجابية ؛ إليها وحدها ، يُعزى بدء الحضارة المصرية ؟ هنا

تصمد النظرية للاختبار في منطقة مجاورة تتوافر فيها الشروط المطلوبة . تلك هي المنطقة الدنيا من وادي دجلة والفرات ؛ إذ نجد ظروفًا طبيعية مماثلة ومجتمعاً مماثلاً هو المجتمع السومري . لكن النظرية تنهار في وادي أصغر وإن كان مشابهاً هو وادي الأردن الذي لم يكن يوماً مركزاً لأية حضارة ؛ ولعلها تنهار كذلك في وادي السند ، كما تنهار تماماً في وادي نهر نيوجراندي ووادي نهر كلورادو .

وبالأحرى ؛ لا يمكن إعتبار البيئه هي العامل الإيجابي الذي جلب الحضارات إلى الوجود ؛ وإن كان بلا ريب عاملاً عظيماً له خطره في التشكيل الثقافي ؛ إذ ما يزال هناك عامل لا يمكن تحديده ؛ هو - على ما يظهر - سيكولوجي في طبيعته ، وهو أهم عوامل إنبعث الحضارات أهمية وأشدّها ارتباطاً بالقضاء والقدر ؛

هنا يلتجئ توينبي إلى إستعراض الأساطير الكبرى التي أودعها الجنس البشري حكمته ، كما يلتجئ إلى الأديان . فاستخلص فكرة مدرأها أن الإنسان قد حقق الحضارة ؛ لا نتيجة لمواهب بيولوجية عُلِّيا (أي التفوق العنصري) ؛ أو ثمرة بيئة جغرافية ؛ ولكنه حققها إستجابة لتحدي موقف ذي صعوبة خاصة ، استثار الإنسان لبذل جهدهما ؛ لم يبذله من قبل ؛ وأبرز مثال يُطالعنا في هذا الشأن ، إنبعث الحضارة المصرية . فلقد كان السهب الأفراسي (الصحراء الكبرى والصحراء العربية) قبل فجر الحضارة ؛ أرض رعي عامرة بالمياه . وطالع الجفاف الطويل المتتالي هذه المراعي ، فجابه سكانها بتحدٍّ ؛ استجابوا له بطرائق مختلفة ؛

تمسك البعض بأرضهم وغيروا عاداتهم ؛ فابتكروا نمط الحياة البدوية . ونقل آخرون مواطنهم صوب الجنوب إلى المناطق الاستوائية ؛ متبعين أثر المراعي المرتدة ؟ فاحتفظوا - من ثم - بطريقة حياتهم البدائية التي

ما يزالون يعيشونها حتى الآن . وهم القبائل النيلية (الشيلوك والدنكا والنوير) ، وآخرون ولجوا مستنقعات وغابات دلتا النيل ؛ فجاهلوا بذلك التحدى الذى تمثله . وعملوا على تخفيفها ؛ فكان أن أقاموا الحضارة المصرية :

وهكذا ، يكمن تفسير بدايات الحضارات فى الفرض القائل بأن الأحوال الصعبة - أكثر من السهلة - هى التى تولد هذه الأعمال المحيطة . ولا تقتصر هذه الفكرة على البيئة المادية ، بل تتجاوزها إلى البيئة البشرية . ونجد البيئة المبتدعة فى كل حالة ، هى التى لقيت صعوبات مادية أو بشرية . فالأرض البكر تبرز استجابات أشد حيوية ، عن الأرض التى سبق اقتحامها بالفعل وشغلها مقيمون متحضرون ، فيستروا المعيشة فيها . كما أن الهزيمة الساحقة النهائية ، كفيلة باستثارة الجانب المهزوم لترتيب نظام داره ، والاستعداد لتحقيق إستجابة متحصرة . ويبدى استقراء التاريخ أن الشعوب التى تشغل مواقع حدود وتعرض لعدوان متصل ، تظهر استطالة أشد إشراقاً من جيرانها أصحاب المواقع الخمية . وتستجيب بصفة عامة - الشعوب والطوائف التى أساليبها النقم ، لتحدى الحرمان من المشاركة فى فُرص ومزايا معينة ؛ بإبراز طاقة استثنائية وإظهار أهلية غير عادية فى الاتجاهات المفتوحة أمامها . ومثلها فى هذا الشأن ، مثل الأعمى الذى تقوى لديه حاسة السمع ، قوة خارقة .

٢ - ارتقاء الحضارات

يحدث الارتقاء - وفقاً لرأى الأستاذ توينبى - وقتما تصبح الاستجابة لتحدي معين ؛ لا ناجحة فى نفسها فحسب ، لكنها تستثير تحدياً إضافياً ، تُقابَل باستجابة ناجحة .

فكيف يتأتى قياس مثل هذا الارتقاء ؟

هل يُقاس وفقاً لسيطرة متزايدة على بيئة المجتمع الخارجية ؟

١ يجب الأستاذ توينبي على هذين السؤالين بأن ثمة نوعين من السيطرة المتزايدة ،

الأول - سيطرة على البيئة البشرية التي تتخذ عادة شكل غزو الشعوب المجاورة .

الثاني - سيطرة على البيئة المادية ؛ تتكشف عن تحسينات في الأسلوب التكنولوجي المادى .

بيد أنه لا يعتبر التوسع السياسى والحربى أو تحسين الأسلوب الفنى ؛ قاعدة مناسبة تكفل قياس الارتقاء الحقيقى للمجتمع ؛ فإن التوسع الحربى هو - عادة - مظهر نزعة حربية ؛ تعتبر بدورها قرينة على تدهور المجتمع ، لا إرثائه .

ولا تبدى التحسينات التكنولوجية - سواء أكانت زراعية أو صناعية - سوى ارتباطا قليلا - أو لا شئ - البيئة - بينها وبين الارتقاء الصحيح ؛ وحقاً ؛ فقد يرتقى تماماً الأسلوب الفنى وفقاً يكون التحضر الفعلى فى مرحلة انحطاط ؛ والعكس بالعكس .

أما قوام الارتقاء الحقيقى ؛ فهى عملية يطلق عليها توينبي كلمة « التسامى » ويعنى بها التغلب على الحواجز المادية . وتعمل عملية « التسامى » على إطلاق طاقات المجتمع من عقاها ، لتستجيب للتحسينات التي تبدو بعد ذلك داخل النفس أكثر منها خارجها ؛ أى أنها روحانية الطابع أعظم منها ماديته .

ولكن ما هى علاقة المجتمع بالفرد فى ظل عملية الارتقاء التي إنتهى المؤلف إلى تقرير أن « التسامى » أساسها ؟

ثمة رأيان شائعان :

الأول - يجعل من المجتمع ، مجرد حشد من ذرات هى الأفراد .

الثاني - يعتبر المجتمع كائناً حياً ؛ وما الأفراد إلا أجزاء منه ، ولا يُدركون إلا أعضاء أو خلايا في المجتمع الذي ينتسبون إليه .

وهذا ما لا يرضى عنه توينبي : فإن المجتمع عنده ، نظام للعلاقات بين الأفراد ؛ ولا يتأتى للكائنات البشرية أن تحقق وجودها الحقيقي إلا بتفاعلها مع رفاقها . وهنا يكون المجتمع ميدان عمل عدد من الكائنات البشرية ؛ على أن الأفراد هم « مصدر الفعل » . ذلك لأن جميع أسباب الارتقاء تنبعث عن أفراد مبدعين أو أقطاب صغيرة من الأفراد . ويتكون عملهم من جزئين : الأول : تحقيق إلهامهم أو كشفهم ، مهما يكن من أمره .

الثاني : هداية المجتمع الذي ينتمون إليه ، إلى سبيل الحياة الجديد هذا ويتأتى - من الناحية النظرية - حدوث هذه الهداية بطريق أو بآخر : إما بتعريض المجتمع للتجربة الواقعية التي حوّلت الأفراد إلى مبدعين ؛ وأما تقليد الناس لمظاهر الهداية الخارجية . وبعبارة أخرى الهداية ، بفضل المحاكاة .

ويعتبر الطريق الأخير - من الناحية العملية : هو مجال الاختيار الوحيد المفتوح أمام جميع الأفراد ، ما خلا أقلية بسيطة من الجنس البشري : وإن المحاكاة هي « طريق مختصر » ؛ لكنه طريق في وسع عامة الناس جميعاً سلوكه في إثر زعمائهم ، ليصلوا إلى مرتبة الارتقاء .

وظاهر أن الارتقاء - وفقاً لما سبق - مضمن تمايزاً بين أفراد المجتمع الذي يسير في مرحلة النمو . إذ ستبرز بعض الأجزاء استجابة ناجحة في كل مرحلة . وسينجح بعضها في تتبع خطاها بفضل المحاكاة ، وسيفشل بعضها في تحقيق الأصالة أو المحاكاة على السواء ، ومن ثم تهاوى . وسيكون ثمة كذلك تمايزاً بين مصائر المجتمعات . فواضح أن للمجتمعات المختلفة سمات مختلفة . إذ يتفوق بعضها في الفن ، والبعض في الاستنارة الدينية ، والآخر

فى الابتكارات الصناعية : بيد أن غايات الحضارات تتماثل فى جوهرها مثلها مثل البذور من نوع واحد ، فلكل حبة مصيرها ، لكن يبذرهما جميعها « باذر » واحد ، ليجتنى نفس المحصول .

٣ - إنهيار الحضارات

لم يبق من الإحدى والعشرين حضارة التى ظهرت فى الوجود ، سوى خمس حضارات . وبالتالى أنهارت ست عشرة حضارة .
فأهى أسباب انهيارها ؟ .

يمكن إجمال طبيعة الانهيار الحضارى ، وفقاً لآراء توينبى فى ثلاث نقاط :

الأولى : إخفاق الطاقة الإبداعية فى الأقلية المبدعة : وعندئذ تتحول تلك الأقلية التى كانت تفتتن بها الأغلبية فتحاكيها ، فتسير فى طريق الارتقاء بفضل هذه المحاكاة ؛ نعم تتحول إلى أقلية مهيمنة .

الثانية - تردّ أغلبية المجتمع على طغيان أقليته ، بسحبها ولأعها ، والعدول عن محاكاتها .

الثالثة - يستتبع فقدان الثقة بين أقلية المجتمع الحاكمة وأغلبيته المحكومة ، ضياع وحدة المجتمع الاجتماعية ، فانهياره .

ويخالف توينبى فى رأيه هذا ، آراء من سبقه من المفكرين :

١ - رأى بعض المفكرين القدامى ، أن انهيار الحضارة مبعثه تشيخ الكون . لكن علماء الطبيعة المحدثين ، أبعدوا عصر « التشيخ الكونى » إلى مستقبل قصى لا يسهل تصوره . وهذا يعنى انتفاء تأثيره على الحضارات سواء فى الماضى أو فى الحاضر .

٢ - اعتنق شبنجلر وغيره فكرة أن المجتمعات كائنات لها صفات

التحول الطبيعي من الشباب والنضج إلى الاضمحلال ؛ مثلها في ذلك مثل المخلوقات الحية . لكن المجتمع ليس - في حقيقته - كائناتنا من هذا النوع .

٣ - نادى آخرون بوجود شيء حتمى من شأنه تعويق سير الوراثة ؛ الأمر الذى يؤثر تأثيراً سيئاً في الحضارة وفي الطبيعة البشرية . وأنه بعد انقضاء فترة من التحضر لا يتيسر إنعاش الجنس إلا بفضل « سكب دم جديد همجى » . ويعنى هذا ؛ تسامى جنس معين على غيره من الأجناس البشرية . وهذا يجافى المنطق والعلم على السواء .

٤ - أبدى أفلاطون في كتابه « تيمايوس » فكرة مدارها أن التاريخ يكرر نفسه . أى أن التاريخ أجدر بصفة عامة أن يكون « إعادة أحداث » ، منه لإبراد سير . وهذا غير منطقي .

٥ - ثمة قول يعزو انهيار الحضارات إلى إضمحلال العمل الفنى الفذ ؛ أو يعزوه إلى عدوان يشن على الحضارات . بيد أن التاريخ يبين أن الاضمحلال هو نتيجة انهيار الحضارة لا سبباً له .

٤ - تحليل الحضارات

يرى الأستاذ توينبى أن الحضارة تصاب بالتحلل (أو ما يطلق عليه التحجر) ؛ وأورد طائفة من الأمثلة في الجزء الخامس من موسوعته . وأبرز تلك الأمثلة ؛ الحضارة المصرية . فإنه بعد انهيار المجتمع المصرى تحت العبء الجسيم الذى فرضه عليه بُناة الأهرام ؛ وبعد اجتياز مراحل الإنحلال الثلاث أى : عصر اضطرابات - دولة عالمية - فراغ ؛ نجد هذا المجتمع المشرف على الموت بشكل واضح ، يرتحل بفترة - عكس المنتظر - في اللحظة التى كاد يستكمل خلالها سير حياته . بيد أن المجتمع المصرى أبى عند هذه اللحظة أن يموت ؛ ومضى يضاعف فترة حياته . وإذا ما حسبنا مقياس زمن المجتمع المصرى لحظة رد فعله الاستثنائى ضد الغزاة الهكسوس

في إبان الربع الأول من القرن السادس عشر قبل الميلاد ، حتى طَمَسَ آخر معالم الثقافة المصرية في القرن الخامس الميلادي ؛ نجد أن فترة الألفي سنة هذه ، تبلغ استدامتها مجموع طول ميلاد المجتمع المصري مع ارتقائه وانهاره ، الجانب الأعظم من فترة انحلاله . وتُحسب هذه الفترات مجتمعة ؛ من تاريخ إعادة توكيد المجتمع المصري نفسه في إبان القرن السادس عشر قبل الميلاد ، حتى انبعائه لأول مرة فوق المستوى البدائي ، في تاريخ ما — غير معروف — خلال الألف الرابعة قبل الميلاد . بيد أن حياة المجتمع المصري في غضون النصف الثانية من بقائه ، كانت نوعاً من « الموت في الحياة » . وفي خلال هاتين الألفي سنة اللتين تعتبران زائدتين عن المقدّر في حياة المجتمع المصري ؛ أخذت حضارته التي حفلت حياتها الجارية بالحركة والمعنى ، تتباطأ في فتور وتعطل ، وفي الواقع ؛ عاش المجتمع المصري بفضل صبرورته متحجراً .

ويعتبر الأستاذ توينبي ميزان التحلل الحضاري في انقسام الجسم الاجتماعي إلى كسور ثلاثة : أقلية مهيمنة — بروليتاريا داخلية — بروليتاريا خارجية .

فأما الأقلية المسيطرة ؛ فإنها تلك الطبقة المبدعة التي كانت أغلبية المجتمع تقتدى بها وتحاكيها وتقتفي أثرها في طريق الارتقاء ؛ لكنها تحولت إلى أقلية مهيمنة بعد أن فقدت طاقتها الإبداعية .
وأما البروليتاريا الداخلية ؛ فإنها الجماهير التي باتت تحكمها الأقلية المسيطرة .

وأما البروليتاريا الخارجية ؛ فإنها الشعوب التي تُحيط بالدولة والتي تترصد بها ، وتسعى إلى الانقضاض عليها إن أُلْمَ بها بضعف ؛ وتُنشئ مكان المجتمع القديم مجتمعاً حديثاً .

ولكل جزء من أجزاء المجتمع وظيفته :

١ - تُنشئ الأقلية المسيطرة دولة عالمية .

٢ - تستجيب البروليتاريا الداخلية إلى نداء الروح ، فتعتنق ديانة عالمية .

٣ - تؤلف البروليتاريا الخارجية عصابات حربية بربرية ، تبتكر أشعار الملاحم مثل الإلياذة والأوديسية لهوميروس .

٥ - الدول والأديان العالمية

يقرر الأستاذ توينبي أن ثمة ثلاثة مظاهر بارزة للدول العالمية :

الأول - تنبعث الدول العالمية بعد إنهيار الحضارة ، لاقبلها . وتتولى الدولة العالمية تحقيق الوحدة السياسية لكيان الحضارة الاجتماعى . ولا يعتبر قيامها بشيرا بهدوء الحال واستقرار أوضاع الجسم الاجتماعى .

الثانى - تنبعث الدولة العالمية عن الأقلية المسيطرة . والأقلية المسيطرة هى الأقلية الحاكمة ، بعد أن فقدت طاقتها الإبداعية ؛ فخسرت ولاء الجماهير المحكومة وإعجابها .

الثالث - يعتبر إنبعث الدولة العالمية محاولة لمّ الشعث إبان التحلل .

فإن أخذت هذه المظاهر معا ؛ تطالعنا صورة للدول العالمية تبدو للوهلة الأولى مهمة . فبينما هى ظواهر تحلل اجتماعى ، إذا بها فى نفس الوقت محاولات لكبح جماح هذا التحلل ومناوئته .

والدول العالمية يفرضها بُنائها ؛ ويتقبلها رعاياها دواء شافيا لجميع أوجاع عصر الاضطرابات . وهى وفقا للتعبير السيكلوجى ، نظام يرنو إلى تحقيق الوفاق الاجتماعى والمحافظة عليه . وهى دواء ناجع لداء يتمثل ؛ فى بيت انقسم على نفسه انقساماً يحصد الجانبين على السواء . والانقسام نوعان : نوع أفقى - يحدث بين الطبقات التى تصارع بعضها بعضا ، وهذا هو الصراع الطبقي

أساس نظريات كارل ماركس ومريديه ؛ ونوع رأسى يتخذ سبيله بين الدول المتحاربة .

وفي غمار عصور الاضطرابات وتحلل المجتمعات تنبثق الأديان العالمية . ويتساءل المؤلف :

كيف يتأتى للنفوس في نشأتها الإله أن تنزع جوهر الدين من أحداث التاريخ .

وكيف تأتى للمسيحيين والبوذيين والمسلمين والهندوكيين — منفصلين عن بعضهم بعضا — أن يحرزوا مزيدا من التقدم والازدهار في عالم بات متحدا على نطاق واسع ؟ .

ويجيب على هذين السؤالين بأن الباحثين عن ضياء الروح ؛ يرهقهم في العصر الحديث صراع بين القلب والعقل ، ولا حل له إلا مزيد من الدفع الروحي للنفوس البشرية . وظاهر أنه قد أصبح للحقيقة في العصر الحديث أسلوبان فكريان يدعى كل لنفسه الحق المطلق ، ولكن يجافى أحدهما الآخر ؛ هذان هما : الوحي النبوى ، والعقل الفلسفى . ولا نجد إزاء هذا الموقف الأليم إلا بديلين فحسب :

فإما أن يتمكن أسلوبا الحقيقة من التوفيق بينهما ، أو أن يصارع أحدهما الآخر حتى يصرعه ، فيتم له إخراج خصمه من الميدان .

وإذا كان العلم قد انتصر على الدين في البلاد المتحضرة ، انتصارا ساحقا ؛ فإن هذا الانتصار يعتبر كارثة لا على الدين وحده — ولكن على العلم كذلك . فإن كلا من الدين والعقل ملكة جوهرية من ملكات الطبيعة البشرية .

فالحق ؛ أن سيطرة الإنسان على الطبيعة المادية — التى منحها العلم

للإنسانية - هي للإنسان أقل أهمية - إلى أقصى الحدود - من أهمية علاقاته بنفسه ، وإخوانه البشر وصلته بالله . فما كان ليتأتى للعقل البشرى أن يجعل من الإنسان سيّداً على العالم ، لو لم يوهب سلفه في المرحلة السابقة على الإنسانية ، القدرة على التحوّل إلى حيوان اجتماعى . ولكن الإنسان البدائى لم يرتفع إلى ذلك النبع الروحى ، بحيث يستطيع أن يتعلم ويأخذ من هذه المقومات الاجتماعية التى تكون الظروف التى لاغنى للإنسان العامل عنها ؛ كى يؤدى الأعمال القائمة على التعاون والتآزر . ولقد أثار العلم الحديث قضايا معنوية بالغة الأهمية ، ولكنه لم يشارك فى إيجاد حلول لها ؛ وما كان فى وسعه أن يفعله .

والواقع - كما يقر الأستاذ المؤلف - إن أهم الأسئلة التى ينبغى للإنسان الإجابة عنها ، ليس للعلم فيها قول فصل . وهذا هو الدرس الذى سعى سقراط إلى تعليمه ؛ وقمنا نبذ دراسة علم الطبيعة ، بغية نشدان الاتحاد مع الطاقة الروحية التى تعلن عن الكون وتحكمه .

ويرى الأستاذ توينبى أنه لن تتحقق للبشرية وحدتها المرتجاة ، من غير مشاركة الله . فلو أسقطت المرشد العلوى من اعتبارها ، لاندفع الإنسان إلى الفتنه والتنافر ، وهو ما يجافى طبيعته القائمة على الألفة وحسن المعاشرة . ولعذبه ذلك الحس من العناية الكامن فى نفسه ؛ بحكم كونه كائناً اجتماعياً . ذلك العناية الذى يزداد حدة كلما ازداد الإنسان قدرة على أن يرتفع بحياته إلى تحقيق الاحتياجات المعنوية لطبيعته الاجتماعية ؛ طالما سعى الإنسان أن يلعب دوره فى مجتمع نبذ الإله الواحد الحق الصمد . وهذا العناية ناجم عن أن الجهد الاجتماعى الذى يبذله المرء ليستكمل ذاته ، يتعدى بمراحل حدود حياته على الأرض زماناً ومكاناً . وعلى هذا يصبح التاريخ عند كل امرئ يشارك فيه - على حدة - مجرد حكاية بروها أبله ؛ لكن هذا الشيء الذى لا معنى له ، يكتسب معنى روحانياً عندما يكشف المرء فعل الإله الواحد الحق .

وعلى هذا النحو : قد تكون الحضارة - أية حضارة - ميدانا للعمل الوحيد المسلم به أخلاقيا .

وعند الأستاذ المؤلف ؛ أن الأديان العليا ، تهيئ للنفوس البشرية اكتساب رعية ملكوت الله - هذه الدولة الإلهية - على الأرض ، فيتاح للإنسان - من ثم - المساهمة بقسط غاية في الضآلة في سير التاريخ الدينى . وهو قسط يكفل له تأدية دوره على الأرض ، ولكن على اعتبار أنه مساعد لإرادى لإله يضيف سلطانه على جهود الإنسان لتأدية رسالته على الدنيا ؛ يضيف عليها قيمة ومعنى ربانيين .

٦ - تلاقى الحضارات

تتلاقى الحضارات وتتصادم ، ولهذا أهميته الكبرى في التاريخ البشرى . وليس أدل على أهمية الدور الذى أداه التلاقى بين مختلف الحضارات فى عملية تكوين الأديان العليا ، من استعراض ما قامت به منطقتان صغيرتان نسبيا هما : أولا - حوض نهري سيحون وجيحون - إذ كان مسقط رأس البوذية المهايانية على الصورة التى انتشرت بها فى عالم الشرق الأقصى .

ثانيا - سوريا - ففيها تبلورت المسيحية فى الشكل الذى انتشرت به فى العالم . كما انبثقت اليهودية فى سوريا الجنوبية . وإذا اعتبر الحجاز امتدادا لسوريا - صوب الجنوب - لأمكن إدخال الإسلام فى نطاق العقائد الدينية التى ظهرت فى تلك البقعة .

ففى سوريا تتلاقى الطرق الآتية من حوض النيل ومن البحر المتوسط ومن الأناضول (مع ظهيره ، الأرض الأوربية الجنوبية الشرقية) ومن حوض دجلة والفرات ، ومن الشهبوب العربية .

وكذلك تتلاقى في آسيا الوسطى الطرق الآتية من حوض دجلة والفرات عن طريق الهضبة الإيرانية وتلك الآتية من الهند عبر الممرات الواقعة فوق جبال هندوكوش . ومن الشرق الأقصى عن طريق حوض نهر تاريم . وكذلك الطرق الآتية من السهوب الأوراسية المتاخمة التي أخذت مكان « منطقة بحر متوسط أخرى » وورثت خاصية التوصيل هي الأخرى . وشهد على وجودها فيما مضى بقاياها الماثلة في : بحر قزوين ، وفي بحر آرال ، وفي بحيرة بالكاش .

فالقدر — والحالة هذه — قد رسم دوراً لهُذين المركزين القويين لحركة التجارة . وقد أداه كل منهما في واقع الأمر — المرة بعد الأخرى ، وذلك في غضون الخمسة آلاف أو الستة آلاف سنة منذ إنبعث الحضارات الأولى . فقد ظلت سوريا فترات متعاقبة مسرحاً للمصادمات بين الحضارتين : السومرية والمصرية ؛ وبين الحضارات : المصرية والحيثية والمينووية (الكريتية) ؛ وبين الحضارات : السورية والبابلية والمصرية والهلينية (اليونانية) ؛ وبين الحضارات : السورية والمسيحية الأرثوذكسية والمسيحية الغربية . وفي نهاية المطاف ؛ شهدت هذه المنطقة الاتصالات بين الحضارات : العربية والإيرانية والغربية .

وكذلك كان حوض سيحون وجيحون مسرحاً للمصادمات خلال فترات متعاقبة بين الحضارتين : السورية والسندية ؛ وبين الحضارات : السورية والسندية والهلينية والصينية ؛ وبين : الحضارة السورية وحضارات الشرق الأقصى .

وترتب على تلاقى الحضارات — كما يقرر الأستاذ المؤلف — أن كلا من هاتين المنطقتين الحاملتين للإشعاع الديني ، قد دخلت في نطاق الدول العالمية التي انتظمت في عدد من الحضارات المختلفة . وهذا التمازج الضال — الذي لانظير له — بين الحضارات في هاتين المنطقتين ؛ يفسر التركيز الغير العادي — داخل حدودهما — كمواطن إنبعث الأديان العليا .

وقد عرض الأستاذ المؤلف في خلال الجزء الثالث من هذه الترجمة ؛ لطائفة من مظاهر التلاقى بين الحضارات المختلفة . وأخص بالذكر تلاقى الحضارة الغربية مع كل من : روسيا - البلقان - الهند - العالم الإسلامى - اليهود - الشرق الأقصى .

ويرى الأستاذ المؤلف أنه مهما يكن من أمر النكبات التى حلت بالعالم الإسلامى فى خلال القرن التاسع عشر ؛ فإنه ما حل النصف الثانى من القرن العشرين ، حتى كانت دار الإسلام مليمة الجوهر ؛ فلم يُنتقص منها سوى بضع مقاطعات من أطرافها . وأمكن هذا الجوهر إنترجاع نفسه من طوفان الإمبريالية البريطانية والفرنسية والهولندية . وللعالم الإسلامى - فى الوقت الحاضر - أهميته القصوى كمصدر للسلع الأساسية وفى طليعتها النفط وكعبر للمواصلات الرئيسية . الأمر الذى يجعله نقطة الصراع الدولى بين الكتلتين المتنازعتين .

ويعتبر الأستاذ المؤلف اليهودية ظاهرة اجتماعية شاذة ؛ بحسبانها فضلة متحجرة من حضارة بادت وانهضت فى كل مظاهرها . ولما فقدت اليهودية صفتها كدولة ؛ استثار هذا التحدى اليهود ليبدعوا لأنفسهم طرازاً من الكيان الطائى ، استعاضوا داخل نطاقه عن فقدان دولتهم وبلادهم ، بالاحتفاظ بذاتيتهم فى صورة تشتت وانتشار بين ظهرائى أغلبية أجنبية ، وفى ظل حكم أجنبى . وحافظ اليهود على ذاتيتهم بفضل التخصص فى مجالات جديدة من العمل تقوم خاصة على تنمية مهارة خاصة فى شئون التجارة وغيرها من الحرف الحضرية . ويرى المؤلف أنه مهما يكن من أمر التسامح الذى ما برح الناس فى الدول الغربية يبذلونه لليهود المقيمين بين ظهرانيهم ؛ فإن الفرد المسيحى الغربى ما برح يجابه تضامناً وثيقاً - ماسونية - يربط اليهود بعضهم ببعض ، كما يواجه طموحاً يهودياً إلى المطالبة بمزيد من المزايا التى يُسبغها المجتمع الموحد فى الغرب - رسمياً - على جميع أفرادهِ - بما فى ذلك

اليهود . لكن اليهود ليسوا على استعداد من جالهم لمنح غيرهم أية مزايا . فكان أن أصبح الغربيون يضعون اليهود في منزل نفساني . ويجد اليهودي نفسه — عملياً — متبوذاً بمختلف الأساليب ؛ وإن كان المجتمع المسيحي الغربي من الوجهة الرسمية يقرر المساواة بين مواطنيه .

ثم يعرض المؤلف لاضطهاد اليهود عرب فلسطين ؛ على غرار اضطهاد النازي لهم . ثم تكلم في الجزء الثالث — من هذه الترجمة — عن سياسة كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة تجاه مشكلة فلسطين

٧ — مستقبل الحضارة الغربية

أسفرت أبحاث الأستاذ توينبي عن إنبهار الحضارات وتحللها ؛ على أن السبب في كل حالة ، نوع من الإخفاق في تقرير المصير . ومداره تفريط المجتمع في حق نفسه ، بصرفه عن توجيه إرادته صوب عمل نافع . ويتمثل هذا التفريط ؛ في تردده في التعلق بنوع من الوثنية ، أقامه هو نفسه لنفسه :

ويطبق توينبي هذا الرأي على المجتمع الغربي . فيجده قد سلك مسلك الإنسان الضال العاكف على عبادة بضعة أوثان . إلا أن من بين هذه الأوثان ، وثناً مادت عبادته الأوثان الأخرى بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية ؛ هذا هو وثن الدولة الإقليمية القومية .

ويعتبر توينبي ظاهرة تقديس الدولة الإقليمية إلى حد العبادة ، بمثابة نذير رهيب للغرب ؛ من ناحيتين :

الأولى — أن هذا التعلق الوثني بالدولة الإقليمية ، هو العقيدة الدينية الحقيقية للغالبية العظمى لسكان العالم المصطبغ بالصبغة الغربية .

الثانية — أن هذه العقيدة الباطلة ، هي السبب في انقضاء أجل ما لا يقل

عن الأربع عشرة حضارة - وقد يكون عدتها ست عشرة - من الحضارات الإحدى والعشرين .

وحقاً ؛ ما برحت الحرب التي يقتل فيها الأخ أخاه ، ويشند فيها استعمال العنف - وهى نتيجة التعلق بفكرة الدولة الإقليمية - هى إلى أبعد حد أكثر عوامل الفناء شيوعاً .

ويرى توينبى أن أزمة المجتمع الغربى ، روحانية ؛ وليست مادية . إذ رغما عن بلوغ هذا المجتمع الذروة فى تقدمه المادى ، إلا أنه يحس بجوع روحى .

وإذا كانت النفوس الغربية قد استبد بها قلق الفراغ الروحى فالزمها بفتح الباب لشياطين مثل النازية والفاشية وما إليها ؛ فإلى متى تحتل العيش بدون عقيدة دينية ؟

هنا يقول توينبى : « إن التائهن فى ببداء المجتمع الغربى قد انحرفوا عن طريق الرب الواحد الحق الذى آمن به أجدادهم : أولئك الذين علمتهم التجربة الواقعية بأن الدول الإقليمية - مثل الكنائس الطائفية - أوثان تجلب عبادتها الحرب ، لا السلام . وهذا ما يجعل التائهن يندفعون صوب التعلق بهدف بديل : هو النظم السياسية الشاذة » .

ويرى توينبى أن الإنسان المتأثر بالحضارة الغربية قد استجلب على نفسه الكوارث بتكريسه جهوده لزيادة رخائه المادى وحده . فإن قيُص له أن ينشد الخلاص ؛ يصبح سبيله الوحيد ، مشاطرته نتائج جهوده المادية مع غالبية الجنس البشرى ؛ تلك التى لم توفى فى المجال المادى ، توفى الإنسان الغربى .

ويخلص توينبى إلى تقرير ضرورة تنظيم العالم على أساس دولى ، ينتقى منه التعصب القومى . ويتم ذلك بإقامة حكومة عالمية توجه شئون العالم

لمنفعة جميع أجناسه دون تمييز . فإن أبت دول العالم ذلك بحكم - حرصها على سيادتها الإقليمية - يصبح الفناء والدمار ، نصيبها جميعها .

وعنده أن حل جميع مشاكل العالم يكمن في تطبيق نظام اشتراكي ؛ يحصل فيه كل فرد على نصيبه العادل من إنتاج المجتمع ، في ظل نظام عالمي الطابع . وأن يتجه الناس جميعاً إلى خالقهم ، يلتمسون الهداية والرشاد ،

ولم أُنْهِ إذ أنتهى من ترجمة هذا المختصر لموسوعة توينبي عن « دراسة للتاريخ » أزجى خالص الشكر وعميق التقدير للأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم لتفضله باستكمال مراجعة هذه الترجمة بعد وفاة أستاذنا الكبير محمد شفيق غربال الذى راجع رحمه الله الجزءين الأول والثانى والباب الأول من الجزء الثالث . ولقد كان لتوجيهاتهما السديدة خير مرشد لى قى إبراز هذا العمل الثقافى الفذ فى إطار عربى .

والله تعالى أسأله العون والتوفيق .

فؤاد محمد سبل

٢٤ مارس سنة ١٩٦٥

الباب العاشر

الاتصال بين الحضارات في الزمن

الفصل الرابع والثلاثون

عرض لحركات البعث

(١) تقديم - البعث

يبدو أن كاتباً فرنسياً يدعى ل. ج. دوليكولوز E.J. Delecluze (١٧٨١ - ١٨٦٣) كان أول من استخدم اصطلاح « البعث » La Renaissance^(١) لوصف تأثير الحضارة الهلينية المندرسة في المسيحية الغربية في زمان معين وفي مكان بذاته ؛ هما شمال إيطاليا ووسطها ، في غضون العصر الوسيط المتأخر .

وهذا التأثير - بالذات - ليس بأية حال من الأحوال ، المثال الفريد من نوعه الذي يسجله التاريخ . وسنستخدم هنا الاصطلاح ، باعتباره مدلولاً عاماً لمثل هذه الظواهر ؛ ونتابع طريقنا لدراستها . وبقتضينا هذا الأمر ؛ إلزام الحرص في البعد عن تضمين الاصطلاح أكثر مما نقصد . ولما كانت هذه الثقافة الهلينية في مجالي الفن والأدب - لأن هذا الاصطلاح في الاستخدام المتعارف عليه مقصور على هذين المجالين - قد وفدت إلى إيطاليا عن طريق الاتصال بالعلماء من بيزنطة ؛ فإن هذه الثقافة لم تكن بالطبع « تلاقياً » في الزمن مع حضارة مندرسة ، بل كانت تلاقياً في المكان مع حضارة حية . وتنتمي إلى الموضوع الذي نوقش في الجزء السابق من هذه الدراسة^(٢) .

(١) يرجع العهد بأول استعمال في اللغة الإنجليزية للاصطلاح إلى عام ١٨٤٥ . فقد عمل ماثيو آرتولد على إشاعة استعماله في صورة إنجليزية renaissance عوضاً من الصورة الفرنسية renaissance (المؤلف)

(٢) انظر صفحات ٢٦٥ - ٢٨٤ من الجزء الثالث من هذه القرينة .

كذلك ؛ فإنه عند ما « عُبِّرَت تأثيرات اليونان الثقافية جبال الألب » وأثرت حركة البعث الإيطالية في الفن والأدب في فرنسا وفي غيرها من البلاد الغربية الواقعة وراء الألب ؛ لم يُعتبر هذا — بحكم أنه وقَد عن طريق إيطاليا المعاصرة مباشرة من الإغريق القديمة — حركة بعث بالمعنى الدقيق للاصطلاح ؛ بل كان لا يعدو أن يكون توصيل منجزات قطاع رائد عن مجتمع ، إلى سائر القطاعات من نفس المجتمع . فهو — والحالة هذه — ينتمى إلى موضوع « نمو الحضارات » الذي سبق بحثه في هذا السياق من الباب الثالث من هذه الدراسة^(١) .

... على أن هذه الفوارق المنطقية ، قد تبدو أنها خُطِطت تخطيطاً بُولغ . بعض الشيء في دقته . وفي التطبيق العملي ؛ قد يظهر عسيرا وعديم الحدودى ، أن نُميِّز بين حركة بعث « خالصة » (بمعنى كونها تلاقيا مباشرا مع مجتمع بائد) وبين نهضة تمازجت بشكل أو بآخر من الأشكال التي أسلفنا الإشارة إليها .

وينبغي أن نلاحظ كذلك — قبل التوغّل في نجوب آفاق حركات البعث — أن هذه الظواهر ، أجدر أن تُميِّز عن نمطين آخرين من تلاقى الحاضر بالماضى :

الأول — يتمثل في علاقة « التبنى » و « الانباء » بين حضارة محتضرة — أو بائدة — وخليفها الحضارة الوليدة ، أو غير نامة التكوين .

وهذا موضوع أمهنا فعلا في الكتابة فيه . وقد يمكن النظر إليه كظاهرة طبيعية وضرورية مثلناها بالعلاقة بين الأبوين والأبناء . ومن الناحية الأخرى ؛ فإن حركة البعث ، هي تلاقى بين حضارة نامية و « شبح » حضارتها الأصلية

(٣) انظر صفحات ٢٧٣ - ٤٠٦ من الجزء الأول من هذه الترجمة .

التي بادت منذ أمد بعيد . وهذه حالة - وإن كانت مألوفة تماما - قد
تُوصف بالشذوذ ؛ وغالباً ما تُسفر دراستها ؛ عن إظهار ضررها الويل ؛
والنمط الآخر للتلاق بين الحاضر والماضي الذي يجب أن (نُفَرِّق بينه
وبين حركات البعث) يتجلى في الظاهرة التي دعوناها في موضع سابق
بـ «السلفية»^(١) . واستخدمنا هذه الكلمة للدلالة على محاولات الارتداد
إلى مرحلة سابقة من مراحل إرتقاء المجتمع ؛ مرحلة ينتسب إليها أصحاب
السلفية أنفسهم .

وما برحت هناك نقطة أخرى ؛ لتوضيح الفارق بين هذه الأنواع
الثلاثة من تلاق الحاضر بالماضي :

ففي علاقة «التبني» و «الانتماء» ؛ واضح أن المجتمعين اللذين يتصل
أحدهما بالآخر ، يتباينان تبايناً بيئياً ، بل ويتعارضان في مراحل النمو .
ذلك لأن المجتمع الأصلي (الذي يتفرع عنه المجتمع الآخر) مجتمع متحلل ؛
في حين أن عقبته ، طفل وليد متمسك بالمشاكسة والعناد .

كما أن المجتمع السلفي ، قد تملكه الإعجاب بأوضاع تختلف تماماً عن
أوضاع عصره هو . وإلا ؛ فالداعي لاعتناق نزعة السلفية ؟

ومن الناحية الأخرى ؛ فلربما يكون المجتمع الذي يبدأ مرحلة البعث ،
أميل إلى العزوف عن إستعادة شبح الأب ، وقما كان يمر هو بالذات
بمرحلة النمو التي يمر بها وليده الآن . فهل كان في استطاعة «هملت»
اختيار نوع شبح والده الذي قد رله ملاقاته على المعازل : إما شبح والد
عبث المشيب بلحيته ، أو شبح والد مثل عمره ؟

(١) انظر بحث السلفية في صفحات ٢٨٤ - ٤٠١ من الجزء الثاني من هذه
الترجمة .

(٢) بعث الآراء والنظم السياسية

أظهرت حركة البعث الإيطالية للثقافة الهلينية في العصور الوسطى المتأخرة ؛ تأثيراً على المنحى السياسى للحياة الغربية ، أبقي مما أظهرته على صعيدى الآداب والفنون . يُضاف إلى هذا ؛ أن هذه المؤثرات السياسية ، لم تعمّر أكثر مما عمرته المؤثرات الجمالية فحسب ؛ بل لقد استأثرت بها أيضاً .

وبدأت هذه المؤثرات ، وقتما خرجت المدن اللومباردية من سيطرة أساقفتها إلى أيدي المجالس الشعبية التى كانت تُديرها لجان من القضاة مسئولين أمام المواطنين . وهذا الإحياء الذى شهدته إيطاليا في القرن الحادى عشر لنظام دولة المدينة الهلينية ، قد مضى قدماً تحت تأثير إشعاع الثقافة الإيطالية في أقاليم المسيحية الغربية الواقعة وراء جبال الألب ، فكان أن أُنثر على شعوب الممالك الغربية الإقطاعية .

وكان لإحياء هذا النظام ؛ تأثيره المماثل ، سواء في مجاله المبكر والضيق النطاق ، أو في مجاله الأرحب والأكثر حداثة . وتبلور التأثير الظاهرى في إشاعة الإيمان بالحكم الدستورى الذى خَلَعَ على نفسه في نهاية المطاف اللقب الهلنى « ديمقراطية » . بيد أن المصاعب التى جابهها النظام الدستورى ، والفشل الذى مُنى به ؛ مهّدت السبيل لظهور صورة أخرى من نُظُم الحكم اليونانية تتمثل في شخص « الطاغية » . وقد انبعث الشكل الديكتاتورى في بداية الأمر في مدن الدول الإيطالية ؛ ثم انتشر بعد ذلك ، إنتشاراً واسعاً حمل بين طياته — بالتبعية — نتائج أشد وبالا .

وظهر طيغف هلىنى آخر على مسرح العصور الوسطى ، وقتما توج البابا ليو الثالث شارلمان إمبراطوراً رومانياً في كنيسة القديس بطرس عام ٨٠٠ ميلادية . وبالمثل ؛ أصبح لهذا النظام — فيما بعد — تاريخ حافل . وكان أوتو الثالث

الساكسوني (حكم ٩٨٣ - ١٠٠٢ ميلادية) أكثر هؤلاء الأباطرة الأبطال (١) تمسكاً بالحدلقة الهلينية . فإنه هو الذى نقل كرسى حكمته إلى روما ؛ وكانت تقع وقتذاك على رقعة من الأرض المشتركة ، تداخل فيها مجالا نفوذ المسيحيين : الغربية والشرقية (٢) . ولقد رنا أوتو الثالث بتنصيبه نفسه فى المدينة الرومانية السابقة ؛ إلى تعزيز الدعامة الواهية لسلطان الإمبراطورية الرومانية الذى أقيم فى جزء من العالم المسيحى الغربى . وذلك عن طريق تقويتها بمعدن أصلب عودا ، مُستجلب من « مصنع بيزنطى » .

وكما مرّ بنا فى موضع سابق ؛ رأينا أن تجربة أوتو الثالث - التى انهارت بعد وفاته المبكرة - قد كررها رجل عبقرى هو فردريك الثانى هوهنشتوفن Frederick II Hohenstaufen بعد ذلك بأكثر من قرنين ، وفى ظروف أكثر ملاءمة ؛

ولقد روجّ جان جاك روسو بعد ذلك بعدة قرون ، للأسلوب الهلنى الذى اصطنعه بلوتارخ (٣) . ومن هنا ؛ أن الثورين القرنسيين لم يسأموا قط

(١) باعتبارهم يمثلون طيف (أوشيج) الأباطرة الرومانيين القدامى . (المترجم)

(٢) المسيحية الشرقية هى المسيحية الأرثوذكسية ، والغربية هى الكاثوليكية . إذ لم يكن المذهب البروتستانى - وقتذاك - قد عرف بعد . (المترجم)

(٣) بلوتارخ : عمدة فلاسفة اسبرطة . وقد كتب كتاباً عن حياة ليكوجورجوس واضع قوانين اسبرطة (كما تذكر أساطيرها) . ويقول بلوتارخ إن ليكوجورجوس أمضى سنوات طويلة فى زيارة كريت وآسيا ومصر ؛ دارساً أحوالها ونظمها السياسية ؛ لوضع قواعد الحكم فى بلاده على أساس علمى وطيد . وبدأ بأن أقام مجلس شيوخ عدد أعضائه ثمانية وعشرون ، ويشترك مع الملك فى تحمل أعباء الحكم وله نفس حقوقه ويوازن سلطانه . ويعاون مجلس الشيوخ ، جمعية الشعب ، وتحصر سلطاتها فى الموافقة على المشروعات التى يقرها الشيوخ والملك ، أو رفضها .

وأهم ليكوجورجوس - كما يذكر بلوتارخ - بالمشكلات الاجتماعية . فعمد إلى إعادة توزيع أراضي الطبقة الحاكمة على أفرادها ، ليكونوا أقرب إلى التناقص والانسجام ، ولخاربة الترف والجشع والحسد فيما بينهم . كما أنه أعاد توزيع الأراضي الأخرى على أفراد الشعب ، بحيث تنال كل عائلة كفايتها من العمل والعلوم ، مع مساواتها بغيرها فى الملكية .

والننى ليكوجورجوس التعامل بالذهب والفضة ، واستعاض عنها بالحديد فى الأغراض -

تكرار التنويه بصولون Solon وليكورجوس Lycurgus : كما أنهم زيتوا نساءهم ورؤساءهم في حكومة الإدارة — على السواء — بالزنى الذى ظنوه من أزياء الإغريق الأقدمين .

تُرى ما الذى يجعل أقرب إلى طبيعة الأشياء مما تقدم ؛ ما عمد إليه نابليون الأول — وقتما رغب في التمسك بشخصه عن مرتبة القنصل — من التسمي بـ « الإمبراطور » وخلع لقب « ملك روما » على ولده ووريثه ، علماً بأن هذا اللقب كان يحمله إبان القرون الوسطى الغربية ، المرشحون لمنصب « الإمبراطور الروماني المقدس » إلى أن يتوجه البابا في روما (وهذه الرسامة البابوية لم تُقَيِّضْ لكثير من المرشحين) ؟

أما نابليون الآخر (المعروف بالثالث) فقد كتب فعلا — أو دعا إلى أن يُنشر باسمه — سيرة يوليوس قيصر . وأخيراً فقد عبّر هتلر عن تبجيله لطيف الطيف^(١) ، بتشبيده مقره الريفي على صخرة شاذجة تُشرف على ذلك الكهف المقدس المسحور الذى كان لبارباروسا في برختسجادن Berchtesgaden^(٢) ، وبتقبُّله شعار مُلك شارلمان المسروق من متحف للهابسبرج .

= النقدية ، حتى يتساوى المواطنون في الثروة المنقولة . وحارب الترف بجميع أشكاله ؛ فحتم تناول الطعام في المطاعم الشعبية العامة .

والواقع ينزع ليكورجوس في جميع قوانينه ونظمه ، إلى تقييد حريات الأفراد منذ مولدهم حتى مماتهم . فينظم تربيتهم وتثقيفهم وطعامهم ولهوهم ؛ تقييد لا يقاس إلى جانبه أى نظام ديكتاتوري آخر — انظر كتاب « المدينة الفاضلة » للمترجم . (المترجم)

(١) طيف الطيف : يقصد نابليون الذى كان طيفا للآباطرة الرومان الأقدمين . (المترجم)

(٢) بارباروسا : هو لقب فردريك الأول (حوالى ١١٢٢ - ٩٠) . ويعنى اللقب ، ذا اللحية الوردية . كان رئيس الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وتم في عهده إقرار النظام في ألمانيا بأسرها . وامتد سلطانه إلى إيطاليا ، وتوجه البابا أدريان الرابع لإمبراطورا على الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وتمتاز أيامه بانتشار الرخاء والأمن في ربوع إمبراطوريته . وقد مات غرقاً في غاليسيا عام ١١٩٠ .

ولكن طيفاً آخر أطيب وأخير ، يحوم حول نظام الملكية المسيحية الغربية . فإن المراسم الدينية التي أضفيت على الإحياء الشكلي للإمبراطورية الرومانية في الغرب في يوم عيد الميلاد من عام ٨٠٠ ميلادية - وقتما جعل من ملك الفرنجة إمبراطور روماني بموجب تتويج البابا إياه - إن هذه المراسم الدينية لا نظير لها في تاريخ اليونان : على أن ما أُجرى من طقوس في روما في ذلك اليوم ، له سابقة تشاكله ، فيما أُجرى من طقوس في سواسون Soissons عام ٧٥١ ميلادية ؛ وقتما نصب القيسم الأوستراسي « بين Pepin » ملكاً على الفرنجة بموجب تتويج القديس بونيفاس Saint Boniface (مندوب البابا زكريا) ومسّحه إياه . فهذه السُنّة الغربية للرسم الكنسية - وكانت مألوفة بالفعل في أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين - هي إحياء لسنّة سُجِّلَتْ في سفرى صمويل والمثوك . إذ ورد فيهما تتويج النبي صمويل للملك داوود ، وقبام كل من صادق الكاهن وناتان النبي بتتويج الملك سليمان ؛ وكلها سوابق لكافة مراسم تتويج الملوك والملكات في الغرب المسيحي .

(٣) بعث النظم القانونية

أشرنا قبل الآن إلى الجهود المضنية التي بذلت خلال عشرة قرون تنتهى بمدونة يوستينيان لوضع قانون روماني يكفل احتياجات الشعب

= وثمة أسطورة يرددّها عامة الألمان بأن بارباروسا وأتباعه ينامون داخل كهف ، نومة عميقاً (أسوة بأهل الكهف الوارد ذكرهم في التوراة وفي القرآن الكريم) . وأنه عندما تزهر أشجار الكرز الواقعة أمام الكهف ، يستيقظ بارباروسا وأتباعه ليعيدوا إلى ألمانيا مجدها الغابر وسلطانها . البائد الذين كانت عليهما في عهده . ولقد روجت الدعاية النازية بأن هتلر هو بارباروسا باسم جديد . وهذا ما دعا هتلر إلى إتخاذ برختمسجادن مكاناً أثراً لرسم خططه السياسية والعسكرية .

وجدير بالذكر ؛ أن للقادة العسكريين الألمان - وعلى رأسهم هتلر طبعا - قد أطلقوا اسم « بارباروسا » على خطة غزو روسيا في الحرب العالمية الثانية ، إيماناً بأن نجاح الخطة سيجعل ألمانيا سيدة العالم وسيعيد إليها الهدى فقدته بعد بارباروسا . (المترجم)

الرومانى أولا ، ثم احتياجات المجتمع الهلنى بأمره : بيد أن انهيار أسلوب الحياة — الذى وضع القانون الرومانى لتنظيمه — قد أوهنه ؛ فتداعت قوائمه . ولم يقتصر الأمر على النصف الغربى من العالم الهلنى ، بل تعداه كذلك إلى نصفه الشرقى .

ثم تلت أعراض الاضمحلال ؛ أعراض إنبثاق حياة جديدة على الصعيد القانونى ، مصداقاً لما حدث على الصعيد السياسى . على أن الدافع لإيجاد قانون حىّ لمجتمع حىّ ؛ لم ينشأ فى أول الأمر من أى حركة لبعث الحياة فى القانون الرومانى الذى كان فى القرن الثامن الميلادى ينتصب عالياً مملقاً فوق رؤوس المعاصرين كما لو كان « قوس قزح » فوق الهيكل الضخم لثقافة هلىنية مندرسة .

وللتدليل على الإخلاص فى الإيمان بقانون مسيحى ؛ سعى المجتمعين المسيحيين الجديدين — كليهما (شرقية وغربية) لأن يوجد — قبل كل شىء — قانوناً مسيحياً لشعب مفروض أن يكون مسيحياً . لكن تبع هذا التحوّل الجديد فى كلا العالمين :

أولاً — إنعاث الشريعة الموسوية ، كما وردت فى الكتاب المقدس الذى ورثته المسيحية عن اليهودية :

ثانياً — إحياء التشريع الرومانى ؛ كما ورد بمدونة يوستينيان .

فى الشرق المسيحى ، أعلن عن التحوّل المسيحى الجديد ؛ خلال الحكم المشترك للمؤسسين السوريين للإمبراطورية الرومانية الشرقية وهما ليو الثالث وولده قسطنطين الخامس . وذلك حين صدر عام ٧٤٠ ميلادية « تشريع مسيحى » هو محاولة مرسومة لتعديل النظام القضائى فى الإمبراطورية عن طريق تطبيق المبادئ المسيحية^(١) .

(١) الملحق الثانى — صفحة ٥٢٦ من المجلد الخامس Bury J. B وقد نشر كتاب

Edward Gibbon : The History of the Decline and Fall of the Roman Empire (London 1901 — Methuen).

لكن كان لا مناص في غالب الأحيان ، من أن يعقب ظهور تشريع مسيحي جديد ؛ بعث التشريع اليهودي الذى أصرت الكنيسة المسيحية على تضمينه قانونها العام . ولربما نهجت هذا النهج عن عدم تبصّر ، ولم تكن بالتأكيد سعيدة به كل السعادة . ومواء أكان هذا التشريع موسوياً أو مسيحياً ؛ فقد دلل ما أقره هذان الإمبراطوران السوريان - بمرور الأيام - على قصوره عن مواجهة مشكلات المجتمع البيزنطى المعقّدة المتزايدة . فكان أن جاهر « باسيل الأول Basit I » مؤسس الأسرة المقدونية وأبناؤه (وهم خلفاؤه مئى بعده) خلال السنوات التى تلت عام ٨٤٠ ميلادية ؛ بأنهم « قد نبذوا وطرحوا وراء ظهرانهم الغباوات التى نشرها السوريان » ، ويعنون بذلك العاهلين السورين السابقين لهم . وبهذا الحطّ الشديد من قدر الإمبراطورين السابقين ؛ كرّس الأباطرة المقدونيون جهودهم لبعث مدونة يوستينيان إلى الحياة . وتصور هؤلاء الأباطرة ، أن فعلتهم هذا قريبة على أصالتهم الرومانية ؛ مثلاً تصور إبان القرن التاسع عشر ، المنادون بإحياء المنحى للقوطى فى العمارة ، أنهم بالتزامهم أسلوب لبناء القوطى ؛ قد غدوا قوطيين حقاً .

لكن مناط مشكلات حركات البعث والإحياء - وفقاً لطبيعة الأشياء - إلتفاء روح الأصالة منها :

فإنها تختلف عن النوع الأصيل إختلافاً بيناً ، مثلاً تختلف تماثيل الشمع التى يضمّتها متحف مدام تيسو Tussau عن الشخصيات التى تمر عبر الأبواب الدوّارة ليتطلعوا إليها .

وفى التحول التشريعى المسيحى الجديد ، تنجلى حبكة الرواية التشريعية فى بعث طيفيّ « موسى » و « يوستينيان » على التعاقب . ثم ظهرت الرواية - مرة أخرى - على مسرح الغرب ، وأدّى شارلمان فيها دور ليو ميروس :

« يميّز التشريع الكارولنجي . . إنبعث الوعي الاجتماعي الجديد للمسيحية الغربية : ولقد كان تشريع الممالك الغربية — قبل ذلك الحين — بمثابة ذيل « مسيحي » للشرائع البربرية القبلية القديمة . أما الآن ؛ فقد تم الانفصال لأول مرة عن الماضي . إذ سنت المسيحية قوانينها الخاصة التي استوعبت كافة ألوان النشاط الاجتماعي في الكنيسة والدولة ، وأرجعت الأمر كله إلى مقياس أوحده هو « الكيف »^(١) المسيحي . وهذا أمر لم توح به سابقة جرمانية أو رومانية »^(٢) .

بيد أن طيف التعاليم الموسوية قد وفد بقوة في أعقاب رسل المسيح والمبشرين بالإنجيل . حدث هذا في الغرب المسيحي ، مثلما حدث في الشرق الأرثوذكسي :

« لقد منح الأباطرة الكارولنجيون القانون إلى الشعب المسيحي بأسره بروح ملوك العهد القديم وقضائيه ، معلنين شريعة الرب إلى شعب الرب . وفي الرسالة التي وجهها كاثوف Cathauf إلى الإمبراطور شارل في بداية حكمه ، يتكلم الكاتب عن الملك كما لو كان نائب الله على الأرض . وينصح شارل باستخدام سفر شريعة الرب كدستور للحكم ، ووفقاً لشريعة التثنية (إصحاح ١٧ آيات ١٨ — ٢٠) التي توجه الملك إلى نسخ صورة من الشريعة من أسفار الكهنة ليحتفظ بها معه دائماً ، وليداوم الاطلاع عليها ، لعله يتعلم بذلك خشية الرب ويدفعه إلى المحافظة على سنته . وإلا فقد ارتفع الغرور بقلبه إلى موضع أعلى من أخوته ، فيتحوّل تارة إلى اليمين وتارة أخرى إلى اليسار »^(٣) .

(١) الكيف Ethos : في الأخلاق والآداب والاجتماع . . الخ . (المترجم)

(٢) صفحة ٩٠

Dawson, Christofrher : Religion and the Rise of Western Culture (London 1950, sheed & ward)

(٣) صفحات ٩٠ — ٩١ من المرجع السابق .

لكن بَعَثَ الشريعة الموسوية في الغرب المسيحي وفي الشرق الأرثوذكسى ، دأهمه على السواء بعث مدونة يوستينيان القانونية :

ففي غضون القرن الحادى عشر الميلادى ؛ كان لمدرسة التشريع الإمبراطورى التى أنشأتها الحكومة فى القسطنطينية عام ١٠٤٥ ميلادية ، نظير فى الغرب المسيحي بمدينة بولونا Bologna بإيطاليا ؛ حيث انبعثت تلقائياً جامعة تتمتع باستقلال ذاتى ، وخصّصت لدراسة مدونة يوستينيان . ورنما عن الفشل الذى مُنيت به فى الغرب المسيحي - آخر الأمر - عملية إعادة القانون الرومانى إلى الحياة ليقوم بمهمة دعم الإمبراطورية الرومانية التى ابتعثت إلى الوجود ؛ فلقد أمكنها أن تُنجز فى الغرب - بصورة فعّالة - غاية أخرى بديلة ، وهى إحياء نظام يونانى أقدم من القانون الرومانى ؛ ألا وهو الدولة الإقليمية المستقلة ذات السيادة . فكان أن كوّن رجال القانون المدنى المتخرجون من جامعة بولونا وأخواتها من الجامعات الأخرى ، عناصر الجهاز الإدارى ، لا فى « إمبراطورية رومانية مقدسة عقيمة » ؛ ولكن فى دول إقليمية غربية مستقلة ، ذات سيادة وسطوة . وكانت كفاية هؤلاء القانونيين فى الأعمال التى احترفوها ، عاملاً من عوامل الانتصار المتتابع لهذا النظام على جميع الأشكال البديلة للتنظيم السياسى ؛ تلك الأشكال التى لبثت كامنة فى التركيب الاجتماعى الأصيل فى الغرب المسيحي .

وبينما كان خريجو القانون بجامعة بولونا يزودون مدن إيطاليا الشمالية والوسطى بالإداريين الذين مكّنت كفايتهم الهيئات البلدية الشعبية من خلع سلطان أمراءهم الأساقفة وبدء عهد من الحكم الذاتى المدنى ؛ كان المشتغلون بالشرائع الدينية يستكملون مدرسة القانون المدنى فى بولونا ، بشقيقة لها لتدريس القانون الكنسى . وتم هذا عقب نشر مرسوم الموسوعة (أعوام ١١٤٠ - ١١٥٠ ميلادية) ؛ كما أن أساتذة القانون الكنسى قد ساهوا

كذلك في نمو الدولة الإقليمية العلمانية ؛ على الرغم من أنهم كانوا يهدفون
وجهة مغايرة ، وحقاً ؛ يُعتبر ما أنجزوه في هذا السبيل ، من مخبرات
التاريخ الكنسية ،

ولقد يقال إن البابوية قد استخدمت أسانذة القانون الكنسي أدوات
في حربها الكلامية ضد منافستها العلمانية : الإمبراطورية الرومانية المقدسة ،
لكن يناقض هذا القول - ويقدم صورة أخرى أكثر دقة - تقرير أن
أسانذة القانون الكنسي هم الذين استحوذوا على البابوية . فإن جميع البابوات
العظام من اسكندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١ ميلادية) - وهو الذي دافع
عن حتمي الكنيسة ضد فردريك بارباروسا - إلى إينوسنت الثالث
(١١٩٨ - ١٢١٦ ميلادية) - الذي قدم لعالمه نموذجاً مسبقاً لما يعنيه
الاستبداد البابوي في محيط السياسة - ثم إينوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤
ميلادية) - الذي جابه شيوع التبلد الذهني بعدم إكتراث بالقيم يتم
بالعناد ويتفق مع خُلُقُه الشخصي - وإلى بونيفاس الثامن (١٢٩٤ -
١٣٠٣ م) - الذي اصطدم اصطداماً مدمراً بالملكيات القوية كفرنسا
وإنجلترا ؛ إن جميع هؤلاء البابوات وغيرهم الأقل أهمية الذين تولوا خلال
الفترات الواقعة بين حكم أحدهم والآخر ؛ لم يكونوا من علماء اللاهوت
(أى طلبة الرب) لكن كانوا من القانونيين (طلبة القانون) .

فكان أن ترتبت على ذلك نتيجتان :

الأولى - سقوط الإمبراطورية ؛

الثانية - دمار البابوية .

ولم تفق البابوية بعد ذلك قط من النقد الأدبي والديني الذي أصابها
بسبب تزمها في اتباع حرفية القانون ، إلى أن مُدت بحياة جديدة بعد
- وليس قبل - كارثة الانشقاق البروتستانتي .

إن انهيار الإمبراطورية والبابوية - كليهما - قد مهد للطريق في الغرب أمام مواصلة الدول الإقليمية سيرها الحديث :

(٤) بعث المدارس الفلسفية

يعرض هذا المبحث حركتين من حركات البعث ، عاصرت إحداهما الأخرى - على وجه التقريب - وانبعثت في طرفين متقابلين من القارة الأوراسية^(١) ؛ وهما :

أولا - إحياء فلسفة العالم الصينى «كونفوشيوس» فى ذلك الفرع من حضارة جنوب شرق آسيا ، وهو مجتمع الشرق الأقصى .

ثانيا - إحياء فلسفة العالم اليونانى «أرسطو» فى الغرب المسيحى .

ولعل المثال الأول ، يستبعد من محيط المناقشة ؛ على أساس أن الفلسفة الكنفوشوسية لم تدرس بالفعل بموت المجتمع الذى أبرزها . ولكنها مرت بحقبة من السبات .

هذا إلى أن الشيء الذى لا يفتى ، يفقد قدرته على الظهور كـ « طيف » ، وإذا كان لا مناص من الإذعان لوجاهة هذا الاعتراض ؛ لكن لنفرض - جدلا - إمكان التغاضى عنه . فإن الإجراء الذى اتخذته الإمبراطورة تاى تسونج T'ai Tsung « من أمرة « تانج Tang » فى عام ٦٢٢ ميلادية بإعادة فرض نظام الاختبار - رسميا - فى مؤلفات كنفوشيوس الكلاسيكية كوسيلة لاختيار المرشحين للوظائف العامة فى الإمبراطورية ، إن هذا الإجراء يُمثل المظاهر الأساسية لحركة بعث . كما أنه يُبرز حقيقة مدارها أن أنصار هذا الإمبراطور وأتباع بوذا ، قد أضاعوا فرصة ممحلت لهم - خلال الفترة التى أعقبت عصر الاضطرابات - بالحلول محل أتباع كنفوشيوس . وذلك

(١) الأوراسية : الأوربية الآسيوية .

وقد انهارت مكانة الكنفوشوسيين بسبب إنهيار الدولة العالمية . إذ كانوا مرتبطين بها ومعبرين عنها .

وإن ما مُنيت به البوذية المهايانية من إخفاق سياسى ؛ يبين التوفيق الذى لازم الكنيسة المسيحية فحصلت بفضلها ثماره السيامية فى أوروبا الغربية . فهذا التباين ؛ يُبرز حقيقة مؤداها أن المهايانية — إن قورنت بالمسيحية — كانت ديانة قاصرة ، من الوجهة السياسية .

ولم تغد المهايانية من الرعاية التى أسبغها عليها الأمراء الإقليميون فى شمال الصين خلال فترة طويلة حافلة ، امتدت ثلاثة قرون تلت إنهيار إمبراطورية « تسن T'sin » المتحدة ؛ لم تغد بأكثر مما أفادته من الرعاية المتينة التى أضفاها عليها « كانيشكا Kanishka » إمبراطور كوشن فى عهد سابق . على أنه حالما تحوّل التلاقى — على أرض الشرق الأقصى — بين المهايانا والكنفوشوسية ؛ من المجال السياسى إلى المجال الروحى ، انعكست مصائر حربهما التى كادت تخلو من سفك الدماء . وينبئنا مصدر حديث صينى ثقة فى الموضوع ؛ بأن « أتباع الكنفوشوسية المحدثين يلتزمون حرفية مبادئ التاوية والبوذية الجوهريّة ، بأكثر مما يلتزمها التاويون والبوذيون أنفسهم » (١) .

فإن انتقلنا من إنبعث فلسفة كنفوشوس الصينية فى تاريخ الشرق الأقصى ، إلى إنبعث فلسفة أرسطو اليونانية فى تاريخ المسيحية الغربية ؛ اتخذت حبكة للرواية وجهة مختلفة . فبينما استسلمت الكنفوشوسية — وهى فى ثوبها الحديد — روحيا ، للمهايانية ؛ فرضت فلسفة أرسطو الجديدة نفسها على لاهوت الكنيسة المسيحية ، وهى التى اعتبرت أرسطو نفسه — من الناحية الرسمية — مجرد إنسان وثنى .

وهكذا واجه كل فريق - وهو يتربع على عرشه - خصما لم يكن ثمة ما يزيكه ، سوى مزاياه الكامنة فيه :

١ - ففي الشرق الأقصى ؛ خضعت فلسفة الخدمة العامة ، إلى دين أجنبي .

٢ - وفي أوروبا ؛ استسلمت عقيدة دينية ثابتة الأركان - وهى المسيحية - لروح فلسفة أجنبية عنها .

لقد أظهر « طييف » أرسطو في الغرب المسيحي ، نفس الطاقة الثقافية المذهلة التى أبرزتها المهايانا القائمة فى عالم الشرق الأقصى :

« إن أوروبا (الغربية) لم تستمد من (التقاليد الرومانية) أسلوب النقد وروح البحث المتطلع دائما ، وهما ما جعلتا الحضارة الغربية وريثة اليونانيين وخليفهم . إن المؤلف عادة هو تأريخ ظهور هذا العنصر الجديد بقيام حركة البعث (الإيطالية) وإحياء الدراسات اليونانية بالقرن الخامس عشر . بيد أن نقطة التحول الحقيقية يجب وضعها قبل ذلك بثلاثة قرون فى باريس على عهد آبلارد Abelard (الذى عاش بين سنتي ١٠٩٧-١١٤٢) وجون ساليسبرى John Salisbury (الذى عاش حوالى سنتي ١١١٥ - ١١٨٠) كان تعشق الجدل وروح النقاش الفلسفى قد بدأ بالفعل فى تطوير الجوانب الثقافية الذى كانت تعيش فيه المسيحية (الغربية) . فكان أن سيطر - منذ ذلك الوقت - أسلوب النقاش المنطقي على الدراسات العليا والبحث والمناظرات العامة . وهذا الأسلوب هو الذى حدد شكل فلسفة العصور الوسطى (الغربية) حتى عند كبار الفلاسفة الذين يمثلونها . ويقول روبرت السربونى (لاشئء يُعلم على وجه الدقة ، إذا لم تلكه ألسن المناظرة) : وإن النزوع إلى إخضاع كل موضوع إلى هذه العملية - يتساوى فى ذلك أكثرها وضوحا وأشدّها غموضا - لم يشجع فحسب على حضور البديهة وإحكام الفكر ، لكنه نعى - قبل كل

شيء - روح للنقد وللشك المتصل : وإليهما تدين الثقافة الغربية والعلم الحديث ، بالشيء الكثير (١) .

ولإذا كان طيئف أرسطو قد دمع الفكر الغربي وأبعاده بهذا الطابع القوي ، فإنه قد أثر كذلك في جوهره ، تأثيراً عابراً . وإذا كان التأثير هنا أقصر أمداً ، لكنه تغلغل مع ذلك في الأعماق بحيث تطلبت إزالة أثره في نهاية المطاف ، حملة من الكفاح العقلي ، طويلة وشاقة .

ففي الصورة الكلية الشاملة للكون (كما تراه أعين الناس في الغرب) ؛ نجد من فكر أرسطو ، أكثر مما نجده من عناصر المسيحية . إن سلطان أرسطو وخلفائه ، هو المسئول حتى عن مظاهر هذه التعاليم التي قد يبدو لنا أنها تحمل شيئاً من المذاق الديني . ومن قبيل المثال :

طبقات السموات ، الأجرام الدوارة ، قوى العقل التي تحرك الكواكب ، ترتيب العناصر وفقاً لنحدها ، وجهة النظر القائلة بتكوّن الأجرام السماوية من جوهر خامس لا يحوّل .

وفي الحق ؛ إن وسعنا القول بأن أرسطو - أكثر من بطليموس - هو الذي كان ينبغي أن يُخلع سلطانه خلال القرن السادس عشر ، وأن أرسطو كان العقبة الكأداء التي واجهتها نظرية كوبرنيقوس (٢) .

(١) صفحتا ٢٢٩ و ٣٠ Dawson , Christobher : Religion and Rise of Western Culture (London 1950, shed and ward)
Butterfield, H. : The Origins of modern Science, 1300, ٢٢ - ٢١ صفحتا)
London 1949, Bell

(٢) نيقولاي كوبرنيقوس : مؤسس علم الفلك الحديث (١٤٧٣ - ١٥٤٣) - ولد في ثورن ببروسيا الشرقية ، وكانت وقتذاك جزءاً من بولندا . ولقد أيدت نظرية الفلاسفة الفيثاغوريين (أتباع فيثاغورس) القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس . وتعتبر أبحاث كوبرنيقوس الأساس الذي بنى عليه جاليليو نظريته ثم نيوتن من بعده .
(المترجم)

وحين عادت عبقرية الغرب الأصيلة تؤكد وجودها خلال القرن السابع عشر المسيحي وترتاد مختلف جوانب الطبيعة - وفقا للمخطوط التي رسمها بيكون Bacon - كان لللاهوت الكنسي قد وقع في أحاييل آراء أرسطو ؛ إلى درجة أن جيوردانو برونو ^(١)Geordano Bruno قد أضاع حياته ، وأن جاليليو ^(٢)Galileo تعرض لرقابة الكنيسة بسبب ما نسب إليهما من اعتناق بدع علمية ؛ ولم تكن لها أية صلة على الإطلاق بالديانة المسيحية ، كما وردت في العهد الجديد .

وقبل أن يحل القرن السابع عشر الميلادي ، هاجم رجال العلم والفلاسفة الغربيون فيما وراء الألب ؛ هاجموا فلاسفة القرون الوسطى (المدرسين) الخسوعهم لأرسطو - طاغيتهم كما لقبه بيكون - في حين حمل « الإنسانون » الإيطاليون في القرن الخامس عشر على هؤلاء للفلاسفة ، لسوء تعبيرهم باللاتينية .

(١) جيوردانو برونو : فيلسوف إيطالي (١٥٤٨ - ١٦٠٠) كان في الأصل نيسا . لكنه اضطر إلى الفرار لما نسبت إليه الكنيسة من آراء تخالف للدين في فطرها . واستقر به المطاف محاضرا بجامعة تولوز بفرنسا ثم بجامعة باريس حيث لاق معارضة شديدة من أساتذتها نظرا لمهاجته آراء أرسطو . فكان أن غادر باريس إلى لندن ثم إلى أكسفورد ، ثم غادر إنجلترا إلى فرانكفورت بألمانيا . وعاد إلى إيطاليا عام ١٥٩٢ فجاهر بمعارضته لفلسفة أرسطو ، وقبض عليه وأرسل إلى روما حيث حكمت عليه المحكمة البابوية بالمرورق عن الدين . ولما رفض التخل عن آرائه أحرق .

ومدار فلسفته : تطابق الله والكون . ويتفرع من هذا فكرة أن الروح لا يمكن أن توجد إلا في مادة ، وأن الخليقة بأسرها حياة واحدة تتألف من أعضاء عديدة حية ، تعتبر وجودها الروحي والجنائي النهائي خالدة ، وأن الله هو الذي يثبت من نفسه نسمة الحياة في الجميع . وقد أثرت تعاليم برونو في الفلاسفة الذين تلووه وبخاصة ديكارت وسبينوزا ولبينيتز . وفي عام ١٨٨٩ أقيم له تمثال بمدينة روما في نفس الكلام الذي أحرق فيه . (المترجم)

(٢) جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) : فيلسوف وفلكي إيطالي تجريبي . ونظراً لمخالفة الكثير من نظرياته العلمية لما ورد في الإنجيل والتوراة ، فقد قبضت عليه للسلطات ورحلته إلى روما حيث أجبر على المجاهرة بفساد نظرياته بشأن دوران الأرض حول الشمس وثبات الشمس وتعاقب الليل والنهار . ووضعت الكنيسة تحت المراقبة بقية عمره . (المترجم)

لكن لاهوت أرسطو ، كان دليلا ضد الهازئين بأصحاب العلم على الأسلوب القديم . ومن الحق أن هؤلاء النقّاد اشتقوا من اسم العلامة الأرسطى الماجد « دونز سكوتس Dunsscotus » الكلمة النابية « مدّع dunce » . ولا تعنى الإنسان الجاهل ، بل تعنى الرجل المتعصب لنظام تعليمى عقيم . ولكن نهاية « الإنسانين » قد أزفت وقت كتابة هذه السطور . فى خلال القرن العشرين — حين ظهر أن العلم الطبيعى والتكنولوجيا يسوقان كل شيء أمامهما — يبدو أن من الضرورى البحث عن « المدّعين » فى نطاق البقية التى تتضاءل يوما بعد آخر من « أصحاب التراث القديم » الذى كان — وقتنا — فى أوج سلطانه .

(٥) بعث اللغات والمصنفات الأدبية

اللغة الحية — أساسا — هى أداة الحديث وهذا هو ما تظهره الحقيقة القائلة بأن « الكلمة » نفسها ، مشتقة عن لفظ لاتينى يعنى « لسان » : وما الثروة الأدبية إلا نتاج جانبي للكلمة .

ولكن عندما نبعث — من الموت — لغة وآداب من مدرسة ؛ فهنا تنعكس العلاقة بين الاثنين . ذلك لأن تحصيل اللغة ، يصبح مجرد أداة صعبة تستلزمها مطالعة المصنفات الأدبية . فإذا نتعلم باللاتينية « أيها المائدة » لانستحوز بهذا على ذخيرة لفظية جديدة نعبر بها عن إحساساتنا وقتما يصطدم إصبع قدمنا فى الظلام بقائمة المائدة . لكن تعلمنا هذه الجملة ؛ هو الخطوة الأولى وأقصرها ، صوب الخدف البعيد لقراءة أعمال فرجيل Virgil وهوراس Horace وبقية المصنفات الأدبية اللاتينية القديمة . وبالأحرى ؛ لا يقصد بتعلم اللغة اللاتينية ، التحدث بها . وعندما نحاول كتابتها ، فنحن لانفعل ذلك ، إلا لنزداد تقديرا لأعمال الجهابذة الأقدمين .

ولعل الخطوة الأولى لتملك ناصية أدب قديم دارس ؛ تتطلب العمل على تعبئة الموارد السياسية لإمبراطورية على قيد الحياة بالفعل .

والنموذج الرائع لحركة بعث أدبي في مرحلتها الأولى ، مائل في :

وضع مختارات شعرية ، أو مجموعة نصوص ، أو كتاب يضم عدة موضوعات ، أو موسوعة يُصنّفها فريق من الأساتذة تلبية لطلب أمير . والأمير الذى ينهض لرعاية هذه الأعمال التى تقتضى تعاوناً فى البحث ؛ غالباً ما يكون حاكماً للدولة عالمية فتية ، كانت - هى نفسها - نتاج حركة بعث ، على الصعيد السياسى . ومن بين الحكام الخمسة البارزين الممثلين لهذا النموذج :

آشور بانيبال Asshur Banipal قسطنطين بورفيروجنيثس Propyrog- nitus ، يونج لو Yung Lo ، كانج هسى Kang Hsi ، تشين لونج Chien Lung ؛ مجد الأربعة الآخرين ، من النوع الذى ذكرنا . فقد بزّ أباطرة الدولة العالمية الصينية التى بُعثت فى الشرق الأقصى ، منافسهم جميعاً ، فيما قاموا من جمع الأعمال الأدبية القديمة المتدرسة ، وتحقيقها والتعاقب عليها ونشرها .

حقاً ؛ خفيت على علماء الآثار المحدثين ، حقيقة إتساع مكتبتى آشور بانيبال (وكانت تتكون من الألواح الطينية وتضم الأعمال الأدبية السومرية والأكادية الكلاسيكية) . وإن علموا نبأ تجمع هاتين المجموعتين الأشورييتين الكبيرتين وتبدهما ، بفضل استخلاص طائفة من هذه الألواح أثناء أعمال التنقيب التى مارسوها فى موقع مدينة نينوى Nineveh . وسبب ذلك ؛ أنه فى خلال فترة - اعلها لاتزيد على ستة عشر عاماً - منذ وفاة هذا الملك العالم ؛ تفرقت بدداً محتويات هاتين المكتبتين على خرائب تلك المدينة البغيضة التى أُجْتِيبَتْ واستُبيحت عام ٦١٢ ق . م .

ولقد تكون مجموعة آشور بانينال أضخم حجما من مدونة كنفوشبوس ،
وهى عماد المصنفات الأدبية الكلاسيكية الصينية ودعامتها . ولم تُطبع أعمال
هذا الفيلسوف بسهولة على الطبع الرقيق ؛ بل حُفرت بجهد بالغ على الحجر
الصلد بمدينة سينجان Si Ngan للعاصمة الإمبراطورية لأسرة تانج Tang ،
بين عامي ٨٣٦ و ٨٤١ ميلادية . ثم طبعت بعد ذلك بمائة عام - مع التعليق -
في طبعة تقع في مائة وثلاثين مجلدا . ومع ذلك ، ففى وسعنا أن نحرز بشيء
من اليقين ، أن عدد الحروف فى مجموعة آشور بانينال ، كان يقل كثيرا
عن عدد الحروف الصينية التى تحتويها المجموعة التى جمعها - خلال أعوام
١٤٠٣ - ٧ ميلادية - يونج لو Yung Lo ، ثانى أباطرة أسرة مينج : فإن
هذه المجموعة ، لا تقل عن ٢٢٨٧٧ كتابا تقع فى ١١٠٩٥ مجلدا ، عدا
فهرس المحتويات . فإذا قورنت بها مجموعة الإمبراطور البيزنطى قسطنطين
بورفيروجينيتس (حكم ٩١٢ - ٥٩ ميلادية) لبدت المجموعة الأخيرة شيئا
تافها ، وإن أسرت ألباب الغربيين .

فإذا انتقلنا من هذه الجهود المبتدئة ، إلى خيلاء طالب العلم بقدرته على
إنتاج مصنفات يحاكى بها المصنفات الكلاسيكية التى كرس لدراستها جهوده ،
فأجدر بنا ترك الأمر إلى الإحصائيين ليقرروا ما إذا كان عدد المقالات التى
حررها بالأسلوب الصينى القديم ، المرشحون لامتحانات الحكومة الإمبراطورية
للصينية فى غضون ١٢٨٣ سنة ؛ تقع بين إعادة نظام الامتحان عام ٦٢٢ ميلادية
والغائه عام ١٩٠٥ ميلادية ، أكثر أو أقل من عدد تمارين النثر والشعر
اللاتينى واليونانى ، التى كتبها الباحثون وتلاميذ المدارس فى الغرب خلال
فترة تقع بين القرن الخامس عشر وتاريخ كتابة هذه السطور .

على أنه ليس فى وسع الغرب أو الشرق الأقصى ، أن يُقاس مجهودهما
فى استخدام اللغات القديمة التى بُعثت فى الأغراض الأدبية الجادة ، بالمجهود
الذى بذله المؤرخون البيزنطيون . ومنهم أساطين فى فنه مثل : ليو دياكونوس

Lao Diaconus مؤرخ القرن العاشر ، وأنا كومنيننا Anna Comnena مؤرخة القرن الثاني عشر ؛ اللذين جعلنا من لغة آتيكا اليونانية ، أداتهما في الإبداع الأدبي .

ولربما يقرّ في ذهن القارئ أن ملاحظتنا عن حركات بعث المصنفات الأدبية ، لا يتأتى تطبيقها على حالة البعث الأدبي البحث . وحركة البعث في هذا المقام ؛ هي التي تشغل مكان الصدارة في تفكيره . وبقينا ؛ كانت حركة البعث الإيطالية للآداب اليونانية خلال فترة العصور الوسطى — في جوهرها — حركة بعث تلقائية غير مُدبّرة . ولا تُنكر الرعاية التي أسبغها عليها كبار الساسة من أمثال لورنزودي مديشي ؛ وإن كان لا يمكن بنحس قيمة رعاية بابوات القرن الخامس عشر لها ، وبالأخص البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ — ٥٥ ميلادية) . ولقد استخدم هذا البابا مئات من الباحثين في الآداب القديمة ونسّاخ المخطوطات القديمة ، ومنح عشرة آلاف جولدن Gulden^(١) لترجمة أعمال هوميروس إلى الشعر اللاتيني ، كما جمع مكتبة ضمت تسعة آلاف مجلد .

ومع ذلك ؛ فلو تركنا لفكرنا العنان ليعود القهقري عبر التاريخ الغربي — خلال عدة قرون سابقة لعصر النهضة — فإننا لواجدون أمثلة تشابه كثيراً تلك التي ما برحنا ندرسها . سنجد شارلمان باعث الحياة لدولة عالمية متصية للحضارة بادت ؛ وهو يسعى لأن يقف جنباً إلى جنب مع : آشور بانيبال ، ويونج لو ، وقسطنطين بورفيروجينيتس .

ولقد كانت المحاولة العقيمة الأولى لبعث التراث الأدبي اليوناني في الغرب المسيحي ، معاصرة لميلاد الحضارة المسيحية الغربية . وتدين الكنيسة الإنجليزية بأسلوب تنظيمها في نهاية القرن السابع ، إلى لاجي يوناني من أرض مسيحية أرثوذكسية شرقية غزاها الأتراك العثمانيون . ذلك هو رئيس الأساقفة

(١) الجولدن : عملة ذهبية ، كانت تستخدم في ألمانيا وهولندا . (المترجم)

تيودور الطرسوسى : أما الداعية لبعث التراث اليونانى فى الغرب : فكان من نورثمبريا^(١) وهو الأب « بيد Bede » (٦٧٣ - ٧٣٥ ميلادية) . وتحمل نورثمبرى آخر : آلكوين من يورك Alcuin of york (٧٣٥ - ٨٠٤) البذرة إلى بلاط شارلمان : وقبلما تُسحق هذه البذرة قبل الأوان على يد المتبربرين الوافدين من اسكندناوه ، لم يكن غارسوها قد اقتصروا على بدء إحياء الأدبيات الهلينية فى ثوبها اللاتينى ؛ بل كانوا قد حازوا أيضاً قسطاً من اللغة اليونانية . إن آلكوين Alcuin كان من الجرأة ، بحيث راح يحلم بأن فى وسعه - معتمداً على رعاية شارلمان - أن يستحضر شبح أثينا على أرض الفرنجة ؛ وكانت تلك الفكرة ، رؤيا عابرة : وعندما أخذ الغرب المسيحى يخرج من غمار ما كان يُدعى بـ « ظلمة القرن التاسع » ، لم يكن الطيف المنشود ؛ طيف الأدبيات اليونانية الكلاسيكية ، ولكن كان طيف أرسطو وفلسفته . وحل عصر « المدرسين » وانتهى ، قبل أن تتحقق رؤيا آلكوين Alcuin :

فإذا وقفنا عند هذه النقطة لندرس الأسباب التى أخّرت تحقيق آمال « آلكوين » وأصدقائه عدة قرون ؛ تبين لنا اختلاف بين المتلاقين فى المكان - وهو ما كرّسنا له المبحث السابق من هذه الدراسة^(٢) - واختلاف آخر بين المتلاقين فى الزمن ؛ وهو موضع بحثنا الحاضر :

إن تلاقياً فى المكان ، هو تصادم فى المكان : والمصادمات هى - عادة - أحداث عارضة . إن البسالة العسكرية أو الخدق فى خوض المحيطات أو تجفيف السهوب ؛ قد تكون عوامل ثقافية غير مباشرة تؤدى

(١) نورثمبريا : مقاطعة كانت تقع فى إنجلترا شمال نهر Humber الذى يقع بدوره على الساحل الشرقى لانجلترا بين يوركشير شمال ولينكولنشاير جنوباً . (المترجم)

(٢) انظر صفحات ٢٦٥ - ٣٨ ؛ من الجزء الثالث من هذه الترجمة . (المترجم)

إلى اصطدام مجتمع بآخر . مع ما يترتب على ذلك من نتائج ثقافية ، سبق لنا وصفها^(١) .

ومن الناحية الأخرى ؛ فإن تلاقيا في الزمان (ومداره حركة بعث) ؛ نوع من « العرافة » يقوم على استحضار « طيف » : ولم ينجح العراف في استحضار الطيف حتى يحدق مهارات حرفته : وبكلمات أخرى ؛ ما كان في وسع الغرب المسيحي استقبال طَيْف (أو ضيف) يوناني ، إلا بعد أن يُعيد دأره لاستقبال الزائر . لقد كانت المكتبة اليونانية — من الناحية المادية — قائمة في جميع الأوقات ، لكن لم يكن في وسع الغرب الاستفادة منها بصورة فعّالة ؛ إلى أن أصبح كفؤاً للاطلاع على محتوياتها . ومن قبيل المثال : كان المجتمع المسيحي في الغرب — حتى في أحلك أيام العصور الوسطى — يملك فعلا أعمال فرجيل . وكان يحتفظ من اللاتينية بقدر يمكنه من تفسير عبارات الشاعر . لكن مضت ثمانية قرون — على الأقل — من السابع إلى نهاية القرن الرابع عشر ؛ كان شعر فرجيل خلالها فوق أفهام أعلى الدارسين المسيحيين في الغرب ، كعباً . وذلك إذا اتخذنا مقياساً للفهم ؛ القدرة على إدراك المعنى الذي قصد فرجيل تضمينه شعره ، والذي كان مفهوما لدى المعاصرين من لدائنه ولدى الأعقاب التالية ، حتى جيل القديس أوغسطين ، فحتى دانتي Dante — الذي لاح على روحه أول بصيص لحركة بعث إيطالية للثقافة اليونانية — وجد في فرجيل شخصية ، لا يعتبرها فرجيل الحقيقي تمتُّ إلى شخصه ، لكنها تمتُّ إلى شخصية أخرى أسطورية مُهيبة ، مثل شخصية أورفوس Orpheus .

وبالمثل ؛ أتى على المجتمع الغربي حين من الدهر جهل فيه أعمال

(١) انظر صفحات ٤٠٧ - ٤٥٥ من الجزء الأول من هذه الترجمة ، وصفحات ١ -

١٤٠ من الجزء الثاني منها .

أرسطو الفلسفية ، حتى ترجمها إلى اللاتينية - ترجمة مقتدرة - آخر علماء الأدبيات الهلينية « بويثيوس Boethius » (٤٨٠ - ٥٢٤ ميلادية) . ومع ذلك ؛ فقد أتى حين من الدهر بلغ ستة قرون - تبدأ من وفاة بويثيوس - أصبحت ترجماته فوق مستوى أفهام أعظم المفكرين المسيحيين الغربيين حذقاً . وعندما أصبح المسيحيون الغربيون - في النهاية - على استعداد لفهم أرسطو ، وصلوا إلى فلسفته عن طريق غير مباشر : عن طريق التراجم العربية . وكان « بويثيوس » عندما قدّم إلى الغرب المسيحي في القرن السادس ترجمة لاتينية لأعمال أرسطو ؛ كان بمثابة عمّ خير ، ولكنه لا يحسن تقدير الأمور . فكأنه يقدر أشعار ت . س . أليوت T.S. Eliot إلى ابن أخيه هدية في عيد ميلاده الثالث عشر ، فما كان من الصبي - بعد أن ألقى نظرة على الكتاب - إلا أن أودعه أظلم ركن في مكتبته الصغيرة ، ثم نسي تماماً كل شيء عنه . وبعد انقضاء ست سنوات - وهى فى حياة الصبي المراهق تعدل ستة قرون فى عمر الأمم - يعود الشاب (وقد تخرج من أكسفورد) إلى الإنصال بهذه الأشعار مرة أخرى ، فيقع أسير فتنها ، فيشتريها من السادة ب . ه . بلاكويل B.H Blackwell (١) . ثم تملكه الدهشة ، إذ يكتشف عند عودته لمنزله فى أجازته السنوية ، أن الكتاب ظل قائماً على رفوف مكتبته طوال هذا الوقت .

وكما كان الحال مع فرجيل وأرسطو ؛ كان كذلك بالنسبة لروائع الأدب اليونانى التى تكدست فى المكتبات البيزنطية ، ثم كانت الغذاء الأساسى لحركة البعث الإيطالية للثقافة الهلينية . فقد ظل الغرب المسيحي على اتصال وثيق بالعالم البيزنطى طوال فترة بدأت على الأقل من القرن الحادى عشر وما تلاه . وكان الغزاة الفرنجة فى النصف الأول من القرن

الثالث عشر ، يحتلون فعلا القسطنطينية واليونان . ولكن ذلك الاحتلال لم يتمخض عن مؤثرات ثقافية في ذلك الوقت . إذ كانت الأدبيات القديمة — إذ ذاك في عرف الغرب — ترفا ، غاية الترف . وقد يقال في تفسير هذه الظاهرة : أن اتصال الغرب بالإمبراطورية الشرقية — وقتذاك — كان اتصالا عداثيا ، لم يكن من شأنه أن يُغرى الغرب بالاهتمام بالمكتبة البيزنطية الخافلة بالأدبيات اليونانية . على أنه يرد على هذا الرأي بأن الاتصالات السياسية والكنسية ، لم تكن بأقل عداوة في القرن الخامس عشر ؛ أى حينما كانت « حركة النهضة » في أوج ازدهارها . والسبب واضح ؛ في تباين النتائج الثقافية . فإن بعث ثقافة بائدة ؛ لا يتم إلا عندما يترقى مجتمع — يمتد إلى مجتمع سابق بصلة النسب — إلى المستوى الثقافي الذي كان عليه سلفه ، حين حقق تلك الروائع التي أصبح بعثها من جديد ، موضع اهتمام .

فإذا ما تطلّعنا إلى الثقافات الدفينة التي بعثتها حركات النهضة الأدبية في الغرب المسيحي والصين ؛ وجدناها تتمتع بنفوذ عارم دون مقاومة ، جرّدها منه عنصر دخيل أجنبي أثبت تفوقه . وتمثل هذا الدخيل في هيئة حضارة غربية حديثة سيطرت على روح الغرب المسيحي خلال القرن السابع عشر الميلادي ، وعلى روح الصين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

وقد تُرك المجتمع الغربي يصارع وحده « طيف » الثقافة اليونانية الذي (استحضره) المتشبّث به ، دون تدخل من أحد . ولكن « حرب الدعاية » التي نُشبت في نهاية القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر ، أظهرت الطريق الذي تهب منه الريح . وهي حرب أطلق عليها « سوفييت

Swift^(١) « حرب الكتب . وكان المتنازعون خلالها يتجادلون حول فضائل «القدماء» وفضائل «المحدثين» . ويبدو أن القضية موضع الجدل ، تهور حول ما إذا كان قد قُدِّرَ للثقافة الغربية أن تظل في موضعها ثابتة لا تريم ، يشلّ تطورها إعجاب بالماضى ونزعة إلى محاكاة القدامى ؛ أو قدّر لها أن تمضى قدماً نحو المجهول ، مخلّقة وراءها آراء الأقدمين .

هذا السؤال بهذه الصيغة ، لا يحتمل إلا رداً واحداً معقولاً : لكن السؤال نفسه قد ادّعى صحة أمر سابق ، بغير إقامة البرهان على صحته : ومداره ما إذا كان الإعجاب بالماضى ومحاكاة القدامى (وهو ما يمكن تسميته بالتعليم التقليدى الغربى الحديث فى أوسع معانيه) قد عوّق بالفعل حركة التطور الحديث .

وضح أن الإجابة عن هذا السؤال ، فى مصلحة القدامى . وبما له دلالة ؛ أن بعضاً من رواد الدراسات الهلينية — كبرارك Petrarch وبوكاشيو Boccaccio — كانوا طلائع فى الآداب الإيطالية الدارجة . وبدلاً من أن يعوّق بعث الدراسات اليونانية نمو هذه الآداب الإيطالية الدارجة . أمدتها بقوة دافعة جديدة . ومصدقا لهذا الرأى ؛ إن تملك إرازمس Erasmus للاتينية على أسلوب شيشرون ، لم يفتن رفاقه فى الغرب عن العناية بلغاتهم الوطنية . ويستحيل — إطلاقاً — تقويم الرباط الثقافى — مثلاً — للعلّة والمعلول بين الدراسات الإنجليزية للأدبيات الهلينية خلال القرن السادس عشر ، وتفجّر شعر إنجليزى لا مثيل له فى تألقه ؛ فى نهاية القرن نفسه . فهل عاونت شكسبير على تأليف مسرحياته ، حصيلة الضئيلة من اللاتينية وبضاعته الأضال منها من اليونانية ؟

(١) جونانان سويفت (١٦٦٧ - ١٧٤٥) : كاتب إنجليزى ساخر . وفى طلبعة مؤلفاته « حرب للكتب » وألفه عام ١٦٩٨ . وفى عام ١٧٠٥ نشر كتابه « قصة البرميل » . وأشهر ما كتبه « رحلات جوليفر » التى نشرها عام ١٧٢٦ . (المترجم)

من سيقول بهذا ؟

لعله يُظن أن ميلتون قد استحوذ على قدر أعظم من اللاتينية واليونانية ؛ ولكن ؛ لولم يُقيِّض له قسط من اللغتين ، ما قُدِّر أن يكون عندنا « الفردوس المفقود ولا « آلام شمشون » .

٦ - بعث الفنون المراثية

من الظواهر المألوفة ، حركة بعث نوع أو آخر من الفنون المراثية المنتمية لحضارة بائدة ، في تاريخ الحضارة التي تخلفها . وفي وسعنا أن نسرد كأمثلة :
١ - بعث أسلوب « الدولة القديمة » في النحت والتصوير ، بعد انقضاء ألفي سنة ؛ وذلك خلال العصر الصاوي في أواخر أيام التاريخ المصري ، إبان القرنين السادس والسابع قبل الميلاد .

٢ - بعث الأسلوب السومري في الحفر خلال القرون : التاسع والثامن والسابع قبل الميلاد ، في العالم البابلي .

٣ - بعث الأسلوب الهليني للرسوم المحفورة - على صورة مصغرة - خلال القرون : العاشر والحادي عشر والثاني عشر الميلادية . وكانت أدق أمثلتها ، الطرائف التي صنعت في آتيكا خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . وكان أن استخدم هذا الأسلوب في الحفر على العاج البيزنطي ذي الطبقتين .

على أن هذه الحركات الثلاث ؛ لا يمكن مقارنتها - سواء في مدى إتساعها أو في قوة تجردها - من تأثير العناصر السابقة - ببعث الفنون المراثية اليونانية في الغرب المسيحي . وقد ظهرت للمرة الأولى في إيطاليا في أواخر العصور الوسطى ، ومنها انتشرت إلى سائر أنحاء العالم الغربي .

وتجلى هذا الاستدعاء لطيف الفنون المراثية اليونانية في مجالات ثلاثة :

العمارة ، النحت والرسم . وبلغ من قوة اكتساحها في كل مجال ، أنه - حتى عندما استنفدت طاقته - تلا ذلك نوع من الفراغ الجمالى^(١) . فوقع الفنانون الغربيون في حيرة في كيفية التعبير عن عبقريتهم الوطنية التي ظلت مغمورة أمداً طويلاً .

ونفس القصة العجيبة لدار نظمها وزخرفتها الأيدي القوية لأطيان زائرة ، يجب ذكرها عند ورود سيرة هذه المجالات الثلاثة للفنون المرئية الغربية . لكن أعظم قصة خارقة للعادة من تلك القصص الثلاث ؛ تتمثل في انتصار التأثير اليوناني على عبقرية الغرب الوطنية في مجال النحت (من كل الجوانب) . ففي هذا المجال ؛ أنتج الفنانون الفرنسيون الشماليون من القرن الثالث عشر - الذين كانوا يعبرون عن الأسلوب الغربي الأصيل - روائع تقف ندأ لخبر ما أنتجته مدارس النحت اليوناني والمصري والمهاياني البوذي ، ولكن لم يقيّض للفنانين الغربيين في مجال الرسم ، أن يتخلصوا من القوامة التي فرضها عليهم فن الرسم الأسبق الذي اعتنقه المجتمع المسيحي الأرثوذكسي ؛ شقيق المجتمع المسيحي الغربي . أما في ميدان العارة ؛ فإن الطراز الروماني ، لم يكن - كما تدل عليه علامته المميزة في أنحرابات أيامه - إلا إنحرافاً عن منهج موروث عن العصر الأخير لحضارة هيلينية سابقة . وقد تغلب عليه طراز قوطى دخیل ، نشأ - كما قررنا من قبل - في العالم السورى : عالم الخلافتين العباسية والأندلسية .

وما يزال ساكن لندن من المستنيرين في القرن العشرين ؛ يؤمن في قرارة نفسه بأن الصراع الدرامى - في ميدان الفن - بين الفن المراثى الغربى الوطنى الذى مئى بالهزيمة مرتين ، وبين الفن المراثى السورى والهلبنى ؛ هذا الصراع لا يزال قائماً ماثلاً - وإن تحوّل إلى الحجر - في عمارة الكنيسة

(١) الجمالى : ذو العلاقة بجم الجمال . (المترجم)

التي أضيفت إلى كاتدرائية وستمنستر برعاية الملك هنري السابع ، وما تحويه تلك الكنيسة من تماثيل :

- ١ - يدل السقف المقبب على انتصار أخير لطراز قوطي مختصر .
 - ٢ - في الكنيسة حشد من الوجوه الحجرية تنتصب في أعلى مكان بها ، وتحقق تجاه شعار يصطبغ بالصبغة الإيطالية ، ويمثل الثالوث الأقدس .
 - ٣ - أُقيمت بأسفل الشعار ، تماثيل مستقلة على قبور تحمل طابعا فنياً يونانياً .
 - ٤ - نجد تماثيل بجعة تشدو بأغنية صامتة تصدر عن شفيتين جامدتين ، وهذه تمثل - بدورها - مدرسة فنية تنتسب إلى العمارة الوطنية في الغرب المسيحي ؛ وهي مدرسة وفدت من بلاد ما وراء الألب .
 - ٥ - تستأثر روائع « توريجياني Torrigiani » (١٤٧٢ - ١٥٢٢ ميلادية) ذات الصبغة الهلينية ، بوسط المسرح الفني :
- وكان هذا الفنان المهاجر من فلورنسا ، قد تطلع في همة وثقة ، إلى تنفيذ عمله الكفء المهذب - متجاهلاً في إزدراء الوسط الفظ الذي تواضع بالعمل فيه - راجياً أن تغدو أعماله من بعده ، مطمح جميع أنظار الناس فيما وراء الألب . ذلك لأننا نعلم من السيرة التي وضعها بنيفينتو سيلليني Benevento Cellini لنفسه ، أن توريجياني هذا كان « شخصاً متعجرفاً حريصاً على التباهي بين أولئك الإنجليز الوحوش^(١) .

وصفوة القول ؛ استمرت العمارة القوطية محتفظة في لندن بمركزها المرموق حتى الربع الأول من القرن السادس عشر ، وفي أكسفورد حتى النصف الأول من القرن السابع عشر . وكانت قد أقصيت عن الميدان

(١) صفحة ١٨ من الفصل السابع من الكتاب الأول Benevenuto Cellini : Auto-biography - English Translation by J . A. Symonds .

قبل ذلك بوقت طويل في شمال إيطاليا وومطها ، حيث لم تنجح قط نجاحها
حاصلاً ؛ كما نجحت في أوروبا فيما وراء الألب ، في إزاحة طراز البناء
الروماني عن مكانته .

وإن الإجداد الذي أصاب العبقرية الغربية بتأثير بعث الطراز اليوناني
في ميدان العمارة ؛ ظهر في فشل هذه العبقرية في الاستفادة من نتائج الثورة
الصناعية ؛ على أن التغيير المفاجئ في الأسلوب الفني الذي اقترن بالثورة
الصناعية ، قد استولد الرافدة الحديدية : فكان أن وقعت في يدي مهندس
البناء الغربي ، مادة بناء تتعدد أوجه استعمالها ، تعدداً لا يقاس إليه شيء
آخر . وتمّ هذا وقتما استنفد أسلوب البناء الهليني التقليدي بشكل واضح .
ومع ذلك ؛ فإن المهندسين المعماريين الذين مثّلهم الحداد مع عارضة
حديدية ، لم يفكروا في وسيلة لملء الفراغ في الوقت المناسب ، أفضل
من تزويج حركة بعث هليني بـ « حركة إحياء فنية قوطية » .

وكان أول من فكّر من الغرب - صراحة - في الاستفادة من العارضة
الحديدية - دون أن يضيف عليها شكلاً قوطياً يخفي غلاظتها - هاويّاً رُزق
سعة الخيال ؛ ولم يكن مهندساً محترفاً . ورغمّا عن كونه مواطناً أمريكياً ،
وكان البوسفور - لا ضفاف الهندسون - هو الموقع الذي شاد عليه بنيته
التاريخية : تلك هي « قائمة هاملين » التي كانت النواة التي قامت حولها
كلية روبرت التي تُشرف على قلعة محمد الفاتح على الجانب الأوربي ؛
وقد شيدها سيروس هاملين Cyrus Hamlin خلال أعوام ١٨٦٩ - ٧١ .
على أن هذه البنية التي وضعها « هاملين » لم تبدأ تؤتي ثمرتها في أمريكا
الشمالية وأوروبا الغربية ، إلا في غضون القرن التالي .

ولم يكن إحمال العبقرية الفنية الغربية بأقل وضوحاً في ناحيتي الرسم
والنحت :

ففي خلال فترة تزويد على الجسمانية عام - تبدأ من جيل جيوتو

Giotto (توفي عام ١٣٣٧ م) معاصر دانتي Dante — استخدمت مدرسة حديثة للرسم في الغرب ، المرة بعد الأخرى ؛ أساليب متعددة لنقل الانطباعات البصرية التي يُحدثها الظل والضوء . ولا شبهة في أن هذه المدرسة تقبلت الفن الهليني في مرحلة تطوره الأولى ، أي وقما استوحى من الطبيعة مُثله العليا . ولما تيسر اختراع الفوتوغرافيا ، تزعزعت قيم الجهود المضنية التي بذلها رسامو النهضة لإبراز التأثيرات الفوتوغرافية عن طريق استعانتهم بأساليب الرسم الفنية .

وهكذا ؛ بعد أن مادت الأرض تحت أقدام الرسامين الينويين بسبب مستحدثات العلم الغربي ؛ لجأوا إلى إحياء أسلوب فني ، كان قائماً قبل عصر رافاييل . وكان هذا الأسلوب شائعاً إبان العصر البيزنطي ، وتبرأ منه فنانونه منذ وقت طويل . وتلك مرحلة فنية طرقتها الرسامون المحدثون قبل تفكيرهم في ارتياد عالم النفس الجديد . وقد هيا لهم علم النفس مرحلة فنية اقتحموها فعوضتهم عن عالمهم القديم : عالم الهيئة الطبيعية ، الذي اختلسه منهم المصور الفوتوغرافي ؛ وقدمه للناس .

وهذا برزت إلى الوجود مدرسة ملهمة تضم بين طياتها المصورين الذين ابتكروا فناً أصيلاً ؛ قوامه استخدام الرسم — بلا موازية — للتعبير عن التجارب الروحية — وهم في نطاق الحدود التي تجعلهم وسطاً بين تطور العمارة والرسم — فقد بدأوا يرتادون تلك التجربة المثيرة نفسها .

٧٦ — بحث النظم والمثل العليا الدينية

يقدر ما كانت العلاقة بين المسيحية واليهودية واضحة لليهود وضوحاً بلغونوه ؛ كانت غامضة للضائر المسيحية غموضاً مربكاً .

وبعبارة أوضح ؛ كانت العقيدة المسيحية في أعين اليهود ، نحلة يهودية مارقة . ويقررون أنها — بشهادة الإضافة التي أقحمت على

التوراة^(١) ؛ قد ارتكبت إثماً ضد تعاليم الفريسي الجليل الضال السيئ الطالع ، الذى اتخذ الخونة للفريسية^(٢) اسمه باطلا . وينظر اليهود إلى بلحاج المسيحية فى السيطرة على المجتمع الهليني - بما يشبه المعجزة - على أنه ليس بأى حال من الأحوال ، من فعل الرب . وإن الانتصار الذى حازه حاخام يهودى بعد وفاته - على قول اليهود - وكرمه أتباعه بأسلوب الاممين^(٣) كإبن الله من أم بشرية ؛ كان هذا الانتصار فكرة وثنية من نوع الانتصارات الأولى لأنصاف الآلهة الأسطوريين المتشابهين من أمثال ديونيسوس^(٤) وهرقل^(٥) .

(١) الإضافة من الإنجيل الذى لا يعترف اليهود به إطلاقاً . (المترجم)

(٢) الفريسي الجليل : من طائفة الفريسيين من مقاطعة الجليل بفلسطين . ويعنى اليهود به السيد المسيح . والخونة هو الاسم الذى يخلعه اليهود على المسيحيين باعتبارهم خانوا الرسالة اليهودية . (المترجم)

(٣) أسلوب الاممين : أى أسلوب غير اليهود . والحاخام اليهودى فى هذه الفقرة هو السيد المسيح . إذ يؤمن اليهود بأن عيسى عليه السلام لم يكن سوى رجل دين يهودى « حاخام » كرمه أتباعه (من غير اليهود) بتأليههم إياه وجعله ابن الله . فأنصقوا به الأساطير التى كانت شائعة عن البشر المؤلهين أو الآلهة ذوى الصفات البشرية أمثال أوزيريس فى الأساطير المصرية القديمة وديونيسوس فى الأساطير اليونانية . (المترجم)

(٤) ديونيسوس : هو باخوس Bacchus فى الأساطير الرومانية ، اعتبر فى العصور المتأخرة رب الخمر ، لكنه فى الأصل : الروح التى تنحكم فى مصائر الإنبات وتسيطر على الزراعة . (المترجم)

(٥) هرقل : أشهر أبطال الأساطير اليونانية القديمة . وتقرر أنه ابن زيوس . كبير أرباب الأوثان من أم بشرية تدعى آيمين Alemene من مدينة طيبة . وتخلع عليه الأساطير صفة القوة الخارقة منذ ولادته . وكان والده زيوس يحبه باستمرار من المخاطر التى كانت تدبرها له زوجة أبيه هيرا Hera . وتنتهى أسطورته بالقول إنه بعد أن أوشك أن يحرق مرت سحابة أمطرت فأطفأت النيران ، ثم حملته السحابة إلى السماء فأصبح إلهاً كاملاً . (المترجم)

وتخادع اليهودية نفسها بأنه كان في وسعها أن تحرز انتصارات المسيحية في استهواء العالم الهلننى ؛ لو أنها أحنت رأسها لفكرة التوسع ، فنزلت إلى مستوى المسيحية .

أما المسيحية ؛ فإنها لم تُنكر إطلاقاً شرعية كتاب اليهود المقدس ؛ بل إنها قد أدمجته في كتابها المقدس ذاته . واستطاعت المسيحية - وفقاً للوجهة النظر اليهودية - إنجاز فتوحاتها في يسر وسهولة ، بفضل إعراضها عن مبدئين أساسيين تضمنتهما الوصيتان الأولى والثانية من الوصايا العشر : «الوحدانية ، ونبذ عبادة الصور والتماثيل .

وتستطرد اليهودية قائلة بأن عقيدتها إذ تواجه وثنية عاتية ظاهرة بوضوح تحت قشرة المسيحية ، غداً واجباً عليها أن تظل صامدة متمسكة بأداء رسالتها في حمل كلمة الرب السرمدية .

وهذا الترفع العميق الثابت الذى ما فتئت اليهودية تنظر به إلى النجاح المثير الذى حققته المسيحية ؛ كان يتيسر أن يصبح أقل حداثة ، لو لم تكن المسيحية نفسها قد مزجت بين ولائها الصادق - من الناحية النظرية - لتراث اليهودية بالنسبة للوحدانية ومناهضة تقديس الصور والتماثيل ، وبين المظاهر العملية المقتبسة من شرك الهيلنيين المهتمدين للمسيحية وعبادتهم الأوثان ؛ وهو ما يتهمها به نقادها اليهود^(١) . ولا شك أن إعادة الكنيسة

(١) إن الإخلاص التام للوحدانية وتحريم تقديس الصور والتماثيل تحريماً لا هوادة فيه ؛ لم يعمل بين اليهود وكرهاية الإسلام كراهة عياء والكيد للمسلمين منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى الآن . وفي هذا يقول الله تعالى في محكم آياته « لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » .

وفي اعتقادي أن عداة اليهود للمسيحية له عاملان أساسيان :

الأول - روحانية المسيحية . فإنها تنادى بأن ملكة الرب تقع في الآخرة وليست في الدنيا . وهذا هو عكس ما تنادى به اليهودية من أن ملكة الرب في الدنيا وأنه تعالى =

المسيحية تشييد كتاب اليهود المقدس في شكل « العهد القديم » للعقيدة المسيحية ؛ لمو نقطة ضعف في دفاع المسيحية نفذت منه سهام النقد اليهودي إلى الضمير المسيحي . إن العهد القديم كان أحد الدعائم التي استقر عليها صرح المسيحية .

لكن هناك كذلك مذهب التثليث^(١) وعبادة القديسين ؛ ورسم القديسين — بل والأقانيم الربانية الثلاثة في أعمال فنية مرئية ذات أبعاد ثلاثة أو بعدين اثنين .

= قد استلنى اليهود دون بقية البشر فوعدهم بإقامة دولة عاصمتها أورشليم تتحكم في أنحاء العالم بأسره ويكون فيها اليهود السادة والأيمنون (أى غير اليهود) العبيد .
الثاني — اعتقاد اليهود بأن الخلاص (أو النفران) يمنحه الرب لليهود وحدهم .
وهذا الخلاص — كما سلف القول — له صورة دنيوية تعنى تملك اليهود رقاب البشر ، وأخرى أخروية تعنى استئثار اليهود بجنة الله وحدهم . في حين أن الخلاص عند المسيحية للبشر جميعاً ، وصورته روحية .

ويكره اليهود الإسلام لأنه سلهم إحتكار مبدأ الوحدانية ، ولأن الإسلام يتسامى في مبادئه على اليهودية بما لا يقاوس . بالإضافة إلى عالمية الدين الإسلامى . فالإيمان بالله الواحد الأحمد الفرد الصمد ليست نعمة اختص الله بها اليهود وحدهم أر أى جنس آخر ، بل هى متاحة للبشر جميعاً لا فرق بين عنصر وآخر . (المترجم)

(١) مدار مذهب التثليث أن الله فى الطبيعة واحد ، لكنه ثلاثة أقانيم مميزة هى :
الأب ، الإبن ، الروح القدس . وتقرر دائرة المعارف البريطانية (جزء ٢٢ صفحة ٤٧٩ — طبعة ١٩٦٤) بأنه يتيسر التعبير عن المذهب المسيحى بشأن التثليث بالكلمات التالية :

« الأب إله والإبن إله والروح القدس إله . لكن لا يجوز القول بوجود ثلاثة آلهة ولكن بوجود إله واحد . . . وإذا كان كمال الطبيعة واحداً فى الأب والإبن ، والجوهر والاعتبار واحد فى الحالين ، إلا أن العلاقة بين الأب والإبن هى كالعلاقة بين المصحف ومثلّى العطية . وقد قارن كتاب المسيحية خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، العلاقة بين الأب والإبن بالعلاقة بين الذهب والفضياء وبين نبع الماء وتياره . . (المترجم)

فكيف تسنى للمنافحين عن المسيحية الردّ على دعوى اليهود بأن ما تمارسه الكنيسة من التراث الهليني ، يتفق ونظريتها المستمدة من اليهودية ؟

تطلب الأمر شيئاً من الإجابة يُقنع عقول المسيحيين بأن هذه الحجج اليهودية لا تقوم على أساس ؛ ذلك لأن فحوى هذه الحجج يكمن في الاقتناع - عن استجابة - بالخطيئة ؛ ذلك الاقتناع الذى أثارته تلك الحجج في نفوس المسيحيين .

وبعد تحوّل جماهير العالم الهليني حملة - واسمياً - إلى المسيحية في غضون القرن الرابع الميلادى ؛ جنح الجدال المحلى في قلب الكنيسة ، إلى حجب الجدالات التى كانت قائمة بين المسيحيين واليهود . لكن يبدو أن الحرب اللاهوتية ، على هذه الجبهة القديمة ، قد أثارت حياً مرة أخرى في غضون القرنين السادس والسابع ، نتيجة لحملة تطهيرية في العالم اليهودى تهدف إلى تنقية كيان المجتمع اليهودى في فلسطين ؛ وقد بدأت في أواخر القرن الخامس . وكان لهذه الحملة الداخلية في داخل نطاق العالم اليهودى ضد ما ظنه اليهود تراخياً - شبيهاً بالتراخى المسيحى - في موضوع تزيين جدران المعابد اليهودية ؛ كان لهذه الحملة آثارها على الجدال الدائر بين اليهودية والمسيحية .

ولكن إذا ما تحوّلنا إلى النزاع الآخر المشابه داخل الكنيسة نفسها ، بين المؤيدين لتقديس الأيقونات^(١) والمناهضين لها ؛ هالنا ما اتسم به من عناد وشمول . ووجدنا هذا « النزاع الذى لا يهدأ » يتفجّر في كل صقع من أصقاع العالم المسيحى ، ويكاد يتصل في جميع أجيال التاريخ المسيحى المتعاقبة . ولا يقتضى الأمر هنا أن نورد أمثلة في قائمة طويلة تبدأ من

(١) الأيقونات : يُقصد بها هنا الصور ذات القداسة الخاصة . مثل الصور التى تُنسب إلى السيد المسيح أو السيدة المذراء أو القديسين . . . الخ (المترجم)

القاعدة السادسة والثلاثين لمجمع « ألف Elvira ١ » (حوالى عام ٣٠٠ م - ١١) التى نخرم عرض الصور فى الكنائس .

وفى غضون القرن السابع الميلادى ، جدّ فى النقاش عامل جديد ، كأنه ممثل جديد ظهر على مسرح الأحداث التاريخية على نحو رائع ومؤثر . فقد نشأ حينئذ دين جديد مكتمل النمو : كان الإسلام يتعصّب للتوحيد ويناهض التصوير مثلاً يبتغى أى يهودى . وبفضل ما حققه أنصاره فى الميدان الحربى من نجاح متوال - وبعد ذلك بقليل فى المجال التبشيرى كذلك - واجه المسيحيون أمراً خطيراً جديداً يشغل تفكيرهم .

وشبهه بهذا ما أثارته الانتصارات الحربية والتبشيرية التى حققها أتباع الشيعية فى نفوس أهل الغرب الحديث ، من إعادة البحث الجدوى فى تقييم النظم الاجتماعية والاقتصادية التقليدية فى الغرب .

كذلك فإن انتصارات العرب المسلمين الأولين قد ألقت وقوداً جديداً على المجادلات التى ظلت تدور أمدأ طويلاً حول « وثنية » المسيحية :

فى عام ٧٢٦ ميلادية ؛ هبط على مسرح الأحداث ، ذلك الطيّف « اليهودى » الممثل لتحريم تقديس الأيقونات ، بعد أن ظل يحوم زمناً طويلاً . ذلك حين أصدر ليو سيروس الإمبراطور الرومانى الشرقى قانوناً تحريم الأيقونات . لكن ثبت فشل استخدام السلطان السياسى فى محاولة فرض حركة ترقى إلى حركة بعث فى المجال الدينى . فإن البابوية قد تحمست فى تأييد المعارضة الشعبية لتحريم الأيقونات . وبذلك اتخذت البابوية خطوة طويلة المدى للتحرر من سيطرة « بيزنطة » . أما الحركة التالية التى قام بها فى الغرب « شارلمان » فى غير حماسة كبيرة لاقتناء سياسة الإمبراطور ليو سيروس ؛ فقد لقيت من البابا « هادريان الأول » توبيخاً حاسماً : فكان على الغرب أن ينتظر ثمانية قرون أخرى ليشهد حركة بعث مستمدة من اليهودية . وعندما وفدت هذه الحركة ؛ سرت فى

المجتمع من أدنى إلى أعلى ، وقام فيها مارتين لوتر بدور الإمبراطور ليوسروس .

ولم تكن مناهضة الصور والتماثيل في الإصلاح البروتستانتي للكنيسة الغربية ، هي « الطيِّف اليهودي » الوحيد الذي وُفِّق إلى إعادة توكيد وجوده . فإن التشدد في المحافظة على الأحكام المتصلة بيوم السبت ^(١) ؛ قد استهوى نفس الوقت ، المنشقين عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . وليس من السهل تفسير إحياء هذا العنصر الآخر من التعاليم اليهودية . فإن الإفراط في التزمّت الذي دفع اليهودية - يهودية ما بعد المنفى - إلى التشبُّث بمراعاة أحكام السبت ؛ كانت استجابة معينة من جانب الشعب ، لتحذّر معين . إذ كان هذا التشبُّث جزءاً من أسلوب « التشتت » الذي اعتنقه اليهود للمحافظة على وجودهم المشترك .

أما البروتستانتية ؛ فكانت تهدف قصداً إلى العودة إلى الممارسة الفطرية لأحكام الكنيسة ، في أيامها الأولى . على أن البروتستانت يتجاهلون هنا تماماً ، فارقاً بين المسيحية الأولى واليهودية ؛ وهو فارق كانت تُصرّ عليه الكنيسة في بداية عهدها .

فهل يُعقل أن يكون هؤلاء المسيحيون المتمسكون بحرفية الإنجيل ، غافلين عن الفقرات العديدة الواردة في الأناجيل التي ذكرت أن « يسوع » قد تحدّى الخطر الذي فرضته عقيدة السبت ؟

هل يُعقل أن يكون قد فاتهم أن بولص - الذي يمجّدونه مغتبطين - قد جالب على نفسه سخط اليهود بسبب إنكاره الشريعة الموسوية ؟

(١) لا يعني هذا أن المسيحيين البروتستانت قد جعلوا من يوم السبت سابع أيام أسبوعهم . بل ظل الأحد هو اليوم السابع لكنهم احتفظوا بجوهر الأحكام التي أضافها اليهود على يوم السبت . والكلمة العبرية هي « شبت » وتعني الراحة . وقد ورد في التوراة أن الرب قد عقد مع اليهود ميثاقاً بمقتضاه يستريحون آخر الأسبوع تشبهاً به عندما خلق الدنيا في ستة أيام ثم استراح في السابع . ويذكر كثير من الدلائل أن أسطورة السبت بألمية الأصل كغيرها من الأساطير الواردة في التوراة . (المترجم)

مناطق التفسير : أن هؤلاء المتحمسين الدينيين في ألمانيا وإنجلترا واسكتلندا ونيو إنجلاند وفي غيرها . . . كانوا مأخوذين بسحر حركة من أقوى حركات البعث ، وكانوا يميلون إلى الاستحالة إلى « يهود مقلدين » مثلما مال الفنانون والباحثون الإيطاليون إلى الاستحالة إلى أثينيين مقلدين . وإن لجوعهم إلى تسمية أطفالهم وقت العهد ببعض ما يوجد في العهد القديم من أسماء تصكّ آذان التوتون صكاً شديداً ؛ لظاهرة صارخة لهذا الهوس لبعث عالم مندرس ، إلى الحياة من جديد .

لقد سبق لنا - ضمناً - أن قدّمنا عاملاً ثالثاً في حركة البعث للتعالم اليهودية التي قامت بها البروتستانتية في الغرب ؛ أعنى الإغراق في تبجيل الكتاب المقدس ، أي عبادة نص مقدس كبديل لعبادة صور مقدسة . وما من شك في أن أتقياء البروتستانت أو البيوريتان - بل أهل الغرب بوجه عام - قد أفادوا كسباً ثقافياً من ترجمة الإنجيل إلى اللغات الدارجة ، ومن إنكباب أجيال من الناس البسطاء على قراءته ؛ وهم لا يكادون يقرأون غيره . وهذا بدوره ؛ قد أخصب الآداب الوطنية بما لا يقاس ، واستثار الرغبة في التعلم عند سواد الناس . وغدت قصص الإنجيل - بصرف النظر عن قيمتها الدينية - أفاصيص شعبية ؛ فاقت في أهميتها الإنسانية ، كل شيء آخر أُنِج لأهل الغرب من أي مصدر قومي . أما بالنسبة للأقلية من المتحذلقين ؛ فإن الدراسة النقدية للنص المقدس ، كانت بمثابة تدريب على نقد آخر أعلى ؛ قدّر له أن يطبّق بعد ذلك في جميع ميادين البحث .

وفي نفس الوقت ؛ أصبحت التهمة المعنوية والفكرية القائمة على الكتابين المقدسين ، عبودية بروتستانتية تحررت منها الكنيسة الكاثوليكية بعد أن أصلحت من شأنها قرارات « مجمع ترنت »^(١) ؛ وإن بقيت تحت سلطان للقسس .

(١) مجمع ترنت : عقد بمدينة ترنت خلال أعوام ١٥٤٥ - ١٥٦٣ ، وفيه تقرر إصلاح الكنيسة الكاثوليكية ذاتها . (المترجم)

إن الإصرار على اعتبار العهد القديم كلمة الرب التي لا يأتيناها الباطل من أمامها ولا من خلفها - على الرغم من أنه ثبت بجلاء أنه ليس إلا تصنيفاً أو مجموعاً من إنشاء البشر متفاوت في قيمته الدينية والتاريخية - إن هذا الإصرار ، قد أسبغ ثوباً دينياً على هذا العناد الغبي الذي دفع ماثيو وأرنولد إلى اتهام الطبقة الوسطى في عصره الفيكتوري - التي كانت تحرص على الفضيلة - بأنها تعيش في « غدي عبري » (١) .

(١) أى تتأثر في مجريات حياتها بالأساليب اليهودية ، كما وردت في التوراة .
(المترجم)

الباب الحادى عشر
القانون والحرية فى التاريخ

الفصل الخامس والثلاثون

المشكلة

(١) معنى القانون

ما كان الإنسان في الغرب طوال المائة سنة السابقة لعام ١٩١٤ ؛
ليشغل بآله إلا في القليل ، بالمشكلة التي علينا الآن مجابهتها : إذ كان
يبدو وقتذاك إن كلا الحلين التاليين واف بالغرض :

فإذا كانت مقادير البشر تخضع لقانون أعلى من مستوى البشر ،
لا بد وأن يكون هذا القانون هو سنة الارتقاء ، التي كانت تنفي تماماً
بالغرض في ذلك الوقت .

أما إذا لم يكن ثمة - من ناحية أخرى - وجود لمثل هذا القانون ؛
لأمكن أن يقال - بكل ثقة - أن نشاط الكائنات البشرية التي أوتيت
الحرية والذكاء ، سوف يحقق نفس النتيجة .

على أن الموقف قد اختلف تماماً بحلول منتصف القرن العشرين .
إذ عُرِف أن حضارات قد انهارت في الماضي . وتكشفت ناطحة
السحاب الزائفة التي شاهدها الإنسان الغربي الحديث ، عن صدوع تُنذر
بتقويضها .

فهل ثمة قانون كذلك الذي استخلصه أوزوالد سبنجلر في مؤلفه
العظيم « انحلال الغرب^(١) » الذي نشره عام ١٩١٩ والذي يذهب إلى أن

. Oswald Spengler : The Decline of the West (١)

هذه الحضارة مقدّر عليها أن تمضى فى نفس السبيل الذى سلكته سابقاتها .
أو هل نحن أحرار فى إصلاح أخطائنا وتقرير مصيرنا ؟

تتطلب أولى خطوات بحثنا ، تحديد معنى لفظ « قانون » فى هذا المجال . وواضح أننا لا نقصد به تشريعاً يسنّه الإنسان ، أخذ اللفظ منه باستعارة شائعة الاستعمال ، إلى حد أن أحداً لم يعد يانفت إليها . إن « القانون » الذى هو موضوع بحثنا الحالى ، يشبه فعلاً ذلك النظام المعتاد الذى يضعه الإنسان ؛ من ناحية كونه مجموعة من قواعد تحكم شئون البشر . لكنه يخالف ذلك النظام فى أنه ليس من صنع الإنسان ، ولا قبّل للإنسان بتعديله .

وهذه الفكرة عن القانون — كما لاحظنا فى جزء سابق من هذه الدراسة^(١) . قد تبلور ، عند نقلها إلى المستوى الميتافيزيقي^(٢) ، فى رأيين يناقض أحدهما الآخر تناقضاً واضح المعالم :

فالعقول التى تنصو ، أن شخصية المشرّع البشرى أعظم قدراً من القانون الذى يُقيمه ، ترى أن القانون لميتافيزيقي الذى يسوس الكون ، صادر عن إله قادر على كل شئ .

وأما العقول الأخرى التى تنصو أن شخصية المشرّع — أو الحاكم — تكيّفها فكرة الذى يُقيمه ، ترى أن القانون الميتافيزيقي الذى يسوس الكون ، إنما هو قانون لم يسنّه أحد ؛ قانون منبثق عن طبيعة نمطية صارمة لا تلين .

وتفصح هاتان الفكرتان — كلتاهما — عن مظهر يبعث الغراء والذعر معا :

(١) انظر صفحة ٣٦٩ - ٣٧٤ من الجزء الثانى من هذه الترجمة .
(٢) الميتافيزيقي : نسبة إلى فلسفة ما وراء الطبيعة . وتبنى بدراسة بداية كل ما فى الوجود ، والبحث عن طبيعة الأشياء . ونظرتها وإله الكون وخصائصه . . وغير ذلك من الغيبيات . (المترجم)

وتتجلى ظاهرة الذعر من قوانين الطبيعة ، فيما تنسم به من الثبات ؛ وإن كان لهذا الثبات ما يعوّضه . فطالما كانت هذه القوانين ثابتة ، يستطيع العقل البشرى كشفها . فيكون إدراك الطبيعة فى متناول العقل البشرى ؛ وهذا الإدراك قوة . ويستطيع المرء معرفة قوانين الطبيعة حتى يُخصّصها لأغراضه الخاصة . ولقد أصاب فى هذا المجال نجاحاً مذهلاً : فقد شطر الذرة ، وبأية نتائج !!

إن النفس البشرية التى ترتكب المعصية وتعتقد أن لا سبيل لخلاصها ، لا بنعمة من عند الله ؛ ستكون عرضة - أسوة بدادود النبى - للوقوع فى يد الله (١) .

ولن يتأتى التغلب على صرامة عقاب الإنسان على خطيئته وفضحها - وهو ما يعادل فى قوانين الطبيعة يوم الحساب - إلا بقبول حكم القانون الإلهى . أى أن ثمن هذا التحول للولاء الروحى ، هو الحرمان من تلك المعرفة العقلية النهائية الدقيقة التى تعتبر الأجر المادى والعبء الروحى الذى تناله نفوس البشر التى تقنع بأن تمتلك أسباب السيطرة على الطبيعة ؛ ولو دفعت ثمن ذلك ، أن تغدو فى الوقت نفسه عبيداً لها .

« لاشك أنه » مخيف هو الوقوع فى يد الإله الحى (٢) . لأنه إذا كان الرب روحاً ؛ لما أمكن التكهن بتصرفاته مع الأرواح البشرية ، أو معرفتها . والنفس البشرية التى تقبل الخضوع لحكم « قانون الرب » إنما تتخلى عن علم اليقين وتتعلق بأهداب الأمل والخوف ؛ ذلك لأن القانون الصادر عن إرادة ، إنما ينطوى على حرية روحية ، هى نقيض رقابة الطبيعة النطية . وقد ينبعث القانون الإرادى : إما عن المحبة ، أو الكراهية . وإن النفس البشرية - إذ تقبل الخضوع لقانون الله - قد تعثر على ما يجلبه هذا القانون لها :

(١) انظر سفر أخبار الأيام (العهد القديم) اصحاح ٢١ آية ١٣ . (المترجم)

(٢) اقتبس الأستاذ المؤلف هذه العبارة من رسالة القديس بولس إلى العبرانيين :

اصحاح ١٠ آية ٣١ . (المترجم)

ومن ثم فإن فكرة الإنسان عن الله ، قد تراوحت بين : تخيُّله إلهاً أباً رحيماً ، وتخيُّله إلهاً جباراً . ويتفق هذان التصوران - كلاهما - مع تصوير الله على شكل شخصية مستترة في صورة البشر . إلا أن خيال البشر يبدو عاجزاً عن رؤية ما وراء هذا القناع .

(٢) اعتناق المؤرخين الغربيين لنظرية القانون الإلهي^(١)

إن فكرة « شريعة الله » قد خدمتها الجهود التي بذلها أنبياء بني إسرائيل وأنبياء إيران استجابة لتحديات التاريخ البابلي والسوري . على حين وضع الفلاسفة الذين شاهدوا تحلل العالمين السندي والهندي ، العرض التقليدي لفكرة « قوانين الطبيعة » . على أن لا تناقض بين هاتين المدرستين الفكريتين من الوجهة المنطقية . ومن الواضح أن هذين النوعين من القانون يعملان جنباً إلى جنب . فشريعة الله تكشف عن هدف واحد ثابت ، يحدد في طلبه عقل وإرادة شخصية ما

بينما تُفصح قوانين الطبيعة عن حركة منتظمة متواترة ، مثلها مثل حركة تدور حول محورها . فلو أمكن تخيُّل عجلة موجودة لم يتدخل في صنعها صانع مُبدع ، لا تفتأ تدور حول محورها من غير ما هدف ؛ لكانت دوراتها المتكررة ، عبثاً . وقد كانت هذه ؛ هي النتيجة المتشائمة التي استخلصها فلاسفة الهند واليونان ، الذين رأوا « عجلة الوجود الكثيرة »^(٢) تدور في فراغ إلى الأبد .

(١) استخدم الأستاذ المؤلف كلمة Antiimonianism - وهو مذهب الذين يقولون بأن المسيحيين غير خاضعين لقانون الأخلاق لاستفادتهم بقانون النعمة والبر . وقد ظهر هذا المذهب لأول مرة في ألمانيا عام ١٥٣٥ . (المترجم)

(٢) استوحى الأستاذ المؤلف هذا التعبير من قاعدة الديانتين الهندوكية والبوذية . فإنهما تؤمنان بتتابع سير الوجود إلى ما لا نهاية ؛ مثله مثل عجلة دائرة تتابع أوجهها دون توقّف . وإنّبي على هذه الفكرة الإيمان بالتناسخ ومذهب الحلول . فالروح تنتقل من جسد إلى جسد ومن مظهر حياة إلى آخر . فأنّأ هي في جسم آدمي وتارة في جسد حيوان أو نبات . . . وهكذا إلى ما لا نهاية . (المترجم)

ونحن في الحياة العملية ؛ لا نرى عجالات لم يصنعها صانع ، ولا يوجد صانعو عجالات ، ما لم يوجد سائقون بـكَلَفُون هؤلاء الصناع المهرة بصناعة العجلات وتركيبها في عربات : حتى تكفل دورات هذه العجلات — المتعاقبة — توصيل العربات إلى حيث يقصد سائقوها .

أى أن قوانين الطبيعة ؛ يُمكن فهمها إذا ما صُوِّرت كأنها عجالات ركبها الرب في « مركبته » الخاصة .

والاعتقاد بأن حياة الكون تحكمها « شريعة الرب » ؛ إعتقاد موروث عن اليهودية وشاركها فيه المجتمعان المسيحي والإسلامي . وقد ورد هذا الاعتقاد في مؤلفين من أمهات الكتب ؛ نشأها تشابهاً مذهلاً ، لكن لا صلة لأحدهما بالآخر ؛ وهما :

١ — مدينة الرب من تأليف القديس أوغسطين :

٢ — المقدمة التي وضعها ابن خلدون لتاريخه^(١) .

فأما نظرية القديس أغسطين المستمدة من وجهة النظر اليهودية عن التاريخ ؛ فقد أخذها المفكرون المسيحيون قضية مسلّمة طوال حقبة تجاوز الألف سنة ، ووجدت آخر تعبير ثقة لها في كتاب بوسويه Bossuet^(٢) « مقال في التاريخ العالمى » الذى نشر عام ١٦٨١ ميلادية .

وإذا كان المؤرخون الغربيون المحدثون قد استبعدوا فلسفة التاريخ هذه التى تجعل من الإرادة الإلهية المحور الذى يدور حوله التاريخ كله ؛

(١) اسم مؤلف ابن خلدون بالكامل « كتاب العبر وديوان المتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » . (المترجم)

(٢) چاك بوسويه (١٦٢٧ - ١٧٠٤) : أسقف فرنسى اشتهر بمقدرته الخطائية الفائقة . ألف طائفة من الكتب أهمها « موجز تاريخ فرنسا ، السياسة المقدسة ، حديث عن الكون . ويعتبر الأخير أعظم مؤلفاته . انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية ، وبعد انتخابه ، نشر مؤلفه : استعراض مذهب الكنيسة الكاثوليكية . وقد اشتهر بدفاعه الحارق عن تقاليد الكنيسة الكاثولية ومعارضته لأعدائها بما جعله هدف مطاعن أنباغ البروتستانية .

(المترجم)

فذلك أمر يمكن تعليقه ، بل والتماس العذر له ، فلقد تبين بالتحليل ، أن الصورة التي عرضها « بوسويه » لا تتماشى مع المسيحية ولا مع المنطق السليم . ولقد استعرض عيوبها بإسهاب « ر . ج . كولينجود R. G. Collingwood » وهو أحد كتاب القرن العشرين الممتازين ؛ مؤرخاً وفيلسوفاً ؛ إذ قال :

« إن تاريخاً يكتب وفقاً للمبادئ المسيحية ، هو بالضرورة عالمي ، يستمد من العناية الإلهية وقائم على التنبؤ وموقوت الحساب . . . فلو أن مؤرخاً وسيطاً^(١) تحدّاه أحد أن يفسّر كيف علم بوجود خطة موضوعية ما في التاريخ ؛ لأجاب بأنه قد عرف ذلك عن طريق الحدس . . . ذلك جزء مما كشف عنه المسيح للإنسان عن الرب . وهذا كشف فوق أنه دليل لمعرفة ما صنعه الله في الماضي ، فهو دليل يبين لنا ما ينتوى صنعه في المستقبل . وبالتالي ؛ أن هذا الكشف - عند المسيحيين - قد قدّم لنا صورة لتاريخ العالم بأسره ابتداء من خلقه في الماضي ، إلى نهايته في مستقبل الأيام ، كما يراه الله في نظره الأزلي الدائم .

« وعلى ذلك كان مؤرخو العصور الوسطى ، ينظرون إلى نهاية التاريخ ؛ كأنها شيء كتبه الله منذ الأزل وعرفه الإنسان عن طريق الوحي . فكانت نظريتهم تتضمن في حد ذاتها « معرفة بأمور الآخرة eschatology » .

« ومناطق التفكير في العصر الوسيط : أن التعارض تام بين غاية الرب الموضوعية ، وهدف الإنسان الشخصي - إلى حد أن غاية الله تبدو وكأنها تفرض خطة موضوعية معينة على التاريخ دون أية مراعاة لأهداف الإنسان الشخصية ، إن هذا التعارض يقود - لا محالة - إلى فكرة أنه ليس

(١) المؤرخ الوسيط ، أى المؤرخ الذى ينتسب إلى عصر العصور الوسطى .
(الترجم)

لأهداف الإنسان تأثير ما على سير التاريخ ، وأن الطبيعة الإلهية هي وحدها القوة التي تحكمه ،^(١) .

وهكذا نرى أن المؤرخين الغربيين في أوائل العصر الحديث من المشبّعين بعقلية القرون الوسطى - إذ شوّهوا فكرة الوحي المسيحي على هذا النحو ، قد عرّضوا أنفسهم لهجوم كل من أنصار مذهب الإيمان الجزمى بالعلم^(٢) في الجزء الأخير من العصر الحديث ، وأنصار مذهب الشك^(٣) في الجزء الأخير من العصر الحديث ؛ القائلين بقصور العقل البشرى عن إدراك شئون الدين .

فهؤلاء المؤرخون - كما يقول كولينجود كذلك - « قد وقعوا في الخطأ إذ ظنوا أنهم يستطيعون التنبؤ بالمستقبل » . كما أنهم « بتحمّسهم لكشف الخطة العامة للتاريخ وباعتقادهم أن هذه الخطة من صنع الله وليس من صنع الإنسان ، قد نزعوا إلى البحث عن جوهر التاريخ ، خارج مجال التاريخ نفسه ، وذلك بأن تحوّلوا عن أعمال الإنسان ، إلى العمل على الكشف عن خطة الإله » .

وتبعاً لهذا ؛ باتت - في نظرهم - تفاصيل أفعال الإنسان ، غير ذات قيمة - نسبياً - فكان أن أهملوا واجب المؤرخ الأساسي ، ألا وهو الحرص على تحمّل مشاق لا حدّ لها في سعيه لاستقصاء ما حدث فعلاً . وهذا هو سبب ضعف الأسلوب النقدي في علم التاريخ في العصور الوسطى . ولم يأت هذا الضعف عَرَضاً ؛ فهو لا يرجع إلى قلة المصادر والمواد الموضوعية تحت تصرّف الباحثين . بل يرجع إلى قصورهم في تحديد ما كانوا

(١) صفحات ٤٩ و ٥٤ و ٥٥ Collingwood, R.O, The Idea of History (Oxford 1946) والكتاب مترجم إلى العربية وقد نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) مذهب اليقينية : dogmatism .

(٣) مذهب الشك (أو مذهب اللا أدريّة) : يتضمن في جوهره القول بعدم كفاية العقل لفهم الوحي الإلهي ، والشك بالتالي في جميع ما يصدر عن العقل . (المترجم)

يريدون عمله ، في تحديد ما كانوا قادرين على عمله . فهم قد صدقوا عن إجراء دراسة دقيقة علمية لأحداث التاريخ الفعلية . إذ رنوا إلى إجراء دراسة دقيقة علمية لصفات الله ؛ أى علم لاهوت ، يمكنهم من أن يعرفوا سلفاً ما قد وقع حتماً في الماضي ، وما هو بسبيل أن يقع حتماً في المستقبل خلال عملية التاريخ .

« ونتيجة ذلك ؟ أنه عند النظر إلى أسلوب التأريخ في العصور الوسطى — من وجهة نظر المؤرخ الباحث — أى المؤرخ الذى لا يعبأ إلا بتحرى الدقة في دراسة الوقائع — يبدو أن هذا الأسلوب غير واف بالغرض ، بل إنه يتسم بعناد متعمد ومنقّر . والمؤرخون الغربيون في القرن التاسع عشر الذين نظروا إلى طبيعة التاريخ نظرة أكاديمية بحتة ، لم يشعروا نحو هذا الأسلوب بأى عطف » (١) .

إن هذا الموقف المعادى لتفكير العصور الوسطى لم يكن وقفاً على جيل من المؤرخين المتأخرين الذين كانت « لأدريتهم » المهدية ، تعكس وداعة حياتهم البهجة الهادئة . بل إن ذلك للعداء قد أثار — على نحو أشد — أسلاف هؤلاء المؤرخين وأخلافهم .

فلنبداً أولاً بالأخلاف ، ونعني بهم جيل للقرن العشرين . فهذا الجيل كان يمرّ بتجربة مرة . إذ كان يسوقه — يميناً ويساراً — طغاة من البشر ، عقدوا العزم على صبّ رعاياهم في إطار « خطط خمسية » . فثاروا ساخطين على فكرة « خطة فترة ألف عام » قد فرضها عليهم طغيان مقدس . أما رجل الغرب في القرن الثامن عشر الذى دفع أسلافه المباشرين ثمن ولائهم لآراء القرون الوسطى ، احتملهم آلام الحروب الدينية ؛ فلم يكن ليكتفى برفض نظرية « بوسويه » باعتبارها خرافة سخيفة وعتيقة ، لكنه كان يراها

(١) صفحات ٥٥ و ٥٦ من المرجع السابق .

هى العدو^(١) ، وكانت عبارة « اسحقوا المرذولين »^(٢) هى شعار جيل فولتير . ولم يكن ثمة فى هذا المجال فارق جوهرى بين أنصار الربوبية^(٣) الذين أبدوا استعدادا للتسليم بوجود إله على شريطة أن يملك ولا يحكم مثل ملوك من هانوفر فى بريطانيا العظمى^(٤) ، وبين الملحنين الذين حذفوا الله من مقدمة « إعلان استقلال الطبيعة »^(٥) .

ففى هذا الوقت ؛ تحررت قوانين الطبيعة والتزمت بجانب الصرامة المطلقة فأخذت - بالتالى - تنطور لتصبح قابلة للفهم تماما . كان هذا هو عصر نيوتن الذى نادى بأن الكون يقوم نفسه تلقائيا ، وعصر فكرة « بالى Paley » عن صانع الساعات الإلهى الذى إن ملأ زنبرك ساعته تلقائياً ودبر بنفسه شئونه ، أنهى بذلك مهمته .

وهكذا ؛ بُد « قانون الله » لاعتباره نتيجة أوهام الظلام الذى كان إنسان الغرب فى الجزء الأخير من العصر الحديث يخرج من إساره . لكن عندما تقدم رجال العلم ليتسلّموا ذلك الميدان الذى أقصى الله عنه ، أدركوا أن ثمة جانباً منه لا يمكن أن يسرى فيه دستورهم : قوانين

(١) كان هذا هو شعار المثقفين الفرنسيين الذين نادوا بالثورة ضد النظم القديمة سواء تمثّلت فى النظام الملكى أم فى الكنيسة الكاثوليكية ، وقد صكه فولتير . (المترجم) .

(٢) ecrasez l'infame .

(٣) مذهب يؤمن أصحابه بالله خالق للكون . لكنهم ينكرون صلة الله بالأرض والناس . فيؤمنون بأن ضياء الطبيعة والمثل يكفل هداية الإنسان سواء السبيل . فينكرون بالتالى الوحي . وتنصب معارضة أتباع المذهب على المسيحية بصفة خاصة لاستنادها على فكرة فداء الرب - فى صورة الابن - للبشرية . (المترجم)

(٤) كان جورج الأول هو أول هؤلاء الملوك . وكان فى الأصل أمير ألمانيا من هانوفر . وكان يجهل الإنجليزية مما دعاه إلى الامتناع عن حضور جلسات مجلس الوزراء . فكان هذا بداية اعتماد الملك عن شئون الحكم ، فانبعث بتوالى الأيام مبدأ الملك يملك ولا يحكم . (المترجم)

(٥) على نغرار « إعلان حقوق الإنسان » الذى أصدرته الثورة الفرنسية .

(المترجم)

«الطبيعة» . فقد يستطيع العلم تفسير الطبيعة الغير البشرية ؛ بل قد يكون في مكنته توضيح وظائف الجسم البشرى (وقد تصادف أن جاء مشابهاً تماماً لأجسام الثدييات الأخرى) . لكن إذا ما تعرض العلم لأوجه نشاط الكائن البشرى — لا باعتبار صدورها عن كائنات حيوانية ، ولكن عن كائنات بشرية آخذة بأسباب التحضر — هنا ارتد العلم خائباً . وهنا يواجه العلم اضطراباً يستعصى على قوانينه ؛ أحداثاً لا معنى لها ، يقفوا بعضها بعضاً ؛ أنماها روائى إنجليزى عاش في القرن العشرين وحصل على عدة جوائز « أودتا ODTAA »^(١) ، وهى الأحرف الأولى من عبارة إنجليزية تعنى « شئ لعين بعد شئ لعين آخر » . فقد عجز العلم عن فهم هذه الأمور ، ومن ثم تركها لفئة أخرى أقل طموحاً ؛ وهى فئة المؤرخين .

كان فلاسفة القرن الثامن عشر من أهل الميتافيزيقا قد اقتسموا الكون :

فعلى أحد جانبي خط التقسيم الذى وضعوه ؛ وجدوا منطقة مرتبة ، حافلة بشئون غير البشر ؛ واعتقدوا أن قوانين الطبيعة تسرى فيها . ويمكن إذن أن تصبح — تدريجياً — فى متناول استقصاء البشر ، بفضل الجهود المتواصلة التى يبذلها العقل البشرى .

وتركوا وراء الجانب الآخر من خط التقسيم ؛ منطقة من التاريخ البشرى ، تشيع فيها الفوضى . إذ رأوا أن لا شئ يستخلص منها أكثر من قصص مشوقة ، قد يتيسر تسجيلها بدقة متزايدة ؛ لكنها لا تثبت شيئاً . وربما كان هذا هو ما قصده بعضهم (واعلمه فورد صانع السيارات) بقوله إن التاريخ هو « سرير فى قطار » .

ولقد كان الطابع الرئيسى للفترة التى أعقبت القرن الثامن عشر — حتى وقت كتابة هذه السطور — هو أن العلم قد كرس نفسه — بدرجات

(١) Odtaa هى كلمة مؤلفة من الأحرف الأولى من عبارة One damned thing

. after another

مختلفة من التوفيق — ليضم إليه مجالات عمل متنوعة ، كانت متروكة في الأصل للمؤرخين . ومن قبيل المثال : علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) ، علم الاقتصاد ، علم الاجتماع ، علم النفس . ولكن المؤرخين ؛ مضوا مطمئنين يواصلون نشاطهم بحثا وراء الحقائق ، فيما بقي لهم من أرض تتضاءل يوما بعد آخر ، ولما يضع العلم فيها قدمه بعد .

لكن ما فتئت العقيدة الجوهرية عند رجل الغرب ؛ تقوم على الإيمان بأن الكون يخضع لقانون ما ، ولم يُترك للفوضى والاضطراب . والشكل الربوبي أو الملحد الذى اتخذته هذه العقيدة في إبان الجزء الأخير من العصر الحديث ؛ أساسه الإيمان بأن شريعة الكون ، عبارة عن مجموعة « قوانين الطبيعة » .

حقا ؛ إن مجال هذه القوانين يتسع باستمرار . فقد كانت الأسماء الالامعة في تاريخ العلم ، أسماء أولئك الذين رأوا نظاما متناسقا يكمن وراء الاضطراب السطحي الظاهر . فلا بدع والحالة هذه ؛ أن يكون السبب في ذبوع صيت يوتن وداروين وأينشتين مثلا ، أنهم قاموا بعمل كشفى من هذا النوع .

وبعد ؛ فنن ذا الذى كان في وسعه أن يرسم خطأ لا يتعداه هؤلاء للرواد المفكرون ؟

إن الإعلان بأن إحدى مناطق الكون — وهى المنطقة التى يشغلها الإنسان الآخذ بأسباب التحضر — قد خُصصت بأمر سلطة عليا غير محددة ، لتكون هيكلًا للاضطراب ؛ أن هذا الإعلان قد يرضى المؤرخين من أنصار « قانون الله » ، لكنه يُعتبر كفرًا وتجديفا في نظر أنصار العلم سليمى التفكير .

وفى الواقع ؛ كان حرياً بالمؤرخين الغربيين فى العصر الحديث أن يكونوا أقل اتجاها مما يدعون بكثير ، إلى الأخذ بقانون الله ؛ على نحو

ما سلّم به رجل ممتاز ممن زاولوا صنعة التاريخ في منتصف القرن العشرين ،
إذ قال :

« إن قوما ينتسبون إلى جيل معين ؛ لا يدركون عادة ، الدرجة التي
يرون بها تاريخهم المعاصر في نطاق إطار مقرر . وينسّقون الأحداث
وفقاً لأشكال ثابتة ، أو يصبّونها في قوالب معينة يختارونها أحياناً وهم
في أحلام اليقظة . قد يكون هؤلاء القوم غير واعين على الإطلاق
للأسلوب الذي تلتزمه عقولهم ، بسبب التكوين الروتيني الذي صاغوه
للقصة . ولن يظهر ضيق أفق هذا الإطار إلا عند ما تتغير أحوال الدنيا
وينشق جيل جديد لم يُحجّر عليه منذ مولده داخل الإطار التقليدي . . .
إن كتاب التاريخ وغيرهم من المعلمين ، ليُخطِئوا في تصوّرهم أنهم لو لم
يكونوا مسيحيين ؛ لامتنعوا على التقيّد بأى رأى ، ولعملوا دون التزام
أى مذهب ، ولناقشوا التاريخ من غير فروض سابقة ؛ ومن بين المؤرخين
— كما هو الحال في ميادين العلم الأخرى — لتجدنّ أشدهم حماقة ؛ أولئك
الذين يعجزون عن فحص فروض وضعوها مسبقاً ، فيتصورون — من ثم
مغتبطين — أنهم براء من أى شىء منها » (١) .

هذه هي صورة سجين لا يشعر بالأغلال التي تقيّده . ولا يسعنا في هذا
المقام سوى الاستشهاد للمرة الثانية بفقرة أصبحت بفضل وجاهتها والمعية
الكتاب الذي جاءت في مقدمته ؛ إعرافاً تقليدياً بنبيذ الاعتقاد بوجود
قانون الله :

« لقد حُرِّمتُ . . . من إثارة فكرة واحدة ؛ إن أناساً أكثر منى
فطنة وأوسع علماً ، قد ميّزوا في التاريخ حبكة موضوعية وترديداً متناسقاً
ونمطاً مقدّراً ؛ هذه المطابقات خفيت عني . فإني لا أرى إلا حدثاً يتلو

(١) مسنحتا ١٤٥ و ١٤٦ Butterfield, Herbert : Christianity and History
(London 1949, Bell).

الآخر ، كما تقفو الموجة موجة أخرى ؛ ولا أرى إلا حقيقة واحدة ، غير قابلة للتعميم لأنها فريدة في نوعها ؛ ولا أرى سوى قاعدة واحدة يستطيع المؤرخ الاعتماد عليها ، وهى أن عليه أن يعترف ويسلم بالدور الذى تؤديه المصادفة والأحداث غير المنظورة فى تطور مصائر البشرية ^(١) . ومع ذلك ؛ فإن هذا المؤرخ الذى أعلن جهارا ولأه مبدءاً أن التاريخ ما هو إلا « شىء لعين يتلو شيئاً لعينا آخر » قد أطلق على كتابه اسم « تاريخ أوروبا » . وبذلك التزم — فى نفس اللحظة تقريباً — بنمط محدد سلفاً ؛ تكافأ فيه تاريخ قارة غير مميزة ، بتاريخ الإنسانية جمعاء . وقد وصل المؤرخ إلى هذا المصطلح التاريخى فى الغرب فى الجزء الأخير من العصر الحديث ، باعتناقه — بطريقة لاشعورية — عقائد المذهب التاريخى الدينى السائد وقتذاك فى الغرب . فالعمليات الذهنية اللاشعورية اللازمة للاعتقاد بوجود « أوروبا » ؛ إنما كانت من الصعوبة بحيث اقتضت عدداً من المبادئ المقبولة ضمناً ، لا يقل عن تسعة وثلاثين مبدءاً .

(١) صفحة ٧ من مقدمة الجزء الأول Fisher, H.A.L. : A History of Europe (London 1935. Eyre & Spottiswoode).

الفصل السادس والثلاثون

انقياد شؤون البشر لقانون الطبيعة

١ - عرض للدليل

(١) شؤون الأفراد الخاصة

لنبداً تحقيقاً للهدف من بحثنا ، بالإجابة عن هذا السؤال :
لقوانين الطبيعة مكان في تاريخ الإنسان الآخذ بأسباب التحضر -
أو لا مكان لها فيه ؟ .

ثم يتعين علينا أن نفحص قطاعات مختلفة من شؤون البشر ؛ لنرى هل
يتضح من دراسة أعمق لهذه المسألة ، أنها ليست موضع بحث بالقدر الذي
نفترضه الآن . ولعل من المناسب ، إختيار مواضيع الاختبار من بين خضم
الشؤون العادية للأفراد . وهو موضوع ساهم فيه المؤرخون المحدثون بنصيب
موفور تحت عنوان « التاريخ الاجتماعي » .

وواضح أن الصعوبة التي نواجهها في بحثنا عن قوانين تحكم تواريخ
الحضارات ؛ لا وجود لها هنا . إذ أن عدد الحضارات المعروفة في التاريخ من
القلة ، إلى حد لا يكفي لاستخلاص قانون عام شامل جامع . فهي تقل عن
أربع وعشرين حضارة ، ومعلوماتنا عن بعضها محدودة جداً . أما الأفراد
العاديون ، فإنهم يعدون بالملايين . وفي ظل الأحوال السائدة في الغرب في
العصر الحديث ؛ خضع سلوكهم لتحليل إحصائي معقد ؛ وعلى أساسه استنبط
بعض رجال الأعمال بعض التنبؤات ، وجازفوا - إيماناً بصحتها - لا بسمعتهم
الحميدة فحسب ، ولكن بأموالهم كذلك . فأولئك الذين يهيمون على الصناعة
بالتجارة ، افترضوا واثقين ، أن هذه السوق أو تلك قد تستوعب هذا القدر

من هذه السلعة أو تلك . ويحتمل أن تُخطئ تقديراتهم أحياناً ، لكنها تكون سليمة في أغلب الأحيان ؛ وإلا اضطروا إلى الخروج من ميدان العمل .

والتأمين ؛ هو ذلك الجانب من النشاط في دوائر الأعمال الذى أظهر بأجلى صورة ، قابلية «قانون المعدلات» للتطبيق في شئون الأفراد . على أن الأمر يقتضى منا - بلا ريب - الحذر من التورط في اعتبار جميع أشكال التأمين ، دليلاً على قابلية «قوانين الطبيعة» للتطبيق على شئون الأفراد ؛ بالمعنى الذى نقصده بهذه العبارة ؛ إذ يعنى التأمين على الحياة باحتمالات الجسم البشرى ؛ وهو موضوع يقع في نطاق الفسيولوجيا ، الذى هو بدوره من صميم اختصاص العلم .

ولا يجوز - في نفس الوقت - إنكار أن للنفس البشرية دوراً في هذا المضمار . إذ يمكن إطالة الحياة المادية بالتزام الحكمة ؛ كما يمكن تقصير الأجل بأشكال مختلفة من سوء التدبير تتراوح بين التهور والحماقة ، ثم البهيمية . كما يتضمن التأمين البحرى على السفن وحمولاتها ، دراسة علم الأرصاد الجوية ، وهو بالمثل أحد قطاعات العلم . وإن كان لا يزال في الوقت الحاضر لا ضابط له . ولكن إذا ما انتقلنا إلى فرع التأمين ضد السرقة أو الحريق ، اتضح لنا أن شركات التأمين تقامر بقوانين المعدلات المطبقة على الصفات البشرية الخاصة ، من إجرام وإهمال .

(ب) الشئون الصناعية لمجتمع غربي حديث

ظهرت المعدلات الإحصائية التى يمكن استخلاصها من تقلبات العرض والطلب في الصفقات المعقودة بين الموردين وعملائهم ؛ ظهوراً واضحاً ، على شكل مجموعة متلاحقة من دورات الارتفاع والكساد . إلا أن المعدلات الخاصة بالدورات سالفة الذكر في دوائر العمل ؛ لم تحدد - حتى وقت كتابة هذه السطور - بدقة كافية ، من شأنها أن تشجع شركات التأمين على افتتاح فرع جديد لأعمالها ؛ ولتحديد أسعار للتأمين ضد الأخطار الجسيمة التى تنشأ

عن تلك الدورات . ومع ذلك ؛ فإن الباحثين من أهل العلم قد عرفوا الكثير عن هذا الموضوع .

وفي التاريخ الفكري لمجتمع غربي صناعي ؛ تمّ - بالتجربة - كشف ظاهرة الدورات الاقتصادية ، من طريق الملاحظة الاجتماعية المباشرة ، قبلما تؤكدّها الإحصائيات ؛ وكان مراقب بريطاني يدعى س . ج . لويد S. G. Loyd الذي عرف بعد ذلك باسم اللورد أفرستون Overstone ، أول من وصف تلك الدورات في بحث نشره عام ١٨٣٧ ميلادية . وفي عام ١٩٢٧ ؛ أعلن و . س . ميتشل W. C. Mitchell - وهو باحث أمريكي بحث الدورات الاقتصادية - إيمانه « بتوقع تغيير خواص الدورات الاقتصادية ، كلما ارتقى التنظيم الاقتصادي » . وعلى أساس « الوقائع التجارية » التي جمعها باحث أمريكي آخر هو « ل . ثورب W. L. Thorb من أدلة غير إحصائية ؛ استخلص دارس أمريكي ثالث هو ف . س . ميلز F. C. Mills أن متوسط طول الموجة للدورة اقتصادية « قصيرة المدى » بلغ ٨٦ سنة إبان مراحل التصنيع الأولى و ١٠٩ سنوات إبان العصر التالي ، عصر الانتقال السريع و ٦٣٩ سنوات خلال الفترة التالية ، فترة الثبات الاقتصادي النسبي التالية .

وعرض اقتصاديون آخرون دورات أخرى ، ساد الاعتقاد بأن بعضها ذات موجات أطول مدى بكثير . وارتأى فريق آخر ؛ أن هذه « الموجات » قد أظهرت ميلا إلى الانحسار لتقوم حالة من التوازن . إلا أنه لم يكن هناك اتفاق عام بينهم حول هذا النوع من الأزمات الدورية ؛ إذ كانت دراستها ما تزال - في الحقيقة - في طفولتها . ولسنا بحاجة إلى متابعة البحث أبعد من ذلك . إذ أن النقطة التي يهمننا إبرازها ؛ هي أنه في خلال مائتي سنة منذ شوب الثورة الصناعية في بريطانيا ، ما فتئ رواد علم الاقتصاد في الغرب يجهدون في أن يستخلصوا من ركام المعلومات التي قدمها لهم التاريخ

الاقتصادى ، مجموعة قوانين تحكم هذا القطاع من نشاط للبشرية الاقتصادية الذى برزت فيه الصفات المميزة للبشر .

(ج) تنافس الدول الإقليمية (توازن القوى)

أما وقد تبين لنا أن الاقتصاديين قد استخدموا نتائج أبحاثهم لاستكشاف أثر القوانين القابلة للتطبيق فى التاريخ الاقتصادى ؛ فطبعى أن نولى وجوها شطر القطاع السياسى للنشاط ، لنرى ما إذا كان من الممكن حدوث أى شىء من هذا القبيل فى هذه الناحية كذلك . وسنختار كميدان لعمليتنا فى هذا القطاع السياسى ؛ التنافس والحروب التى قامت بين الدول الإقليمية فى الغرب فى العصر الحديث . ولعل من الممكن القول إن العصر الحديث من التاريخ الغربى قد بدأ حوالى نهاية القرن الخامس عشر ، مع حركة لإصطناع الدول الأوروبية ما وراء الألب ، لنظام الدولة كما عرفته إيطاليا . فيصبح فى متناول أغراض بحثنا الحالى ، أكثر من أربعة قرون .

« يعلم كل تلميذ — وفقا لتقدير ماكولى Macoulay المتفائل — أنه فى أربع مناسبات تفصل بين الواحدة والأخرى : فترة تتجاوز بقليل مائة عام ؛ استغل الإنجليز (أو البريطانيون) المنة النسبية التى هباتها لهم منعة جزيرتهم فى صدّ عدوان دولة من دول القارة فى بداية الأمر ، ثم تدميرها بعد ذلك . وكانت تلك الدولة تسعى إلى تزويد العالم المسيحى الغربى بدولة عالمية . أو كانت على أية حال — وحسب التعبير التقليدى — تهدد بالإخلال بميزان القوى .

فى المناسبة الأولى — تمثلت الدولة المعتدية فى أسبانيا . وتحطمت الأرمادا الأسبانية فى عام ١٥٨٨ .

وفى المناسبة الثانية — تمثل العدوان فى فرنسا على عهد لويس الرابع عشر . وقد هزمت فى موقعة بلنهام Blenheim عام ١٧٠٤ .

وفي المناسبة الثالثة - كان المعتدى هو فرنسا الثورة و نابليون . وهزمت
في موقعة واترلو عام ١٨١٥

وكانت ألمانيا في عهد غليوم الثاني ، هي الدولة المعتدية في المناسبة الرابعة ،
وتمت هزيمتها يوم الهدنة عام ١٩١٨ : ثم عادت مرة أخرى في عهد هتلر ،
فكان أن هزمت في معركة نورماندى عام ١٩٤٤ .

فهنا أنموذج لا يخطئ لدورية الحروب - من وجهة نظر أهل الجزيرة -
يتجلى في مجموعة من أربعة حروب ؛ يفصل بين الواحدة والأخرى مسافة
تنظم بشكل عجيب . وتفوق كل واحدة سابقاتها سواء في شدة القتال ؛
وفيما سندعوه ، لتساع نطاق النزاع . ودارت أولى هذه الحروب بين دول
الأطلسي : أسبانيا ، فرنسا ، هولندا ، إنجلترا .

وفي ثانيها : تدخلت دول أوروبا الوسطى ، بل روسيا أيضا (إن اعتبرنا
الحرب الروسية السويدية حرباً متفرعة عن حرب الوراثة الإسبانية) .

وثالثة الحروب هي الحروب النابليونية . وقد جرت معها روسيا كدولة
محاربة رئيسية . وفي الإمكان إلحاق الولايات المتحدة الأمريكية بها ،
إن اعتبرنا حرب ١٨١٢ حرباً متفرعة عن الحروب النابليونية .

وفي الحرب الرابعة ؛ تدخل أميركا كدولة محاربة رئيسية . ويظهر
الطابع العام لهذه الحرب من أن معاركها المتلاحقة سميت الحربين العالميتين
الأولى والثانية .

وهذه الحروب الأربعة التي نشبت للحيلولة دون إقامة دولة عالمية غربية
حديثة ؛ فصلت بين كل منها ، فترة من الوقت تبلغ حوالى القرن . فإذا ما تقدمنا
لبحث القرون الثلاثة الواقعة بين هذه الحروب ، وجدنا في كل حالة ،
ما يمكن أن يطلق عليه حرب أو مجموعة من الحروب الوسطى أو المكتملة ؛
وفي كل منها نجد صراعاً على السيادة ، لا يقع في أوروبا الغربية في مجموعها
ولكن في المنطقة الوسطى منها : أى ألمانيا .

وإذ كانت هذه الحروب تنشب في أوروبا الوسطى قبل غيرها - لم تشبك بريطانيا في أية واحدة منها ، بينما صدفت عن التدخل إطلاقاً في بعض منها . فمن ثم لا تدخل هذه الحروب على الإطلاق فيما « يعلمه كل تلميذ » (ونعني بالطبع كل تلميذ بريطاني) . وكانت حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨) أولى تلك الحروب الوسطى . وتآلف الجانب الأعظم من الحرب الثانية من حرب فردريك الأكبر ملك بروسيا (١٧٤٠ - ١٧٦٣) ؛ واقتربت ثالثها باسم بسمارك ، وإن كانت قد تضمنت كثيراً غيره . ولهذا ينبغي أن يؤرخ بين السنوات (١٨٤٨ - ١٨٧١) .

وأخيراً ؛ فلعله يقال إن هذه المأساة ذات الفصول الأربعة ، كانت لها فاتحتها . فهي لا تبدأ بفيليب الثاني ملك اسبانيا ، ولكن بالحروب الإيطالية التي نشبت بين أسرتي هابسبرج Habsburg ونالوا Valois قبل ذلك بجيلين . ولقد بدأت هذه الحروب بغزو تافه لإيطاليا - وإن كان مشثوما - قام به الملك شارل الثامن ملك فرنسا . وما برحت المصادر التعليمية تستخدم تاريخ الغزو - وهو عام ١٤٩٤ - كخط صريح حاسم يفصل العصور الوسطى المتأخرة عن الفترة الأولى من العصر الحديث . وهذا التاريخ ؛ يقع بعد عامين من فتح المسيحيين لآخر أرض إسبانية بقيت في حوزة المسلمين ، ومن أول رسو لكولبوس في جزائر الهند الغربية .

ويمكن وضع هذا كله في شكل جدول . فإذا فحصنا دورات الحرب والسلم في التاريخ الهليني الذي أعقب الإسكندر ، وفي التاريخ الصيني خلال العصور التالية لكونفوشيوس^(١) ، لوجدنا نماذج تاريخية تتماثل تماثلاً مذهلاً مع ما تم كشفه في سياق التاريخ الغربي الحديث . وذلك سواء في تركيب هذه النماذج ، أو وحدتها .

(١) إذا أراد القارئ الكريم التوسع ؛ فليرجع إلى المجلد التاسع من كتاب الأستاذ توينبي « دراسة للتاريخ » في صورته غير المختصرة .

(٤) ١٥٦٨ - ١٦٠٩ في الكملك الإسبانية الكسرية حاسبيرج و ١٥٦٢ - ١٥٩٨ في فرنسا .

(٥) ١٦٧٢ - ١٦٧٨ و ١٦٩٧ و ١٧٠٢ - ١٧١٢ .

(٦) ١٧٩٢ - ١٨٠٢ و ١٨٠٣ - ١٨١٤ و ١٨١٥ .

(٧) ١٥٣٦ - ١٥٣٨ و ١٥٤٢ - ١٥٤٤ و ١٥٤٦ - ١٥٤٩ و ١٥٥٠ - ١٥٥٢ إنجلترا ضد فرنسا) و (١٥٤١ - ١٨٥٢ صعبية

الأمراء البروتستانت في الإمبراطورية الرومانية المقدسة ضد شارل الخامس) و (١٥٥٢ - ١٥٥٩ .

(٨) ١٧٢٣ - ١٧٣٥ و ١٧٤٠ - ١٧٤٨ و ١٧٥٦ - ١٧٦٣ .

(٩) ١٨٤٨ - ١٨٤٩ و ١٨٥٣ - ١٨٥٦ و ١٨٥٩ - ١٨٦١) : حرب أهلية في الولايات المتحدة وفي سنة ١٨٦٢ - ١٨٦٧

الاحتلال الفرنسي للمكسيك) ١٨٦٤ و ١٨٦٦ و ١٨٧٠ - ١٨٧١ .

(١٠) سبقت الحرب العالمية التي انتهت خلال ١٩٣٩ - ١٩٤٥ مدة نفوذ اتخذت شكل حروب مثل : مدوان اليابان على الصين التي بدأ في منشوريا

عام ١٩٣١ ، والحرب الإيطالية الحبشية ١٩٣٥ - ١٩٣٦ ، والحرب الأهلية الإسبانية ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، وحلة اليريم الواحد القاضية على منطقة الراين

في مارس سنة ١٩٣٦ - وإن كانت حلة بيشاه لم تنفك فيها دماء إلا أنها دفت فيما باحظا لذلك ، مع الفوائد المركبة ، في النتائج التي حدثت

في السنوات من ١٩٣٤ إلى ١٩٤٥ .

(د) تحليل الحضارات

إذا ما عُدنا برهة إلى أنموذجنا الدوري عن حروب المجتمع الغربي الحديث ؛ فلعلنا نرتاع لحقيقة مبناها أن دورة الحروب هذه ، ليست مجرد عجلة تدور في فراغ أربع مرات ، وتعود في كل مرة إلى الوضع الذي بدأت منه دوراتها . إذ لا يقتصر الأمر على ذلك ؛ فالعجلة تتحرك إلى الأمام قُدْهًا ، في طريق مشثوم .

ففي ناحية ؛ نجد أربع حالات لدول تتحالف سويًا زيادًا عن حياضها ؛ ضد جارات جبار ؛ لتثبت له حين يجد الجدد ، أن كبرياءه قد ساقه نحو الهاوية .

وفي الناحية الأخرى ؛ نقطة لا يوضحها أنموذج الحرب الدورية ، لكن تُظهرها أية معرفة أولية للتاريخ . وتتسم كل دورة من دورات الحروب لأربع هذه ؛ بكونها أوسع من سابقتها شمولاً وأشد عنفاً وأفظع تدميرًا ، من الناحيتين المادية والمعنوية على السواء . ولقد انتهت دورات الحروب هذه في تواريخ المجتمعات الأخرى - كالمجتمعين الهلنئ والصينئ - باكتساح جميع الأطراف المتنازعة ؛ عدا طرف واحد ، هو الذي يُقيم بعد ذلك دولة عالمية .

ولقد عرض لنا خلال دراستنا تحليل الحضارات ، هذا الاستهلاك الذاتي الذي ينشأ من هذه الدورة الرتيبة ، والذي يعتبر المظهر الغالب للصراع الناشب بين الدول الإقليمية في سبيل البقاء . فلا بدع والحالة هذه ؛ أن يتوافر هذا الشبه بين إيقاع عمليتين ترتبط إحداها بالأخرى ارتباطاً لا شبهة فيه^(١) ،

(١) انظر الفصل الحادئ والعشرين « إيقاع التحلل » الوارد بصفحات ٤٥٩ - ٤٧٠ « من الجزء الثاني من هذه الترجمة . ولقد عبر الأستاذ المؤلف عن إيقاع التحلل تعبيراً عسكرياً على النمط التالي : كسرة - نهضة - كسرة - نهضة - كسرة . ومصدّقاً لهذا ؛ يعتبر عصر الاضطرابات الذي يتلوه انهيار بمثابة « كسرة » ؛ وإنشاء الدولة العالمية بمثابة « نهضة » ؛ وتعتبر فترة الفراغ التي تستتبع انقسام الدولة العالمية بمثابة الكسرة النهائية . (المترجم)

وأظهرت دراستنا الانهيار الحضارى - الذى تولدت فيه حالة التحلل - أن كثيرا ما تكون مناسبة أو أعراض (أعراض التحلل) : ويسفر الانهيار عن اندلاع حرب عنيفة، عنفاً لا مثيل له بين الدول الإقليمية التى يتألف منها المجتمع .

وقد يعقب عملية إحلال إمبراطورية عالمية محل الدول المتصارعة ؛ لا وقف حركات العنف تماماً ، ولكن عودة ظهورها فى أشكال جديدة كحروب أهلية أو ثورات اجتماعية . ومن ثمت ؛ فإن عملية الانحلال وإن كانت قد توقفت مؤقتاً ، فهى مستمرة فى طريقها .

ولاحظنا كذلك^(١) أن عمليات التحلل - كحروب الدول الإقليمية - قد دارت دورتها فى مجموعات مضت فى طريقها فى شكل تقلبات رتيبة . وبفحص عدد من الأمثلة ، ثبت لدينا أن الدورة الرتيبة لـ « الكسرة » و« النهضة » تتغلب فيها نزعة التحلل فى معركتها الطويلة الأمد ضد حركة مقاومة لها . وقد استطاع أن يدق ثلاث دقات ونصف دقة : كسرة ، نهضة ، نكسة ، نهضة ، نكسة ، نهضة ثم نكسة ، وهو فى سبيل استكمال رحلته التاريخية من انهيار الحضارة إلى تحللها النهائى . وعلى ذلك ؛ تدفع الكسرة الأولى المجتمع النهار إلى عصر اضطراب تخفف من حدته النهضة الأولى التى لا يطول أمدها ، إذ تفاجئ المجتمع حركة أشد عنفاً تصل إلى الدرورة ، وتتلو هذه النكسة نهضة ثانية أطول أمداً تتبلور فى تشييد دولة عالمية ، تكابد هى ببلورها نكسة ثم تحرز انتعاشاً يتلوها التحلل النهائى .

ويظهر من ذلك ؛ أن مأساة التحلل الاجتماعى - إن حكم عليه بما حدث حتى الآن - هى حبكة أكثر دقة وانتظاماً من حبكة مأساة توازن القوى . ومن دراسة جدولنا عن الدول العالمية^(٢) ؛ سنجد أنه فى الحالات التى لم يحتل

(١) انظر صفحتى ٤٦٠ و ٤٦١ من الجزء الثانى من هذه الترجمة .

(٢) مكانه آخر هذا الجزء .

فيها سير الأحداث بتأثير هيئات اجتماعية غربية ، قد تستغرق الحركة :
كسرة - نهضة - نكسة - نهضة أنجع أثرا ؛ فترة أربعائة سنة تبدأ من
الانهيار الأول إلى تشييد الدولة العالمية . كما تستغرق الحركة التالية المكونة
من النكسة الراجعة ثم نهضة أخيرة ثم نكسة نهائية ؛ تستغرق مدة مساوية
تقريباً تبدأ من تشييد الدولة العالمية حتى تحللها .

لكن لإنقضاء أجل الدولة العالمية ، لا يتم في يسر وسهولة . فإن
الامبراطورية الرومانية وقد تمزقت إربا في المقاطعات الغربية المتأخرة اجتماعيا
غداة كارثة أدرنة عام ٣٧٨ ميلادية (أى بعد مئتي أربعائة سنة بالتمام
على تشييد أغسطس Augustus لها) لم تسلك نفس الطريق في المقاطعات
الوشرقية والشرقية ، إلا بعد وفاة يوستينيان عام ٥٦٥ ميلادية . وشييه بذلك
إمبراطورية هان Han (الصينية) التي لقيت ضربتها الثانية عام ١٨٤ ميلادية
والتي تمزقت - من ثمت - إلى ممالك ثلاث توصلت إلى إعادة تشكيل
كيانها - لفترة قصيرة في إمبراطورية تسين Ts'in (أعوام ٢٨٠ - ٣١٧
ميلادية) قبلما تنهار نهائيا .

(هـ) نمو الحضارات

إذا ما نحولنا باهتمامنا من التدلل الاجتماعي إلى النمو الاجتماعي ؛ سنستعيد
ما اهتمدنا إليه في مرحلة سابقة من هذه الدراسة^(١) : ألا وهو أن نمو
الحضارة - مثل تحللها - حركة رتيبة في دوريتها . إذ يتخذ النمو الحضاري
سبيله كلما أثار أحد التحديات استجابة ناجحة ، تُثير هي بدورها تحديا
آخر مختلفا . ولم نعتز على أى سبب أصيل يحول دون تكرار هذه العملية
نفسها إلى ما لا نهاية . هذا على الرغم من أن جمهرة الحضارات التي إنبعثت
إلى الوجود حتى وقت كتابة هذه السطور ؛ قد أخفقت - وهذه حقيقة

(١) بط الأستاذ المؤلف آراءه في شأن نمو الحضارات في صفحات ٢٧٥ - ٤٠٦
من الجزء الأول من هذه الترجمة .

تاريخية مقررة - في مواصلة نموها ، لأنها عجزت - إلا في حالات قليلة -
عن تقديم استجابة هي رد ناجع على التحدى الذى أثارها ؛ وهى في نفس
الوقت مصدر خصب لتحدي جديد يتطلب استجابة مختلفة :

فمن قبيل المثال : شاهدنا في تاريخ الحضارة الهلينية^(١) أن التحدى
الأول الذى أثارته البربرية الفوضوية ، قد استثار استجابة فعّالة ، اتخذت
شكل بناء سياسى هو دولة المدينة . كما لاحظنا أن نجاح هذه الاستجابة
قد استثار تحدياً جديداً ، كان هذه المرة على الصعيد الاقتصادى في هيئة
ضغط تزايد السكان على موارد المعيشة المتاحة . واستثار هذا التحدى الثانى
عدداً من الاستجابات البديلة تباينت في فعاليتها :

١ - كانت هناك كارثة الاستجابة الامبرطية التى قامت على الاستيلاء
عنوة على أراضى جيران اسبرطة الهيلينيين المنتجين للمواد الغذائية .

٢ - وكانت ثمة استجابة أثمرت - حيناً ما - في كورنث وخالقدونيا
وتقوم على الاستعمار . ويعنى استيلاء الهلنيين على حقول جديدة يحرثونها
فيما وراء البحار ، في أراض تكتسب من الشعوب الأكثر تأخرأ القاطنة
في الحوض الغربى للأبيض المتوسط .

٣ - وهناك الاستجابة الأثينية ذات التأثير المستديم الناجع . ومناطقها
زيادة الطاقة الإنتاجية المتجمعة لهذا العالم الهلنى الموسع ؛ بعدما
أوقفت إمتداده الجغرافى ، مقاومة منافسيه من الفينيقيين والإترسك
(الأترويون) . وكان أساس الاستجابة إحداث ثورة استيعاب فيها عن
إنتاج المحصولات للاستهلاك ، بإنتاج محاصيل تباع نقداً ، وإنتاج صناعى
يصدر في مقابل مواد غذائية ، وخامات تستورد .

(١) انظر صفحتى ٣١٥ و ٣١٦ ثم صفحتى ٣١٩ و ٣٢٠ من الجزء الأول من
هذه الترجمة .

وهذه الاستجابة الناجحة لتحدٍّ اقتصادي ؛ قد استثارت — كما رأينا — تحدياً آخر ، برز على الصعيد السياسي . لأن العالم الهليني بعد أن ظهر أن أصقاعه قد أصبحت معتمدة بعضها على بعض ؛ مسّت حاجتها إلى تنظيم سياسي يكفل القانون والنظام على مستوى عالمي . فإن النظام العام المستند على أوضاع دولة المدينة ذات الطابع المحلي . وهو الذي فرض قيام اقتصاد زراعي ذي اكتفاء ذاتي في كل رقعة منعزلة من الأرض المنبسطة — لم يعد صالحاً لقيام بناء سياسي يلائم المجتمع الهليني ، الذي أصبح بنيانه الاقتصادي — وقتذاك — يقوم على الوحدة . ولم يُجابه هذا التحديّ الثالث في الوقت المناسب حتى يتيسر إنقاذ نمو الحضارة الهلينية من الانهيار السريع .

ونستطيع كذلك أن نطلع في نمو الحضارة الغربية على سلسلة من تحديات متعاقبة استثارت استجابات موفّقة . وتتماز هذه السلسلة من التحديات بكونها أطول أمداً من التحديات الهلينية ؛ من ناحية أن التحديّ الثالث قد جوبه باستجابة موفّقة مثلما جُوبه التحديان الأول والثاني :

١ — تمثل التحديّ الأول في نفس البربرية الفوضوية التي قامت في فترة انتقالية ، كذلك التي جابهت الهلنيين من قبل ؛ ولكن مع اختلاف نمط الاستجابة . ففي حالة الغرب تجلّت الاستجابة للتحديّ في قيام نظام كنسي عالمي في هيئة البابوية التي أقامها البابا هيلدبراند .

٢ — استثار هذا تحدياً ثانياً . إذ ألقت المسيحية الغربية النامية نفسها — وقد حققت وحدة كنسية — مفتقرة إلى نظام وطيد للدولة الإقليمية ، يكون ناجماً من الناحيتين السياسية والاقتصادية . فكان أن جوبه التحديّ بإعادة الحياة لنظام دولة المدينة الهليني ، في كل من إيطاليا والأراضي المنخفضة .

لكن هذا الحل الذي أجدى تماماً في بعض المناطق أخفق في الوفاء باحتياجات الدول الملكية الإقطاعية ذات الأقاليم الواسعة . فهل كان من

شأن الحل الذى توصلوا إليه فى إيطاليا وهولندا عن طريق نظام دولة المدينة ، أن يصلح للتطبيق فى بقية أنحاء العالم الغربى ، باصطناع هذه الكفاءة التى تحققت فى إيطاليا وهولندا فى نطاق أوسع هو نطاق الأمة الكبيرة^(١) ؟

حُلّت هذه المشكلة - كما رأينا - فى إنجلترا ، على الصعيد السياسى - فى البداية - عن طريق تلقيح النظام البرلمانى الذى كان شائعاً فى أوروبا ما وراء الألب إبان العصور الوسطى ؛ تلقحه بالكفاية . ثم حُلّت المشكلة بعد ذلك على الصعيد الاقتصادى ، بفضل الثورة الصناعية . إلا أن هذه الثورة الصناعية الغربية - مثل الثورة الاقتصادية الأثينية فى التاريخ الهلنى - أدت إلى الاستعاضة عن اقتصاد إقليمي أساسه الاستكفاء الذاتى ، بتكافل اقتصادى عالمى الطابع .

٣- ألقت الحضارة الغربية نفسها ، نتيجة لاستجابتها الموفقة لتحدي^٢ ثالث ، تجاه نفس التحدى الجديد الذى سبق أن واجه الحضارة الهلينية عقب استجابتها الموفقة لتحديها الثانى . فحتى كتابة هذه السطور - فى منتصف القرن العشرين - لم يظهر فى الأفق أن الإنسان الغربى قد جابه هذا التحدى السياسى بنجاح . لكنه أصبح شديد الإدراك لخطورته ، وما ينطوى عليه من تهديد .

وفى هذه النظرات العابرة على نمو حضارتين ؛ ما يكفى لإظهار انتفاء المشابهة بين تاريخيهما ؛ فيما يتصل بعدد الحلقات فى تسلسل دورات التحدى والاستجابة المترابطة ، التى تحقق عن طريقها النمو الاجتماعى . كما أن درس توارىخ جميع الحضارات - التى تتوافر وثائقها توافراً كافياً - يؤكد تلك النتيجة .

وهكذا ؛ يبدو أن حاصل بحثنا الحالى قد تبلور فى أن أثر « قوانين

(١) بدلا من قصره على المدينة فقط . (المترجم)

الطبيعة » غير واضح في تواريخ نمو الحضارات ، وضوحه في تواريخ انحلالها ؛ وسنجد في فصل تال أن هذه النتيجة ليست من قبيل المصادفة ؛ لكنها سمة تلازم التباين الأصل ، بين عملية النمو وعملية الانحلال :

(و) لا درع يقي من القدر

استبان لنا من دراستنا أثر « قوانين الطبيعة » في تواريخ الحضارات ؛ أن الرتبة التي تبدى فيها هذه القوانين ، قد تولد عن صراع بين نزعتين متفاوتتان شدة وقوة :

إحدهما نزعة مهيمنة تغلب على مدى الزمن ، على تحركات مضادة متكررة تقوم بها النزعة المناهضة إثباتاً لوجودها ؛ ويقدم هذا الصراع نوع الإيقاع ، أو الرتبة :

أولاً : فإن إصرار النزعة الضعيفة على رفض التسليم بالهزيمة ، يفسر تكرار حدوث الصدام المرة بعد الأخرى ؛ في سلسلة من الدورات المتعاقبة ؛ ثانياً : تثبت النزعة القوية ، سلطانها بوضع حد لتلك السلسلة ؛ إن عاجلاً أو آجلاً :

وفي ضوء هذه الخطوط الرئيسية ؛ لاحظنا ضروب الصراع بين الدول الإقليمية في سبيل البقاء : خلال ثلاث أو أربع دورات من الحروب خاضها أحد الطرفين بقصد تحطيم مبدأ توازن القوى ؛ بينما كان الطرف الآخر يهدف إلى المحافظة على هذا التوازن ؛ وكان الأمر ينتهي في كل حالة ؛ إلى تحطيم توازن ميزان القوى . كما شاهدنا أيضاً ؛ الصراع بين اتجاه المجتمع المنهار نحو الانحلال ، وبين جهد مضاد يقوم به هذا المجتمع . وهو أسلوب كان ينتهي بالتردى في الانحلال ، في كل حالة .

وفي دراستنا « أثر قوانين الطبيعة » في الشؤون الاقتصادية لمجتمع صناعي غربي ، ظهر لنا أن الخبراء الباحثين في الدورات الاقتصادية ،

قد حملوا بأن هذه الحركات المتكررة قد تكون موجات تتدافع على سطح مياه ، ما فتئت تتدفق طوال الوقت في تيار متصل ؛ لا بد أن ينتهي إلى وضع حد لهذه التقلبات الرتيبة . ولعلنا نذكر في هذا الصدد النتيجة التي وصلنا إليها ؛ من أنه عندما - وحيثما - ينشب صراع بين حضارة متحللة ، وعصابات من البرابرة المتمردين رابضة وراء حدودها ؛ وينتقل هذا الصراع من حرب الحركة إلى حرب ثابتة ، على طول حدود الدولة العالمية ؛ يصبح الوقت - عادة - ضد المدافعين عن تلك الحدود ؛ ويتحول إلى مصلحة من المتبررين المهاجمين لها . ويظل الضغط قائماً حتى ينفجر السد ويكتسح طوفان البربرية أمامه الكيان الاجتماعي - الذي كان قائماً^(١) .

هذه كلها أمثلة للنتيجة الأعم التي اهتدينا إليها . ومدارها أن للحركات الدورية في التاريخ البشري - مثل الدورات العادية لعجلة العرب - القدرة على أن تبعث - بفضل حركاتها الدائرية المتكررة الرتيبة - حركة أخرى أطول رتبة ، يمكن - عن طريق مقارنتها بسابقتها - أن تكون تقدماً متجمعاً مطرداً في اتجاه واحد ، يدرك هدفه في النهاية . حتى إذا بلغ هدفه ؛ وضع أهدأ للحلقة كلها . على أنه ليس ثمة ما يؤكد اعتبار انتصارات اتجاه على آخر ، كشواهد على « قوانين الطبيعة » . فقد لوحظ - بالتجربة - أن الحقائق ، ليست بالضرورة نتيجة قدر صارم . ويقع عبء الإثبات هنا على عاتق القائل بمذهب الجبر ، لا على اللاأدرى^(٢) - وهذه وجهة نظر فشل شينجلر

(١) يراجع في تفصيل هذا الرأي مبحث « تجمع الضغط الوارد في صفحات ٢٢٥ - ٢٣٦ من الجزء الثالث من هذه الترجمة .

(٢) أي المعتنق للفلسفة اللاأدرية أو الأغسطية . وهي حركة دينية نشأت والمسيحية في بدايتها . وهي محاولة لتكوين مزيج من اللاهوت المسيحي والفلسفة اليونانية وعناصر مأخوذة من النحل السرية التي شاعت في منطقة الأبيض المتوسط ، وفي مصر بالذات حيث نشأت فيها عبارة سيرابيس وإيزيس وحورس التي سادت منطقة الأبيض المتوسط قبل نشوء المسيحية . =

Spengler بفلسفته الحتمية القطعية والتي تخلو من السند - في أن يأخذها مأخذ الاعتبار .

على أنه - دون الإخلال بمسألة الخلاف بين « القانون والحرية في التاريخ التي لم يستقر فيها الرأي بعد - نقترح قبل مواصلة مناقشتنا أكثر من ذلك ؛ أن نسجل طائفة من الأحداث الأخرى ، ظهرت فيها نزعة ما ، وعادت تؤكد وجودها في وجه ثورات متتابعة نشبت ضدها . وشبهنجلر لا يرى فيما تسفر عنه هذه القوى المتصارعة إلا يد « القدر » ، وسواء أكان مذهبه عن « الحتمية » صحيحاً ، أم فاسداً ؛ فهو لم يحاول إثباته .

وسنبدأ بالموقف الذي نشأ عن سيطرة اليونان بالقوة العسكرية على جنوب غرب آسيا .

فعلى الرغم من أن هذه السيطرة الهلينية قد طال أمدتها حتى بلغ أقل من الألف سنة بقليل عندما اكتسحتها جيوش المسلمين إبان القرن السابع الميلادي ؛ فإن الهلينية لم توفق قط في الأقاليم الواقعة جنوب جبال طوروس ، في أن تصبح شيئاً أكثر من ثقافة ثقيلة أجنبية تبعث شعاعها الباهت - على بقاع ريفية - سريرية أو مصرية - متمسكة بأصلها ؛ وذلك من عدد قليل من مراكز متقدمة هلينية أو مهلنة^(١) . ولقد دأب الملك السلوقي أنطيوخس أبينانس Antiochus Epiphanes (حكم من ١٧٥ إلى ١٦٣ ق . م . على السعى لصيغ البلاد التي خضعت لحكمه بالصيغة الحضارية الهلينية) . وقد وضع قدرة الثقافة الهلينية على استمالة الجماهير إليها ، موضع الاختبار . وذلك عندما شرع في جعل أورشليم مدينة هلينية ، مثلما كانت أنطاكية . وكانت الهزيمة المنكرة الطنانة التي أصابت هذه المغامرة العسكرية والثقافية في وقت واحد ؛

= ويرى اللاأدريون (أو الأغنسطيون) أن لهم علماً باطناً بجوهر الديانة ولبائها . وبهذه المعرفة ، يتيسر لهم بلوغ الاستنارة والخلاص (الففران) . (المترجم)

(١) أى تصطبغ بالصبغة الثقافية الهلينية . (المترجم)

كانت نذيراً بالأفول النهائى الكامل لتلك الثقافة الدخيلة . غير أن هذه الثقافة قد امتد بها الأجل - رغم وهنها المتواصل - عدة قرون أخرى ، بفضل حقيقة معروفة ؛ وهى أن الرومان انتزعوا السلطان السياسى من السلوقيين والبطالمة الآخذين فى الضعف .

إن قوة السلاح ؛ هى التى فرضت سيطرة اليونان على المجتمعين السورى والمصرى ، واستبقتهما . وما فتئ المجتمعان المقهوران يحتضنان الهزيمة ؛ طالما ألبدا استجابة للحضارة الغربية من نوعها . ولقد بدا أثناء الفضل التالى لهذه القصة ، أن تحول جماهير سكان الولايات الشرقية إلى المسيحية خلال القرن الثالث الميلادى - قد يؤدى للثقافة الهلينية - بطريق غير مباشر - ما حاول أنطيوخس أن يحققه لها ، وعجز عن تحقيقه ؛ فلقد استهوت الكنيسة المسيحية الكاثوليكية طبقة أهل الريف إلى صفها ؛ مثلما بهرت أبواب طبقة حضرية هلينية تسيطر على تلك الطبقة الريفية . وإذ كانت المسيحية فى طريقها المظفر متشحة برداء هلىنى ، بدا كما لو أن أهل الشرق قد تلقوا مع المسيحية فى نهاية الأمر ، ثقافة لفظوها من قبل وصدفوا عنها بعنف ؛ وقما قدّمت إليهم سافرة غير مقنعة .

على أن هذا تقدير قد استبان ضلاله !!

فإن الشرقيين ما أن يعملوا المسيحية المصطبغة بالصبغة الهلينية ؛ حتى آلوا على أنفسهم تجزيدها من العناصر الهلينية ، باعنائهم بدعاً دينية متوالية ؛ وكانت النسطورية^(١) أولها . وعلى ذلك ؛ فإن أهل الشرق بمواصلتهم

(١) مذهب مسيحى أسسه نسطوريوس Nestorius السورى (مات حوالى عام ٤٥٠ ميلادية) . وقد اختاره الإمبراطور البيزنطى عام ٤٢٨ بطريكاً للقسطنطينية . وينكر نسطور على السيدة مريم لقب « أم الإله » ويقتصر على تلقيها بأُم المسيح الإنسان . ولا يعتبر نسطور السيد المسيح إلهاً ولكن مجرد بشر ؛ ويؤله « الكلمة » لأنها صدرت عن الله وبها خلق السيد المسيح . وعلى الرغم من معارضة جمهرة رجال الدين المسيحي لنسطور فإنه ثبت على مرقفه لا يتزحزح ، وأحدث بليلة شديدة فى أنحاء العالم المسيحي . فكان أن عقد =

مقاومة الثقافة الهلينية ، في صورة مجادلة لاهوتية بعيدة عن القوة العسكرية ، قد ابتدعوا أسلوباً جديداً يقوم على الحرب الثقافية التي كانت كلمتهم فيها كى العليا ؛ في نهاية الأمر .

واتخذ هذا الهجوم الثقافي المناهض للتأثيرات الهلينية — طوال عدة قرون — الخط الدائري الذي ألفناه من قبل . فقد علت موجة التسطورية ثم هبطت ، لتتلوها موجة مذهب الطبيعة الواحدة^(١) . وهذه بدورها ؛ تبعها الموجة الإسلامية التي اكتسحت أمامها كل شيء .

وقد يقال إن الانتصار الإسلامي ؛ كان عودة لأسلوب الفتح الحربي . للصرف . حقاً إنه لن يتأتى — من غير شك — اعتبار الجماعات العسكرية للعربية الإسلامية ، إرهاباً للمذهبي تولوستوى وغاندى القائمين على نبذ العنف والعزوف عن المقاومة . بيد أن العرب وإن كانوا قد « فتحوا » سوريا وفلسطين ومصر خلال سنوات ٦٣٧ — ٦٤٠ ميلادية ؛ إلا أن هذا الفتح كان شبيهاً بما حققه غاريبالدى Garibaldi عندما غزا صقلية و نابولي عام ١٨٦٠ بقوة تتألف من ألف متطوع من ذوى القمصان الحمراء يعززهم مدفعان صغيران يجرونها وراءهما مجرد الاستعراض دون أية ذخيرة .

ولقد استطاعت البعثة العسكرية لجماعة وحدة إيطاليا Italia Una فتح مملكة الصقليتين ، لأن هذه المملكة رغبت في أن تفتح . وما كانت مشاعر سكان الولايات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية تجاه جماعات العرب المسلحة ، تختلف تماماً عن مشاعر الصقليين تجاه غاريبالدى .

= عام ٤٣١ بمدينة أفسوس مجمع لتسوية النزاع بين رجال الدين . وقد انتهى المجمع بتكفير فسطور وتجريده من وظيفته . وينحصر اتباع المذهب التسطورى في الوقت الحاضر في أقلية تنتشر بالعراق وسوريا وفارس وروسيا (القوقاز) وأميركا . (المترجم)

(١) مذهب الطبيعة الواحدة (المذهب المينوفيسى) . السيد المسيح وفقاً له إله على الأرض وفي السماء . عكس المذاهب المسيحية الأخرى التي تعتقد بأن للسيد المسيح طبيعتين : بشرية خلال وجوده على الأرض وانتهت بموته على الصليب فداء للبشرية ، وإلهية بانتقاله إلى السماء بعد الصلب . (المترجم)

وهكذا ؛ نرى في المثال الذى أوردناه آنفا ؛ حلقة متتابعة من الاحتجاجات الهرطقية ، ضد نظام من التجانس غير مرغوب فيه ، انتهت بفوز الاحتجاج الثالث .

ويبدأ تاريخ فرنسا منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، نفس النمط . ولكن في ظروف مختلفة .

إذ كانت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في فرنسا مشتبكة — منذ ذلك القرن — في صراع — لم يحرز في أى وقت من الأوقات إلا نصرا وقتيا — لتوطيد دعائم وحدة فرنسا الدينية — كبلد مسيحى كاثوليكي — في مواجهة دافع نحو الانفصال ؛ يؤكد وجوده في شكل جديد ، كلما أخذت الحركة المرة بعد الأخرى . ومن ذلك ؛ أن الثورة التى نشبت ضد المسيحية الكاثوليكية ، قد اتخذت شكل « الكاثارية Catharism ^(١) . واندلعت لأول مرة في جنوب فرنسا إبّان القرن الثانى عشر ثم أخذت في تلك المنطقة في القرن السادس عشر في شكل الكالفينية Calvinism ^(٢) . فلما قضى على الكالفينية ؛ سرعان

(١) كاثارى Cathari : مذهب دينى مسيحى انتشر في غضون العصور الوسطى انتشاراً واسعاً بين طائفة اللادريين . وكلمة « كاثارى » مشتقة من اللغة اليونانية ، وتعنى « التطهر » وظلت هذه الحركة قائمة حتى منتصف القرن الرابع عشر . ومناطق عقيدة الطائفة إنقسام البشر إلى طبقتين : الصفوة والمؤمنين . ويعتبر الصفوة قديسين على الأرض وتجب طاعتهم على المؤمنين دون مناقشة . ويؤمن أتباع طائفة الكاثارية بأن الشيطان هو حاكم هذه الدنيا التى تعتبر نوعاً من المظهر أو الجحيم . على أنهم آمنوا بالخلاص النهاى للبشرية بأسرها وبعودة الإنسان إلى الدنيا أكثر من مرة في أشكال شتى قبل تسالمة — في نهاية المطاف — مع السيد المسيح . واعتنق بعض أفراد الطائفة فكرة التقمص ، أى انتقال الروح إلى موجود آخر بعد الموت . (المترجم)

(٢) الكالفينية : مناط آراء المذهب ما يتصل بموضوع « القضاء والقدر » . ومداره أن الله قد اختار نفوساً معينة يمنحها الخلاص (الفجران) ونفوساً أخرى أوجب عليها اللعنة الأبدية . ولا عاصم البتة من قضاء الله وقدره . ويبه الله أفراد الطائفة الأولى رحمته والطائفة على الاحتمال . ومن الكالفينية ؛ انحدرت طوائف البروتستانت في فرنسا وسويسرا ، كما انحدرت كذلك طوائف المظهرين (البيورتان في إنجلترا وأميركا وغيرها .) (المترجم)

ما استعادت الحركة الانفصالية كيائها في شكل الجانسينية Jansenism^(١) ؛ وكان المذهب الجديد أقرب المذاهب للكالفينية — في نطاق الكنيسة الكاثوليكية . ولما قضى على حركة مناهضة الكاثوليكية في شكلها الجانسيني ، عادت إلى الظهور في شكل مذاهب أخرى كمذهب التأليه والمذهب العقلي^(٢) و « اللاأدرية » و « الإلحاد » .

ولقد لاحظنا في مواطن أخرى من بحثنا كيف قدر لمذهب التوحيد عند اليهود أن يغلب المرة بعد الأخرى أمام المذاهب التي تقوم دوماً داعية إلى تعدد الآلهة . كما بينا كذلك ما كُتِب على الفكرة اليهودية المتصلة بالوحدانية ؛ وهي تسامى الإله الواحد الحق^(٣) — من الانتكاس بسبب الاشتقاق إلى إله متجسد^(٤) .

(١) الجانسية : نخلة دينية مسيحية تنسب إلى جانسين كورنيلوس (١٥٨٥ - ١٦٣٨) . وكان عالماً دينياً هولندياً درس اللاهوت بباريس . وبعد عامين من وفاته ، نشر أصدقاؤه آراءه في مؤلف يدعى أوغستينوس Augustinus . وتبين منه أن جانسون وإن عارض البروتستانتية معارضة شديدة ، إلا أن كثيراً من آرائه شابت آراء أتباع كالفين ؛ مما دعى إلى تحريم الفاتيكان لها عام ١٦٤٩ . ويعتبر جانسون « الخطيئة الأزلية » ليست مجرد تنديداً بالخطيئة ، لكنها غواية الطبيعة . والشهوة لديه هي لوعة الخطيئة في الجسم والنفس . وعنده أن خشية الله والخوف من العقاب الأبدى لا ينزعان الشر من القلب ؛ إذ يعتاظم الحورف في للنفس الضعيفة وليس منه شيء ينتسب إلى الله . وتخالف تعاليم جانسون الكنيسة الكاثوليكية — بخاصة — في ناحية إزدراءه الفارق بين النظام الطبيعي والنظام القدسي ؛ لإيمانه بأن جميع العطايا القدسية ليست منحة من الله للإنسان — لكنها حق مقرر له على الله . (المترجم)

(٢) الممترية (أو المذهب العقلي) : لا يقر إلا ما يطابق العقل الحر . (المترجم)
(٣) يقرر العلامة فرويد (وهو يهودي) بأن اليهودية قد أخذت جوهر التوحيد عن اخناتون الفرعون المصري الفيلسوف (من الأسرة الثامنة عشر — أنظر مؤلف فرويد) موسى والوحدانية Moses and Monotheism وكتاب المؤلفة الهنانية سافيتيري ديني « ابن الشمس Savetiri Davi : Son of the Sum » . (المترجم)

(٤) إذ يؤمن اليهود بتجسد « ياهوى » (وهو أقدم أسماء الرب في اليهودية) في شخصية بشرية هي المسيح المنتظر . وتتولى هذه الشخصية تشييد دولة عالمية تقيم العالم بأسره وعاصمتها أورشليم ، وتجعل من اليهود الجنس المسيطر باعتبارهم شعب الله المختار . وهذا هو -

إن مذهب التوحيد لم يحبّ عبادة « بعل » و « عشتروت » ؛ إلا ليجد أمامه منافسى « يا هوى » الغيور المتبوزين ، يعودون بدهاء إلى حظيرة المعتقد اليهودى الأصيل ، وقد تنكروا فى صورة تجسيم لكل من « كلمة الله » و « حكمة الرب » و « ملاك الرب » . ثم يستقرون بعد ذلك داخل حظيرة العقيدة المسيحية الأصيلة فى عقيدة « الثالوث الأقدس » ، وفى الطقوس الدينية المتصلة و « جسد الإله ودمه » و « أم الإله » و « القديسين » .

ولقد استثارت عودة طغيان الشرك توكيدا صادقا لوحداية الله فى الإسلام ، وتوكيدا أقل كما لا فى البروتستانتية . بيد أن حركتى التطهير هاتين فى الإسلام وفى البروتستانتية — قد نكبتا بدورهما باشتاء النفس البشرية ، لفكرة تعدد الآلهة ، التى تعكس التعدد الظاهر لقوى الطبيعة فى الكون^(١) .

٢ - التفسيرات محتملة لسريان « قوانين الطبيعة » فى التاريخ

متى سلمنا بأن حالات التكرار والانتظام التى ميّزناها فى سياق هذه الدراسة ، حقيقة واقعة ؛ بدا لنا أن ثمة تفسيرين محتملين لها .

إذ قد تكون القوانين التى تسوسها :

= ما دفع اليهود إلى معارضة عيسى عليه السلام لأنه نادى بملكوت الرب فى السماء ، لا على الأرض ؛ وأن الخلاص للبشر جميعاً ولا يستأثر به شعب أو طائفة دون الناس جميعاً ، وأن الخلاص روحاني وليس مادياً . (المترجم)

(١) لا أتفق مع الأستاذ المؤلف فى قوله بانزلاق المسلمين إلى فكرة الشرك بالله . وأعتقد أنه مسير فى مثالبه هذه بما سبق أن ذكره فى مواضع من كتابه بشأن نزوع طوائف من المسلمين إلى التعصب لبعض الشخصيات الإسلامية ورفعها إياها إلى مراتب قدسية ، متأثرة بلا ريب بعقائدها الأصلية قبل هدايتها إلى الإسلام ، أو لاعتبارات سياسية . ومن الناحية الأخرى يتأثر الأستاذ توينبى بما هو حادث فى معظم البلاد الإسلامية من تقديس العامة للأولياء ونسبة الأعمال الخارقة إليهم ، وهى لا تصدر إلا عن الله تبارك وتعالى . لكن هذه الخرافات فى طريقها إلى الزوال بفضل انتشار التعليم وشيوع الثقافة وارتقاء الوعي الاجتماعى . ولم يتأثر جوهر الإسلام إطلاقاً بنزعات العامة وشلحات الجهال ، إذ ما تزال تعاليمه تقوم على التمسك التام بمبدأ التوحيد كرنيد الشرك فى شتى صورته منذ ظهوره ولم تؤثر أحداث الزمن فى نمو مبادئه ، فى قليل أو كثير . (المترجم)

لإما قوانين جارية في البيئة غير البشرية للإنسان ، وتفرض نفسها من الخارج على سير التاريخ .

ولإما قوانين فطرية كامنة في التركيب النفسى للطبيعة البشرية نفسها وفى عملها .

فلنبداً بفحص الفيض الأول :

فن قبيل المثال ؛ يؤثر تعاقب الليل والنهار — بكل جلاء — فى الحياة اليومية للناس : ومع ذلك نستطيع استبعاد هذه الظاهرة من تقديرنا فى هذا البحث . إذ كلما عظم ترقى الإنسان من الحياة البدائية ، عظمت قدرته على « تحويل الليل إلى نهار » كيفما ووقما شاء .

وثمة دورة فلكية أخرى هى دورة الفصول السنوية ، كان الإنسان — فى زمن مضى — عبداً لها . فقد أصبحت مدة الصوم الكبير موسماً للصيام المسيحى . وتفسير ذلك ؛ أنه قبلما تطلع المسيحية على العالم بأحقاب عديدة لا حصر لها ، كانت نهاية أيام الشتاء ، فترة تنقص فيها موارد الإنسان بانتظام ، سواء أكان ذلك مفيداً له من الناحية الروحية أم غير مفيد . على أن أهل الغرب — ومن اعتنق الأساليب الغربية — قد حرروا أنفسهم — فى هذه الناحية أيضاً — من ربة « قانون الطبيعة » . فبفضل مخازن التبريد ووسائل النقل السريع المنتشرة على سطح البسيطة التى وحدتها الأساليب التكنولوجية ؛ أصبح فى وسع أى إنسان بيده نقود — فى أى جزء من العالم — أن يشتري اللحم والخضر والفاكهة والزهور ، فى أى فصل من فصول السنة .

ولعل الدورة السنوية المألوفة ؛ لم تعد هى الدورة الفلكية الوحيدة التى يخضع لها عالم النبات على الكرة الأرضية ، والتى كانت تستعبد — بدورها — الإنسان بطريق غير مباشر ؛ طالما كان يعتمد على الزراعة فى معاشه . وقد كشف علماء الأرصاد الجوية المحدثون عن دلالات لدورات مناخية ذات ترديد زمنى أكثر طولاً . وعند بحث هجرات البدو من « الصحراء » على « الأراضي المنزرعة » ؛ استخلصنا دليلاً غير مباشر ينم عن وجود دورة

مناخية ، تتردد كل ستمائة سنة . وتتكون كل دورة من هذه الدورات من نوبات متعاقبة من الجذب والرطوبة . وقد بدت هذه الدورة الافتراضية - وقت كتابة هذه السطور - أقل ثبوتاً عن بعض الدورات الأخرى التي من نفس النوع ؛ تلك هي ؛ التي لا تتألف أطوالها التوجّية من أكثر من رقبين - بل وربما من رقم واحد فقط - وهي دورات بدا أنها تهيمن على تقلبات المحاصيل الزراعية التي تزرع وتحصد لإصطناعها في ظل الظروف الحديثة .

ولقد قبل بأن ثمة صلة توافق ؛ بين دورات المناخ والمحصول هذه ، وبين الدورات الصناعية الاقتصادية التي قال بها بعض الاقتصاديين . ولكن استقر الرأي السائد في الأيام الأخيرة بين الخبراء على خلاف ذلك النظر فأبدي ستانلي جيفونز Stanley Jevons - وهو رائد من رواد ميدان هذا البحث في العصر الفيكتوري - رأياً برّاقاً مؤداه أن الدورات الصناعية قد تكون نابعة عن فعل ذبذبات في النشاط الإشعاعي للشمس - على نحو ما يبدو في ظهور البقع الشمسية واختفائها . إلا أن هذا الرأي ، قد انطفأ بريقه ؛ ولم يعد أحد يأخذ به . وقد وافق جيفونز نفسه خلال السنوات التالية ؛ على أن « دورات الكساد الصناعي تتصل بالفعل في طبيعتها إذ تتوقف على ما يعتور الناس من تقلبات في نزعات القنوط والأمل والإخفاق والفرح »^(١) .

وفي عام ١٩٢٩ ، أبدى A. C. Pigou - وهو اقتصادي من جامعة كامبردج - الرأي القائل بأنه مهما بلغت أهمية عامل تقلبات المحصول في تعيين ذبذبات النشاط الصناعي ؛ فإنها كانت وقت كتابة مؤلفه ، أقل بشكّل حاسم مما كانت عليه قبل ذلك الوقت بخمسين أو مائة سنة . وانضم ج. هاربلر J. Harbeler لنفس الرأي وقبلاً كتب

(١) صفحة ١٨٤ Jevons, W. Stanley : Investigations in Currency and Finance 2nd ed (London, 1909 Macmillan)

مؤلفه بعد انقضاء اثنتى عشرة سنة على كتابة Pigou . ونورد هذا الرأى هنا ، كأمودج للرأى الاقتصاى الرائج وقت كتابة هذه السطور :

« إن تضاول الرخاء - مثل تعاظمه - لا بد وأن يُعزى إلى عمليات تجرى داخل دنيا المال والأعمال ذاتها ، ولا علاقة لها بتأثير عوامل الاضطراب التى تفد من الخارج .

« إن الشىء الغامض بصدد هذه التقلبات ، أنه لا يتأتى تعليلها بمثل الأسباب الخارجية التى تفسر بها المحاصيل السيئة الراجعة إلى أحوال الطقس والأمراض والاضطرابات الشاملة وتوقف العمال عن العمل والزلازل والوقف الفجائى لجزريات التجارة الدولية . . . وما إلى ذلك . إذ يندر أن يؤثر المبوط الحاد فى حجم الإنتاج وفى الدخل الحقيقى أو فى مستوى العمالة - كنتيجة لسوء المحاصيل والحروب والزلازل وما إلى ذلك من العوامل الطبيعية التى تخل بعمليات الإنتاج - يندر أن يؤثر فى النظام الاقتصاى فى جملته . ولا يترتب عليه بالتأكيد ، الكساد الاقتصاى بمعناه الفنى فى نظرية الدورة الاقتصادية . فإننا نعنى بالكساد - فنياً - ذلك المبوط الظاهر الطويل الأمد ، فى كل من حجم الإنتاج والدخل الحقيقى والعمالة ؛ والذى لا يتأتى تفسيره إلا بفعل عوامل نابعة من داخل النظام الاقتصاى نفسه ، وللهذه الأولى بفعل عدم كفاية الطلب النقدى ، وبعدم وجود فرق كاف بين الثمن والتكلفة .

« ولأسباب متعددة ؛ يبدو من المرغوب فيه - عند تفسير الدورة الاقتصادية - تعليق أقل ما يمكن من الأهمية على تأثير عوامل الاضطراب الخارجية . . إن استجابات النظام الاقتصاى تبدو من النظرة الأولى أكثر أهمية فى تشكيل الدورة الاقتصادية ، من الصدمات الخارجية . وثانياً ، يبدو أن التجربة التاريخية توضح أن للحركة الدورية ميلاً قوياً للاستمرار ،

حتى حيث لا توجد مؤثرات خارجية بارزة تعمل فيها ؛ وقد يكون السبب في استمرارها . ويوحى هذا بوجود عدم استقرار طبيعي يلزم نظامنا الاقتصادي ، أى ميل للتحرك في اتجاه معين أو في آخر ^(١) .

وثمة دورة طبيعية أخرى تختلف اختلافاً بيئياً ، ولا يمكن إغفالها . ألا وهي دورة الحياة البشرية ، من الميلاد ونمو وإنجاب وشيخوخة وموت ؛ ولقد برز مغزى هذه الدورة في ناحية تاريخية معينة لكاتب هذه الدراسة ، من حديث جرى خلال مأدبة غداء عام ، أقيمت في سنة ١٩٣٢ بمدينة طروادة من أعمال ولاية نيويورك :

فلقد ألقى الكاتب نفسه جالساً إلى جانب المدير المحلي للتعليم العام ؛ فكان أن سأله عن أشد جوانب مهنته المتعددة تشويقاً وإثارة ، فأجاب على الفور « تنظيم دروس اللغة الإنجليزية لأجداد الطلبة . فسأله الزائر البريطاني دون تفكير :

« كيف يتأتى في بلد يتحدث الإنجليزية أن تتقدم بأحد الناس السن حتى يصبح جداً دون أن تتسنى له إجادة الإنجليزية ؟ ! » .

فأجاب المدير « حسناً ، إنك ترى أن طروادة هي المركز الرئيسي لصناعة الياقات الكتانية في الولايات المتحدة . وقبل صدور قوانين تقييد الهجرة عامي ١٩٢١ و ١٩٢٤ ؛ كانت جمهرة القوة العاملة هنا تأتي من بين المهاجرين الأجانب وأفراد أسرهم . إلا أن المهاجرين الوافدين من كل بلد من البلاد الرئيسية المصدرة للمهاجرين ، اعتادوا الاستمسك بماضيهم الخاص إلى أقرب مدى في استطاعتهم ، وذلك بأن يجتمعوا بأبناء بلدتهم . فكان المهاجرون من الأصل القومي الواحد لا يقنعون بالعمل جنباً إلى جنب في ذات المصانع ؛ بل لقد كانوا يحرصون على السكنى متجاورين في الحى الواحد .

(١) (ص ١٠ : Prosperity and Depression (Geneva 1941 Haberler G. (Leagne of nations).

حتى إذا حان وقت اعتزالهم العمل ؛ ما كان معظمهم ليدرك من الإنجليزية أكثر مما كان يعرفه وقتما وصل إلى الشواطئ الأمريكية للمرة الأولى . ولم ترغمهم الظروف على معرفة مزيد من اللغة الإنجليزية في هذا الطور الأمريكي من حياتهم ، نظرا لاستعانتهم بترجمين من نشأوا في أوطانهم . أما أطفالهم فقد وصلوا إلى أميركا صغارا في سن مكنهم من الالتحاق بالمدارس العامة قبل انخراطهم بدورهم في المصنع ؛ فترتب على جمعهم بين تعليم أمريكي وطفولة إيطالية - مثلا - أن أصبحوا يجيدون اللغتين إجادة تامة . فهم يتحدثون الإنجليزية في المصنع والشارع والحانات ويتكلمون الإيطالية في دور والديهم ؛ من غير أن يدركوا - غالبا - أنهم ينتقلون دوما من لغة إلى أخرى . فكانت ثنائيتهم اللغوية المطواعة البريئة من الإحن ، ملائمة إلى أقصى حد لوالديهم الشيوخ . وحقا ؛ شجعت هذه الثنائية ميل والديهم - بعد تقاعدهم عن العمل - إلى نسيان حتى تلك الكلمات الإنجليزية التي كانوا قد التقطوها في الماضي خلال فترة عملهم بالمصنع . إلا أن هذه القصة لم تتم فصولها ، فبمرور الوقت ؛ تزوج أبناء المهاجرين ، وأنجبوا هم بدورهم أطفالا ؛ فكان أن أصبحت الإنجليزية لهؤلاء الأفراد من الجيل الثالث من المهاجرين ، لغة البيت كما هي لغة المدرسة . ولما كان الوالدان قد تزوجا بعد تلقى تعليمهما في الولايات المتحدة ، فقد يكون أحدهما منحدرا من أصل غير إيطالي - كما هو الغالب - فتصبح الإنجليزية « اللغة المشتركة » التي يتحدث بها الأب والأم ، فيما بينهما . وهكذا ترى الأطفال المولودين أمريكيين من والدين يتحدثان لغتين يجهلون لغة الجدّين الأصلية وهي اللغة الإيطالية ؛ وفوق هذا فإنهم لا يجيدون لاستعمالها مجالا ، إذ ما هو الداعي إلى تكليف أنفسهم عناء تعلم لغة أجنبية ، تفصح عن أصلهم غير الأمريكي ؛ وهم حريصون على أن ينقلوا من هذا الأصل ويسدلوا عليه ستار للنسيان ؟

وهكذا وجد الجدّان أن ليس في وسعهما إغراء أحفادهما بالتحدّث معهما باللغة الوحيدة التي في مكنتهما التحدّث بها في يسر وسهولة ، وبذلك يجابهان بغتة - في غضون شيخوختهما - ذلك المصير المفجع وهو عجزهما عن إقامة أى نوع من الاتصال الإنسانى مع ذراريهم أنفسهم : وهذا مصير لا يمكن أن يحتمله الإيطاليون وغيرهم من الأوروبيين سكان القارة - غير الناطقين بالإنجليزية - الذين تقوى لديهم نزعة التكافل العائلى . فأصبح لديهم للمرة الأولى في حياتهم ، حافز يدفعهم للتمكّن من لغة البلد الذى استوطنوه ، تلك اللغة التي لم يكن وقتذاك ثمة ما يغريهم على تعلمها . فكان أن تقدّموا إلى في العام الماضى طالبين مدّ يد المساعدة إليهم . وكنت نواقاً بالطبع إلى تنظيم فصول خاصة لهم : ورغماً عما هو معروف من صعوبة مشكلة تعلم لغة أجنبية كلما تقدم العمر بالإنسان ، ففي استطاعتى التأكيد بأن فصول اللغة الإنجليزية التي افتتحت لتعليم الأجداد ، تعتبر من أكثر الأعمال نجاحاً من بين الأعمال التي اضطلعت بها إدارتنا .

تبدى قصة « طروادة » الأمريكية هذه ، كيف تستطيع سلسلة تتألف من ثلاثة أجيال أن تحقق عن طريق التأثير التجميعى لحلقتين متتابعتين ، تحوّلًا اجتماعيًا لا يستطيع تحقيقه أبناء جيل بمفرده في غضون حياته وحدها . وليس في المستطاع تحليل العملية التي بمقتضاها حوّلت أسرة إيطالية نفسها إلى أسرة أمريكية ؛ أو وصفها تحليلًا أو وصفًا واضحًا على أساس حياة فرد واحد . فاقم اقتضى الأمر تفاعلًا بين ثلاثة أجيال للوصول إلى هذه النتيجة .

وعندما تنتقل من التحول في مجال الجنسية - إلى التحول في مجال الدين والطبقة - نجد بالمثل ، أن الأسرة - لا الفرد - هي وحدها الوحدة التي يمكن اكتناها فاعليتها .

ففى إنجلترا الحديثة على أيام الوعى الطبقي فى إنجلترا هذه التى كانت فى سنة ١٩٥٢ تتحلل سريعا تحت بصر كاتب هذه الدراسة ؛ كان تحول أسرة تنحدر من أسلاف من الطبقة العاملة أو من الطبقة الوسطى السفلى إلى « كرام » القوم يستغرق فى العادة ثلاثة أجيال .

وفى مجال الدين ؛ يبدو أن معدل طول الموجة ، كان كذلك ثلاثة أجيال .
ففى تاريخ استئصال الوثنية فى العالم الرومانى ؛ جاء الإمبراطور ثيوديسيوس الأول Theodosius — المسيحى المولد والشديد التدين إلى حد التعصب — بعد قسطنطين الأول الذى نشأ وثنيا ثم تنصّر . لكنه لم يأت بعده مباشرة فى الجليل التالى ، ولكن فى الجليل الذى تلا ذلك . وفى تاريخ القضاء على البروتستانتية من فرنسا خلال القرن السابع عشر ؛ كان ثمة نفس الفاصلة بين لويس الرابع عشر الكاثولىكى المولد والشديد التدين إلى حد التعصب ، وبين جدّه هنرى الرابع الذى كان قبله من أتباع مذهب كالفينى . وقد تطلبت عملية التحول فى فرنسا فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ؛ نفس العدد من الأجيال ، لإنتاج كاثوليكين أصلاء متدينين ، أحقاد أفراد الطبقة البورجوازية المتوسطة المتنصرين رسميا فقط والذين كانوا فيما مضى يدينون باللاأدرية أو الإلحاد . ثم عادوا إلى الكاثوليكية ؛ لأن الكنيسة قد أصبحت تعنى بالنسبة لهم قيمة جديدة كنظام تقليدى يمكن استخدامه كسند منيع ضد موجة الاشتراكية العارمة ، وغيرها من الأيديولوجيات التى كانت تهدد بمحو التفاوت الاقتصادى بين البورجوازية والطبقة العاملة .

كذلك اقتضى الأمر فى العالم السورى — فى عهد الخلفاء الأمويين — ثلاثة أجيال حتى يتكون مسلمون مخلصون متدينون أصلاء ؛ من بين ذرارى الأجداد من ذوى الأصل ، وحتى يتكون المسيحى أو المجوسى الذين اعتنقوا الإسلام تقريبا إلى الطبقة العربية الإسلامية الأصلية الحاكمة . وكانت مدة حكم الدولة الأموية — التى نافحت عن سيادة العرب — هى نفسها تلك الأجيال الثلاثة

التي اقتضاها ظهور أولئك الأحفاد المسلمى المولد للمؤمنين الأول ، على مسرح التاريخ . ثم دالت دولة الأمويين أنصار السيادة العربية ، وتلاهم في الحكم العباسيون الذين نادوا بالمساواة بين المسلمين : وكان ذلك عند ما حاول الأحفاد المسلمون المؤمنون لأولئك الذين اعتنقوا الإسلام — عندما حاولوا باسم العقيدة الإسلامية — الاتفاق مع الأحفاد المسلمين — الخراسانيين — لأولئك المسلمين العرب الأولين الذين فتحوا خراسان :

وإذا كان قد ثبت أن تعاقب أجيال ثلاثة هو — كما سلف — الوسيلة النفسانية العادية للتغيير الاجتماعى فى ميادين ثلاثة هى : الدين والطبقة والقومية ؛ فليس من المستغرب أن نرى تعاقب أربعة أجيال ، يؤدى دورا مشابها فى ميدان السياسة الدولية :

فلقد وجدنا بالفعل — فى مجال التلاقى بين الحضارات — أن الفترة الزمنية بين قيام طبقة مثقفة ثم تمردها على صانعيها ؛ يبلغ طولها حوالى ١٣٧ سنة فى المتوسط . وقد تحققنا من ذلك ، فى مجموعه من ثلاثة أو أربعة أمثلة . وليس من العسير أن نرى كيف أن تعاقب أربعة أجيال ، قد يحدد كذلك طول موجة دورة الحرب والسلم : وذلك إن سلمنا بأن أوجاع حرب عامة تحدث أثراً عميقاً فى النفس البشرية ، أشد مما تحدثه بها دورة معتدلة — نسبياً — من الحروب الجانبية :

على أنه إذا ما طبقنا هذه النظرة على دورات الحرب والسلم فى أوروبا الغربية الحديثة ، لاصطدمنا بعقبة كأداء . إذ نجد أن إحدى تلك الحروب الجانبية — وهى حرب الثلاثين عاماً — رغم أنها اقتصررت من الناحية الجغرافية على أوروبا الوسطى ، وربما كانت فى نطاق مجالها الجغرافى الضيق أشد — وليست أقل — تدميراً من الحروب ، العامة « التى سبقتها ، والتى أعقبها :

ولست دورة الحرب والسلم هذه بآخر الدورات والمعاودات المنتظمة ،
الحقيقية في الظاهر (وإن لم تكن صحيحة) التي يتعين علينا إيجاد تفسير لها ،
كما أنها ليست أطولها : فإن كلا من هذه الدورات التي تستغرق مائة سنة
أو ما في حكمها ، ما هي إلا حلقة في سلسلة توالف في مجموعها ما سبق أن
أطلقنا عليه « عصر اضطراب » يتلو إنهار حضارة ما ، ويستمر بدوره كما
حدث في التاريخين الهليني والصيني - مثلاً - حتى يكون دولة عالمية ، تقدم
هي الأخرى نفس الإيقاعات التي سبق أن لاحظناها .

إن العملية بأسرها من بدايتها إلى نهايتها تستغرق - بصفة عامة -
فترة تتراوح بين ثمانمئة سنة وألف سنة .

فهل يُجدينا هذا التفسير النفساني للدورات المنتظمة في الشئون البشرية ،
وهو التفسير الذي أفادنا حتى اليوم بما فيه الكفاية ؟

ستكون إجابتنا بالنفي ؛ لو كان المظهر العقلي والإرادة البشرية هما -
في نظرنا - قوام النفس البشرية بأسرها .

وفي العالم الغربي - في الجيل الذي عاش فيه كاتب هذه الدراسة -
كان علم النفس ما يزال في طفولته ؛ لكن رواد هذا العلم ، كانوا قد
بدأوا إرتياد آفاقه ؛ بحيث مكّنوا ك . ج . يونج^(١) من القول بأن
لُجّة اللاشعور التي يطفو على سطحها العقل الواعي والإرادة الواعية لكل
شخص ؛ ليست خليطاً غير مميز المعالم ، بل إنها عالم مترابط ، يمكن أن
تميز فيه طبقة من النشاط النفساني تحت أخرى . وبدا أن أقرب طبقة إلى
السطح ، هي « لاشعور شخصي » أودعته تجارب الشخصية الفردية في مجرى

(١) كارل جوستاف يونج (ولد عام ١٨٧٦) : عالم نفساني سويسري وأخصائي في
العلاج النفسي Psychotherapy . وقد تعاون مع فرويد العلامة النفساني الذائع الصيت في
تطوير نظام تحليل العمليات الذهنية المعروفة باسم « التحليل النفسي » . لكن انقسم تعاون العالمين
بسبب اختلافهما في الرأي . فعاد يونج إلى زيورخ لينشئ مدرسة للطب النفساني . (المترجم)

حياة الفرد : رجلا كان أم امرأة ، حتى اليوم الذى يعيش فيه : كما انضح أن أعمق طبقة بلغها رواد النفس ؛ هى لاشعور عنصري لا ينحصر فردا بذاته ، لكنه مشاع بين جميع الكائنات البشرية . على نحو ما تعكس الصور الأولى الكامنة فى اللاشعور ؛ تجارب البشر مجتمعين ، ترسبت فى أعماق النفس البشرية ، إبان طفولة الجنس البشرى ؛ بل ربما خلال مرحلة سبقت اكتمال الإنسان بشرا سويا .

وعلى هذا الأساس ؛ لربما لا يخاف العقل ، تصوّر أنه ما بين طبقتى العقل الباطن (اللاشعور) العليا والدنيا اللتين وفّق علماء الغرب - حتى الآن - إلى اكتشافهما ودراستهما ، قد توجد بينهما طبقات وسطى لم ترسبها التجربة العضوية ولا التجربة الشخصية . لكن رَسَبَتْها تجربة جماعة تعلو فوق مستوى الشخص ، لكنها لا تصل إلى مستوى العنصر ؛ فلقد تكون هناك طبقات من التجربة ؛ مشتركة : لأسرة ما ، أو جماعة ما ، أو مجتمع ما . وإذا ثبت أنه يوجد فى المستوى التالى فوق « الصور الذهنية الأولى » التى تمتّ إلى الجنس البشرى بأسره ؛ صور ذهنية تعبّر عن كيف^(١) معين لمجتمع معين ؛ فلربما كان انطباع هذه الصور فى النفس ، هو السبب فى طول المدد التى قد اقتضتها طائفة من عمليات التحوّل الاجتماعى حتى يتم مفعولها .

ومن قبيل المثال ؛ إن إحدى هذه الصور الاجتماعية التى وضح انطباعها - بعمق - فى الحياة النفسية الباطنة لأطفال حضارة فى طور النمو : إن هذه الصورة كانت هذا الوثن الذى يُدعى الدولة الإقليمية ذات السيادة . ويمكن - توا - أن يُتصوّر أنه حتى بعد إن بدأ هذا الوثن يفرض على عبّاده تقديم قرابين بشرية بلغت فى بشاعتها ما كان

(١) الكيف Ethos : فى الأخلاق أو الأدب أو الاجتماع . (المترجم)

يؤديه القرطاجنيون إلى إلههم بعل عمون^(١) أو ما كان يقدمه البنغاليون إلى يواجرنوت Juagernant^(٢). فإن ضحايا هذا الشيطان الذي استحضروه هم أنفسهم ؛ إنما كانوا في حاجة إلى هذه التجربة المرة - لا تجربة فترة حياة فرد واحد - بل ولا تجربة دورات متعاقبة من ثلاثة أجيال ؛ ولكن تجربة دامت فترة لا تقل عن لأربعمائة سنة ، حتى استطاع هؤلاء الضحايا ، إقتلاع عبادة هذا الوثن الخبيث من قلوبهم واطراحه بعيداً عنها . بل إنه من الممكن أن نتصور أنهم قد احتاجوا لا إلى أربعمائة سنة فقط ، بل إلى ثمانمئة أو ألف سنة حتى يخلصوا أنفسهم تماماً من كل

(١) بعل : المعبود المذكر الرئيسي للأمتين الفينيقية والكنعانية . وقد بدأت عبادة « بعل » كإله للشمس ، لكن عابدوه جعلوا منه الإله الأعظم مدبر الكون ومسير المخلوقات . وانحصرت طقوسه في بداية الأمر في عبادته على الجبال وخاصة جبل سيناء حيث كان يجتمع أهل مدين . وكان بعل هو جانب الخير في عبادة القوم بينما كان الصنم « مولوخ » جانب الشر . وعلى توالى الأيام اتحد رب الخير « بعل » مع رب الشر « مولوخ » . في إله واحد دعاه القوم « ملكارت » الذي غدا معبود الفينيقين الرئيس . ويدخل اسم بعل في كثير من الأسماء الفينيقية خاصة والسامية عامة : يزبعل (إيزابيل) وهى بعل (هنيبال) . . الخ (المترجم)

(٢) يواجرنوت أو بوري Puri : مدينة على شاطئ أوريسا في البنغال بالهند . وهى من أهم أماكن الهند المقدسة . وتشتهر بوجود صن ذهبى للبوذا . كما أن بها معبداً يضم صنماً للرب الهندوكى فيشنو (ويشغل المكان الثانى في التثليث الهندى : براهما - فيشنو - شيفا) ويقوم فيشنو بدور الإله الحافظ . ويطلق على هذا الصنم اسم يواجاناث Jugannath (أى سيد العالم) . وتقام سنوياً طائفة من الاحتفالات تكريماً له وتستمر عدة أيام . ويحج إليه الكثيرون ؛ ويموت عدد كبير من الحجاج في طريقهم إلى مكان الاحتفالات وفى أثناءها ، الأمر الذى دفع الكهنة إلى ترويض فكرة أن الميت خلال الاحتفالات ينعم بالأجر الأخرى والشواب الإلهى . فكان أن راجت الفكرة وأصبح المتحمسون من عبادة الصنم يضحون بأنفسهم إلتزاماً للمثوبة والأجر . على أن هذه العادة فى طريقها إلى الزوال بفضل تدخل الحكومة الهندية وتماطم الوعى الاجتماعى (المترجم)

جهاز الحضارة ، التي أبرز عصر الاضطرابات لإنهيارها وتحللها ؛ ولتفتتح قلوبهم لتلقى طابع مجتمع آخر من نفس النوع الحضارى ، أو من نوع حضارى يخالفها ، مما تمثله البيانات الأعلى مرتبة . ذلك لأنه يحتمل أن الصورة الذهنية للحضارة ما قد تكون أشد جاذبية للعقل الباطن ، من الصورة الذهنية لأية دولة من الدول الإقليمية التي قد تترابط فيها الحضارات على الصعيد السياسى ؛ ما لم - وإلى أن - تنخرط تلك الدول فى نهاية المطاف فى دولة عالمية .

وفى وسعنا بالمثل ؛ إدراك كيف أن الدولة العالمية - وقد تألفت من عدة دول إقليمية - قد تنجح بدورها فى بعض الأحيان - بعد توطيد دعائمها - فى استبقاء سلطانها على رعاياها السابقين . بل قد توفق فى المحافظة على إعتبارها فى قلوب أولئك الذين تولوا تقويض دعائمها ؛ وذلك لعدة أجيال - بل لعدة قرون - بعد أن فقدت أسباب نفعها وقوتها ، وغدت كابوساً ثقیل الاحتمال ، مثلما كانت الدول الإقليمية التى سبقتها ، والتى أقيمت الدولة العالمية لتصفيتها .

« إن العلاقة بين المصوم الخارجية التى يحس بها ممثلو جيل بلغ أشده ؛ وهى مخاوف تنكيف - مباشرة - بالوضع الاجتماعى للناس الذين يحسون بها . إن العلاقة بين هذه المصوم الخارجية وبين الداخلية - التى تعمل عملها بطريقة آلية الناس من أبناء الجيل الصاعد - هذه العلاقة ؛ هى بلا جدال ، ظاهرة ذات أهمية على نطاق واسع إن الطابع الذى يضعه ركّس الأجيال المتعاقبة على كل من نمو الفرد نفسانياً ، ويجرى التحول التاريخى ؛ هو شىء لن نبدأ فى تفهّمه بأكثر دقة مما هو حاصل فى الوقت الحاضر ، إلا عندما نصبح أقدر - مما نحن عليه حالياً - على

تسجيل ملاحظتنا وإعمال تفكيرنا التاريخي على أساس حقب طويلة من الأجيال» (١) ،

وإذا كانت القوانين الاجتماعية التي توتر في تواريخ الحضارات هي حقاً ، إنعكاسات للقوانين النفسانية التي تنظم طبقة من العقل الباطن واقعة أسفل الطبقة الشخصية ؛ فلا بد وأن هذه الظاهرة تفسر لنا أيضاً لماذا يجب أن تكون هذه القوانين الاجتماعية — كما هي فعلاً — أكثر وضوحاً بكثير ، وأعظم دقة في إنظامها في طور الانحلال ، من تاريخ الحضارة المهيمنة ؛ منها في طور نموها السالف .

ورغماً عن إمكان تحليل طور النمو — وكذلك طور الانحلال — إلى سلسلة من نوبات التحدى والاستجابة ؛ فلقد ألفينا أنه من المحال تعيين أى معدل لطول الموجة يكون مشتركاً بين النوبات المتعاقبة التي يحدث النمو الاجتماعي في خلالها . ولم نحالفنا التوفيق ؛ في قياس الفترات الفاصلة بين عروض التحديات المتعاقبة ، أو الفاصلة بين صدور الاستجابات الفعلية المتعاقبة ؛ كما تبين لنا أن هذه التحديات المتعاقبة — وهذه الاستجابات المتعاقبة — متباعدة في طور النمو إلى غير حد . وعلى النقيض ؛ تتسم المراحل المتتالية لطور الانحلال ، بمظاهر متكررة لتحد مطابق يواصل معاوداته بسبب عجز المجتمع المنحل عن مواجهته . كذلك تبين لنا أثناء بحث جميع حالات الانحلال الاجتماعي الماضية التي استعرضناها : إن نفس المراحل المتعاقبة تتوالى بنفس النظام بصورة لا تتغير ، وأن كل مرحلة تدوم — على وجه التقريب — نفس الفترة الزمنية بحيث يقدم طور الانحلال — في مجموعه — صورة عملية مطردة الحدوث تستغرق نفس المدة في كل حالة .

(١) صفحة ١٥١ : Elias, N. Über den Prozess der Zivilisation, voll II Wandlungen der Gesellschaft : Entwurf zu einer Theorie der Zivilisation (Basel 1939, Hans Zum Falken).

وفي الواقع : بمجرد حدوث إسهيار إجتماعي ، فإن النزعة صوب التنوع والتباين - وهي سمة طور النمو - تختفي وتحل مكانها نزعة نحو التماثل . وتسفر النزعة الأخيرة عن قوتها ، بانتصارها - إن عاجلاً أم آجلاً - على التدخل الوافد من الخارج ، وعلى المقاومة المنبعثة من الداخل .

ومن قبيل المثال : لاحظنا كيف أنه عندما إختزلت - قبل الأوان - الحضارة الهلينية الداخلية حياة الدولة العالمية السورية ثم حياة الدولة العالمية السندية - قبلما تستكمل كل منهما الدورة العادية لحياة الدولة العالمية - لم يستطع المجتمع المتردئ المغموّر أن يزول - أو أنه لم يُرد ذلك - إلا بعد ما استكمل في الوقت المناسب وبالرغم من أثر عامل إضطراب متمثل في نظام إجتماعي غريب ، السبيل الرتيب الذي يسلكه المجتمع النهار في غمار الانحلال . وقد تم ذلك عن طريق عودة ذلك المجتمع إلى الدخول في الطور الذي انقطع ، وإنظامه في نطاق دولة عالمية عاودت الظهور ، إلى أن تمت قصة عمره العادي .

هذا التباين الملحوظ بين إنتظام ظواهر الانحلال الإجتماعي وإطرادها ، وبين عدم إنتظام ظواهر النمو الإجتماعي وتباينها : قد سُجِّل مراراً في هذه الدراسة كحقيقة تاريخية ثابتة ، دون أن تُبدل لغاية الآن أية محاولة لتعليل دوافعها . وفي هذا القسم من الدراسة الذي يُعنى ببحث العلاقة بين القانون والحرية في شؤون البشر ؛ يقع على عاتقنا واجب دراسة هذه المشكلة . ولعلنا نستطيع الاهتداء إلى مفتاح لحل المشكلة ، في الاختلاف بين الطبائع الخاصة بالشخصية الواعية على سطح النفس ، وبين طبقات العقل الباطن للحياة النفسية التي تختفي وراءها :

وتمثل القدرة المميزة التي تنعم بها نعمة الوعي ، في ممارسة «حرية الاختيار» : فإذا ما أُخذ في الاعتبار أن الحرية النسبية هي إحدى خواص طور النمو ، فلا بد أن نتوقع أنه ، ما دامت للكائنات البشرية - في مثل

عنده الظروف — حرية تحديد مستقبلها ؛ فلا بد أن يكون طريق العناد — كما يبدو في الظاهر — هو الطريق الذى تسلكه : والعناد هو طريق التمرد على حكم « قوانين الطبيعة » . وحكم الذى يلجم « قوانين الطبيعة » ، هو — مع ذلك — غير دائم ، لأنه يتوقف على توفر شرطين صارمين :

الشرط الأول — ضرورة توصل الشخصية الواعية إلى إخضاع العالم الحفى الكامن فى العقل الباطن ، لسلطان الإرادة والعقل .

الشرط الثانى — ضرورة محاولة تلك الشخصية الواعية ، أن تعيش — جنبا إلى جنب — فى وحدة مع الشخصيات الواعية الأخرى ؛ التى يتعين عليها أن تبقى معها — وفقا لوضع أو لآخر — فى الحياة الفانية للإنسان العاقل . والإنسان العاقل ؛ كان حيوانا اجتماعيا قبل أن يغدو كائنا بشريا ، كما كان جهازاً جنسياً ، قبل أن يصبح حيواناً اجتماعيا .

ولا يتأتى فصل هذين الشرطين اللازمين لممارسة الحرية ، أحدهما عن الآخر . ذلك لأنه إذا صحَّ القول بأنه « عندما يسقط الأوغاد ، يظهر الشرفاء » ، فلا يقل عن ذلك صدقا أنه عندما يتشاجر الأشخاص ، يفلت زمام حالات النفس اللاشعورية من سيطرتهم كأفراد وجماعات .

وصفوة القول ؛ فإن نعمة الإدراك الواعى — ومناطق رسالته تحرير الروح الإنسانية من ربة « قوانين الطبيعة » التى تهيمن على لُجّة النفس اللاشعورية — كفيلة بإلحاق الهزيمة بذاتها ، بإساءتها إستخدام الحرية التى هى سبب وجودها ؛ كسلاح فى الصراع الناشب بين أخوين . ويكون بناء النفس البشرية وحركتها ، هما السبب فى هذا الانحراف المفجع . وذلك دون حاجة إلى اللجوء لاقتباس الفرض الملحد الذى ذهب إليه « بوسيه Bossuet » ، عن مداخلات خاصة يقوم بها إله قادر على كل شئ — لكنه حقود — للتحقق من أن إرادات البشر سوف تنتهى إلى العجز ، إذ يححو بعضها بعضاً .

(٣) هل قوانين الطبيعة الجارية في التاريخ : حاسمة ، أو يمكن السيطرة عليها ؟

إذا كان استعراضنا الآنف الذكر قد أقنعنا بأن شئون البشر خاضعة لقوانين الطبيعة ، وأنه يمكن تفسير سريان هذه القوانين في هذا المجال — إلى حد ما على الأقل — فعماسانا نستطيع الآن أن نمضى قُدُماً لنستقصى ما إذا كانت قوانين الطبيعة الجارية في التاريخ البشرى حاسمة لاتلين ، أو يمكن السيطرة عليها . فإن التزمنا هنا الطريقة التى اتبعناها حتى الآن ، بتقديم بحث القوانين غير البشرية فى طبيعتها ؛ قبل أن ندفع بقوانين الطبيعة ذات الطابع البشرى إلى مجال البحث : سنجد أنه فيما يتصل بالقوانين ذات الطبيعة غير البشرية ، قد أجبنا عن السؤال فعلا فى الفصل السابق .

ومناطق الإجابة ؛ هو بالاختصار ، أنه وإن كان الإنسان عاجزاً عن تعديل أحكام أى قانون ذى طبيعة غير بشرية أو وقف سريانه ، إلا أن فى وسعه التأثير فى مجال هذه القوانين ، عن طريق توجيه سيره على خطوط تجعل هذه القوانين تعمل فى سبيل خدمة أغراضه الخاصة . ذلك هو ما عناه « الشاعر » الذى سبق الاستشهاد بشعره — إذ قال :

عند ما يكشف العلماء عن شىء أعظم .

سنكون أسعد حالاً من ذى قبل .

وإن توفيق أهل الغرب فى تعديل مجال تطبيق القوانين ذات الطبيعة غير البشرية على شئونه ؛ قد ظهر أثره على شكل تخفيضات تجربها شركات التأمين على معدلات أقساط التأمين . إذ ترتب على التحسينات التى أدخات على الخرائط البيانية — وما تلاها من تزويد السفن بأجهزة اللاسلكى والرادار ، التقليل من خطر غرق السفن : وانبئى على استخدام بوتقات الدخان فى

كاليفورنيا الجنوبية والستائر الشفافة في وادى كونيتيكت كوت Connecticut ،
 لتقليل من خطر التلف الذى يحدثه الصقيع بالمحاصيل . وأدى ابتكار القلاح
 والرش والغمر فى سواحل المبيدات الحشرية ، إلى خفض خطر إصابة المحاصيل
 والأشجار وقطعان الماشية بالضرر بفعل الحشرات . والمثل يقال عن
 « الكائنات البشرية » ؛ فإن استخدام وسائل الوقاية المختلفة ، قد أنقست
 مجال المرض وأطالت فرص الحياة .

وإذ ننتقل إلى حيز القوانين ذات الطابع البشرى ؛ تطالعنا نفس القصة
 تُروى - نوعاً ما - بنبرات صوتية أشد تلجلجاً . فإن خطر الحوادث على
 اختلاف أنواعها ، قد اختزلها ما طرأ على التعليم والتأديب من تقدم وتحسن .
 فلقد وُجد أن خطر حوادث السطو يتغير بالزيادة أو النقصان ، بتغير ظروف
 البيئة الاجتماعية التى نشأ فيها قطاع الطرق . فأصبح هذا الخطر يتأثر إذن بتدابير
 الإصلاح الإجتماعى .

فإذا ما أقبلنا على بحث تلك المظاهر المتعاقبة لمد وجزر النشاط الاقتصادى
 الغربى التى أُطلق عليها اسم « الدورات الاقتصادية » ؛ وجدنا أن دارسيها
 الفنيين يرسمون خطأً فاصلاً بين العوامل التى يمكن السيطرة عليها ، وتلك التى
 لا يتأتى التحكم فيها . بل ذهبت إحدى المدارس إلى حد القول بأن هذه
 الدورات راجعة إلى فعل رجال المال عن عمد وإصرار . لكن الأغلبية ترى
 أن دور المالىين أقل بكثير من دور الخيال والشعور اللذين لا تمكن السيطرة
 عليهما ، واللذين يصعدان من طبقات العقل الباطن الدنيا للنفس البشرية .
 وهكذا يبدو أن المثل الذى يدل على الاتجاه الذى كانت تتجه إليه أذهان
 بعض الثقافات العليا فى هذا المجال ، لم يكن هو المثل القائل « فتش عن البنك »
 بل كان المثل الأكثر شيوعاً القائل « فتش عن المرأة » .

« إن أحد الأسباب التى تفسر لماذا يعتبر إنفاق المال فناً متخلفاً بالنسبة
 لكسب المال ؛ هو أن الأسرة لا تزال هى وحدة التنظيم الغالبة لإنفاق المال ؛

أما في مجال كسب المال ، قد حلت محل الأسرة ، وحدة أعظم تنظيمًا . إن ربة البيت التي تقوم بجانب كبير من عملية المشتريات في العالم ، لا تختار في هذا المجال لكفايتها كمديرة عمل ، وهي لا تعزل عن وظيفتها في حالة عدم جدارتها - والفرصة أمامها صغيرة لنشر تأثيرها على ربات الأسر الأخرى - إن ثبتت قدرتها . . . فلا عجب إذن إذا كان ما حذقه العالم من فن الاستهلاك لا يعود إلى المستهلكين ، بقدر ما يعود إلى إقدام المنتجين الذين يكفون للفوز بسوق لسلعهم^(١) .

وتوحى هذه الاعتبارات بأن التقلبات في حجم النشاط الاقتصادي ، قد تظل مستعصية على السيطرة عليها ؛ طالما بقيت وحدات الاستهلاك هي الأسر ، في حين بقيت وحدات الإنتاج في أيدي أفراد أو مؤسسات أو دول ينافس بعضها بعضاً ؛ وتختلف إرادتهم المتنازعة الميدان الاقتصادي مفتوحاً ، تعمل فيه قوى العقل الباطن الكامنة في النفس .

وأما الأسلوب الذي اتبعه النبي العبري يوسف كوزير اقتصاد لفرعون مصر في أواخر أيام المكسوس ، وأدى إلى نجاحه الخارق . ويقوم هذا الأسلوب على تخزين المؤن طوال السنوات السمان لمواجهة السنوات العجاف القادمة . فليس ثمة ما يحول دون إصطناع هذا الأسلوب أخيراً ، في عالم تأثر بالاقتصاد الغربي واتسع حتى شمل الكون بأسره . وليس ثمة من سبب يمنع ظهور « يوسف أمريكي » أو « يوسف روسي » ليضع جماع حياة الإنسان الاقتصادية تحت هيمنة مركزية - خيرة أو مفسدة - تفوق بالتأكيد أشد شطحات الخيالة الموسوية أو الماركسية تهوراً .

(١) صفحتا ١٦٥ و ١٦٦ Mitchell, W.C. : Business Cycles : The Problem and its Setting (New York 1927, National Bureau of Economic Research, Inc.

وإذا ما تحولنا من الدورات الاقتصادية التي لا تستغرق إلا بضعة سنين ؛ إلى دورة تستغرق جيلا ويتراوح طول موجتها بين ربع وثلاث قرن ، لاستطعنا أن نرى أن الضياع الذي يتعرض له أى تراث ثقافى ، قد اختزل على الصعيد المادى بفضل الطباعة والتصوير الفوتوغرافى وغيرهما من الأساليب الفنية . كما اختزل على الصعيد الروحى ، بفضل انتشار التعليم .

إلى هنا ؛ تبدو نتائج بحثنا الحالى مشجعة . لكننا إذ ننتقل إلى العمليات الاجتماعية ذات الموجة البالغة الطول - مثل « الساقية ذات الأنين » التي تدور بين تضاعيف ثمانية أو عشرة قرون من الانهيار والانحلال - نواجه سوألا ما برح يتبدى بإلحاح فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لعدد متزايد من الأذهان فى العالم الغربى ، فى غضون جيل واحد :

فهل هو مقدّر سلفاً على الحضارة الماهرة ، أن تسير فى الطريق الخطأ الذى يقودها حتما صوب النهاية الممّرة ؟

أو هل فى استطاعتها أن تعود أدراجها ؟

ولعل أقوى دافع على للاهتمام الذى ما فتئ معاصرو الكاتب من أهل الغرب يبدونه - دون شك - لدراسة شاملة مجردة لتاريخ الإنسان وهو فى طوره الحضارى ؛ لعل أقوى دافع لذلك ، تلهفهم على تحديد موقفهم التاريخى فى لحظة من تاريخ حضارتهم ، أحسّوا هم أنفسهم بأنها نقطة تحول . وفى غمار هذه الأزمة ؛ أدركت الشعوب الغربية - ولربما الشعب الأمريكى بصفة خاصة - عبء المسؤولية . وإنها إذ تنكفى إلى تجارب الماضى بحثاً وراء ضوء ينير السبيل أمامها ؛ فإنها تعود إلى مصدر الحكمة البشرى الوحيد ، الذى كان دوماً تحت تصرف البشرية :

إلا أن هذه الشعوب ؛ ما كانت لتستطيع العودة إلى التاريخ لينير

أمامها سبيل معرفة ما يجب عليها أن تفعل دون أن تضع نصب عينها
— أولاً — الإجابة على هذا السؤال التمهيدى :

هل أتاح لها التاريخ عهداً بأنها تتألف — حقاً — من عاملين يتصرفون
بمطلق حريتهم ؟

فقد يتضح — بعد — أن درس التاريخ ليس أن اختيار طريق قد يكون
أفضل من اختيار طريق آخر ؛ بل أن إعتقاد هذه الشعوب بحريتها في
الاختيار ، ما هو إلا وهم وسراب ، وأن الزمن الذى كان فيه اختيار المرء
أمراً فعلياً — إن كان هذا الزمن قد وُجد فعلياً — قد مضى وانقضى . وأن
جيل هذه الشعوب قد انتقل من طور : A.A.L. Fisher ل . فيشر
— حيث قد يتبع أى شيء الآخر — إلى عصر عمر الخيام الذى يقول :

إن القضاء لأمر لا يرد وما نصيب ذى الهم إلا السقم والألم
إن تقضى عمرك مهجوم الفؤاد فلن تزيد شيئاً إلى ما خطه القلم^(١)

إن نحن حاولنا الإجابة عن السؤال فى ضوء الدلالة التى تتيحها — حتى
الآن — تواريخ الحضارات ؛ فأحرى بنا أن نقرر بأنه من حالات الانهيار
الأربع عشرة الواضحة ، لن نستطيع أن نشير إلى حالة واحدة أمكن فيها
التخلص من « داء الحرب بين الأخوة » بأية طريقة أقل خشونة ، غير إبادة
جميع الدول نفسها التى شهدت الحرب ، ما خلا واحدة منها .

لكننا إذ نتقبل هذا الكشف الرهيب ، لا يجب أن نسمح لأنفسنا بأن يتركنا
الفتور بسببه ؛ ذلك لأنه معروف عن أسلوب المنطق الاستقرائى أنه
أداة ناقصة لاستطيع إثبات صحة قضية سلبية . وكلما قل عدد الحالات

(١) من ترجمة السيد أحمد الصافى النجفى عن الأصل الفارسى . وهى ترجمة اعتمدها
الحكومة الإيرانية ونشرتها فى مجموعة تضمنت رباعيات الخيام باللغات : الفارسية والعربية
والإنجليزية والفرنسية والألمانية . (المترجم)

موضع البحث ، زاد قصور هذا الأسلوب . ولم تُتم تجربة نحو أربع عشرة حضارة خلال مدة لا تزيد على ستة آلاف سنة ، أية قرينة قوية ضد احتمال أنه استجابة للتحدى الذى هزم هذه الحضارات الرائدة ؛ قد يوفق يوماً ما ممثل آخر لهذا الشكل الجديد - نسبياً - للمجتمع ، إلى فتح طريق ما - ما يزال مجهولاً - أمام تقدم روحى لم يسبق لإليه : ويتم ذلك بفضل كشف تدبير أقل كلفة من فرض دولة عالمية - بالقوة العارمة - كعلاج للداء الاجتماعى المتمثل فى الحرب بين الأخوة .

فإن نحن عدنا بالنظر - وهذا الاحتمال مائل فى أذهاننا - مرة أخرى ؛ إلى تواريخ تلك الحضارات التى وطأت « طريق الآلام »^(١) بطوله كله ، ابتداء من الانهيار إلى الانحلال النهائى ، لاحظنا أن بعضاً منها على الأقل ، قد استشفت حلاً بديلاً فيه خلاص البشرية ؛ حتى ولو لم توفق أية واحدة منها فى تحقيق هذا الحل .

فى العالم الهلنى - مثلاً - خطرت فكرة التجانس فى الحكم أو الوفاق السياسى (الذى قد يحقق ما لا تستطيع القوة إتيانه على الإطلاق) خطرت على بال بضعة نادرة من الهلنيين تحت الضغط الروحى الناجم عن عصر اضطرابات بدأ بإندلاع الحرب الأثينية البلوبونيزية خلال الأعوام من ٤٣١ إلى ٤٠٤ قبل الميلاد . ونفس النظرة المثالية قد تجسدت فى العالم الغربى - خلال حقبة ما بعد الحديثة - فى عصبة الأمم بعد حرب ١٩١٤/١٩١٨ ، ثم فى منظمة الأمم المتحدة بعد حرب ١٩٣٩/١٩٤٥ .

وفى العالم الصينى - خلال أول تعبئة للمجتمع الصينى بعد انهياره - نجد أن حماسة كونفوشيوس لإحياء سنن السلوك والطقوس التقليدية ، وإيمان

(١) طريق الآلام (via dolorosa) - فى الأصل - الطريق الذى سار فيها السيد المسيح عليه السلام حاملاً صليبه من ساعة الحكم عليه فى قصر الحاكم الرومانى إلى « الجلجثة Golgotha » حيث تم صلبه - وفقاً للعقيدة المسيحية . (المترجم)

لاوتسى Lao-Tse المتجرد ، بضرورة ترك المجال حرا أمام الفعل التلقائي لقوى العقل الباطن ؛ إن هذه الحاسة وهذا الإيمان قد أوحى بهما ، حين الوصول إلى ينايع من الشعور قد تطلق قوة من التآلف الروحي تنقذ البشرية . ولقد بُذلت في الصين أكثر من محاولة لتضمين هذه الآراء المثالية في نظم طُبِّقَتْ ؟

وصفوة القول ؛ تمثل هدف البشرية — على الصعيد السياسى — في الاهتداء إلى طريق وسط بين نقيضين عقيمين :

— الصراع الكئيب بين دول إقليمية ؟

— والسلام الكئيب الذى يفرضه توجيه الضربة القاضية ؟

إن جزاء النجاح في اجتياز الممر المنيح الذى كان فكاه المتصادمان يحطمان كل سفينة حاولت العبور من بينهما ، قد يكون هو تجربة جماعة أرجونوت Argonauts^(١) الأسطورية التى أدت بهم إلى اكتشاف بحر واسع لم يطرقه أى بشر من قبل . على أنه كان من الواضح أنه ما كان ليتأتى لأية وثيقة طلمسية متضمنة دستورا اتحاديا ، أن تحقق هذه النتيجة :

فما كان في وسع أعظم التنظيمات السياسية مهارة — إذ يطبق على الكيان الاجتماعى — أن يقوم بأية حال من الأحوال ، مقام الخلاص الروحى للنفوس . وما كانت الأسباب القريبة للانهياب — في حروب الدول أو في الصراع بين الطبقات — بأكثر من أعراض للسقم الروحانى . ومنذ أمد بعيد ؛ أثبتت حصيلة ثرية من التجارب ، عقم النظم في إنقاذ النفوس المتمردة من زج نفسها — وبعضها بعضا — في غمار الأسى .

(١) أرجونوت Argonaut : أبطال أسطوريون كان زعيمهم جاسون Jason . وقد اندفعوا في سفينة تدعى أرجو Argo للبحث عن الديهين الذهبى — وجاسون بطل يونانى أسطورى طرده أخوه بيلاس Pellas من مملكته وأحب التخلص منه فأرسله إلى مكان قصه للبحث عن كنز ذهبى . (المترجم)

وإذا كانت مصائر الإنسان الذى يسلك طريق الحضارة - وهو فى خضم تسلقه الشاق حافة صخرة منتصبه نحو قمة عالية ، عسيرة المثال لا يدركها البصر ؛ إذا كان من الواضح أن مصائره تتوقف على قدرته على أن يسترد سيطرته على هذه الهوة ، فلا يقل عن ذلك وضوحاً ، أن هذه المسألة تتوقف على مسلك الإنسان فى علاقاته مع سواه من البشر لا مع نفسه فحسب ، بل أيضاً وفوق كل شيء ، مع مسلك الإنسان فى علاقاته مع الله مخلصه^(١) .

(١) يعود المؤلف هنا إلى تشبيه المجتمعات البدائية بأناس راكدين حاملين على سلسلة مضمورة تقع على جانب جبل - وتحتمهم هوة وفوقهم أخرى - وتشبيه الحضارات برفقاء لمؤلاء المهاجرين استيقظوا ثم نهضوا واقفين وشرعوا فى تسلق الجبل فوقهم . وتختلف ظروف المتسلقين فى النجاح (انظر صفحتى ٨٤ و ٨٥ من الجزء الأول من هذه الترجمة) . (المترجم)

الفصل السابع والثلاثون

تمرد الطبيعة البشرية على قوانين الطبيعة

من شأن مثل هذه الشواهد التي جمعناها عن قدرة الإنسان على السيطرة على شئونه الخاصة — سواء بمداورة قوانين الطبيعة أو بتسخيرها لخدمته — من شأن هذه الشواهد أن تثير السؤال : هل توجد ثمة ظروف لا تخضع فيها شئون البشر — مطلقاً — لقوانين الطبيعة .

وعسانا نبدأ استقصاءنا هذا الاحتمال ببحث معدل التغير الاجتماعي : فإذا ثبت أن هذا المعدل متغير ، لكان هذا دليلاً — إلى المدى الذي يذهب إليه — على أن شئون البشر لا تخضع لقوانين الطبيعة ؛ في البعد الزماني على الأقل .

وإن ثبت — فعلاً — أن المعدل الزمني في التاريخ ثابت في جميع الظروف — بمعنى أنه إذا أمكن بيان أن كل عقد^(١) أو قرن يولد قدرأ ثابتاً محدداً ومطردأ من التغير السيكولوجي والاجتماعي — ينبئ على ذلك أنه إذا علمنا معدل التغير في السلسلة السيكولوجية والاجتماعية (أو المعدل الزمني في السلسلة الزمنية) لتيسر لنا حساب مقدار المعدل المقابل المجهول في السلسلة الأخرى .

ولقد اصطنع هذا الفرض ؛ أحد الباحثين ، الممتازين في التاريخ المصري ، أعرض عن اتخاذ التاريخ الزمني الذي يحدده علم الفلك . وكانت حجته في هذا الفرض ؛ أن الموافقة على صحة هذا التاريخ معناها التسليم بصحة قضية غير مستساغة في نظره ، مدارها أن معدل التغير الاجتماعي في العالم المصري ، كان لابد أن يكون أسرع بكثير خلال فترة طولها مائتا سنة

(١) العقد : عشر سنوات .

عما كان عليه هذا المعدل خلال المائتي عام السابقة لها مباشرة : ومع ذلك ففي الإمكان إيراد حشد من الأمثلة الشائعة للدلالة على أن القضية التي أجفل عنها هذا الباحث الكبير في المصريات ، هي في الواقع قضية تاريخية مسلم بها .

فن قبيل المثال :

نعرف أن البارثينون Parathenon^(١) في أثينا قد شُيد خلال القرن الخامس قبل الميلاد ، وأن معبد هادريان شُيد خلال القرن الثاني بعد الميلاد ، وأن كنيسة القديسة صوفيا بنيت بالقسطنطينية خلال القرن السادس بعد الميلاد ؛ فصدافاً للمبدأ الذي ارتكز عليه عالمنا الأثري ؛ كان لا بد وأن يكون هناك فاصل زمني أقصر بكثير بين تاريخ تشييد كل من البنائين الأول والثاني - وقد شُيد كل منهما بنفس الطراز المعماري تقريباً - وبين تشييد البنائين الثاني والثالث ، اللذين يختلف كل منهما عن الآخر اختلافاً بينا من حيث الطراز المعماري .

ولكن هذه التواريخ المؤكدة الثابتة القاطعة ؛ تظهر لنا - هنا - بأن أقصر الفاصلين في هذه الحالة ، كان بين البنائين اللذين يتباين طرازهما المعماري .

كذلك ؛ قد نضل الطريق ، إذا بدا لنا أن نضع ثقتنا في نفس المبدأ النظري المسلم به سلفاً ؛ في محاولة لتقدير الفواصل الزمنية « النسبية » الواقعة بين عتاد الجندی الروماني إبان الأيام الأخيرة للإمبراطورية الرومانية في الغرب ، وبين عتاد جندی ساكسوني في جيش أوتو الأول Otto I إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة : وبين عتاد فارس نورماندي مرسوم على طنفسية

(١) البارثينون : معبد قديم في أثينا شُيد على الأكروبول . (المترجم)

« بايو Bayeux »^(١) . ولما كانت الدروع المستديرة وخوذات المصارع المربعة الحافة ذات القنّة التي تجهز بها جنود « أوتو Otto » ؛ هي مجرد تعديلات طفيفة على أساس عتاد جنود ماجوريان Majorian الإمبراطور الروماني المتأخر ، في حين أن جنود وليم الفاتح زوّدوا بخوذات مخروطية سرمائية^(٢) وصدرات محرشفة^(٣) على هيئة خطافات : فقد يقودنا هنا — كذلك — فرض ثبات المعدّل الزمني للتغير ، إلى الهروب من مواجهة الوقائع ، بالتخمين بأن الفواصل الزمنية بين أوتو الأول (حكم من ٩٣٦ إلى ٩٧٣ ميلادية) وبين وليم الفاتح (حكم في نورماندى من ١٠٣٥ إلى ١٠٨٧ ميلادية) لابد وإن كانت أكثر طولاً من الفاصل الزمني بين ماجوريان Majorian (حكم من ٤٥٧ إلى ٤٦١ ميلادية) وبين أوتو الأول .

مثال آخر :

إن أى فرد يُلْقَى نظرة إجمالية على اللبس العادى الذى كان يرتديه الرجل المدنى الغربى فى عام ١٧٠٠ ميلادية وفى سنة ١٩٥٠ ميلادية ؛ سبرى — بلمحة — أن السّترّة والصّدرّة والسّروال والمظلة عام ١٩٥٠ ، ما هى إلا مجرد تعديلات طفيفة على السّترّة والصّدرّة والسراويل والسيّف الشائعة جميعاً فى سنة ١٧٠٠ ، وإن كلا اللباسين يختلفان تمام الاختلاف عن الصّدرّة

(١) طَنْفِيَسَة بايو : لغة من الكتان — أطلق عليها اسم طنفسة تجاوزاً وإن أصبح القَبْ علماً تاريخياً عليها — عرضها ٢٠ بوصة وطولها ٢٣١ قدم . وهى ما تزال محفوظة فى دار مطرانية بايو Bayeux فى مقاطعة نورماندى بفرنسا . ومرسوم عليها بخيوط الصوف المونّ ، الأحداث المتصلة بغزو وليم الفاتح إنجلترا وفتحها . ويقال إن زوجته « ماتيلدا » هى التى وضعت تصميمها . وقد احتفظ بها « أودو » شقيق وليم الفاتح ومطران بايو .

(المترجم)

(٢) سارماتيا Sarmatia . كانت قديماً بولندا الحالية وجانباً من روسيا . على أنه المصطلح عليه فى الوقت الحاضر : إطلاق اسم سارماتيا على بولندا قديماً . (المترجم)

(٣) المحرشف : نسبة إلى الحراشف — كحراشف السمك مثلاً . (المترجم)

وجورب الساق الشائعين عام ١٦٠٠ ميلادية . وفى هذه الحالة — وهى على نقيض المثاليين المتقدمين — كان التعبير الذى حدث ، أبعد مدى بكثير فى الفترة الأولى والأقصر ، عنه فى الفترة الثانية الأطول .

وما هذه الأقاصيص المتسمة بالحيلة ؛ إلا تحذير ضد خطر الاعتماد على النظرية القائلة بثبات المعدل الزمنى للتغير ، باعتباره أساساً لمحاولة تقدير الوقت الذى لابد أن تكون الطبقات المتعاقبة من أنقاض المساكن البشرية ، قد استغرقت لتتراكم فى موقع ما ؛ موقع مطلوب لإعادة كتابة تاريخه ، بناء على الأدلة المادية وحدها ، التى تكشف خبيثتها بحرفة عالم الآثار ؛ لعدم توافر البيانات ثابتة التاريخ المدونة فى السجلات المكتوبة .

وعسانا أن نتابع هجومنا الاستهلاكي على هذه النظرية القائلة بثبات معدل التغير الثقافى . وذلك بذكر بضعة أمثلة عن : تعجيل التغير ، أولاً ، ثم عن إبطائه . وأخيراً ، عن تعاقب التعجيل والإبطاء .

فظاهرة الثورة ؛ هى المثال المألوف عن عوامل « التعجيل » . فلماذا — مصداق لما رأيناه فى سياق آخر من هذه الدراسة — حركة اجتماعية تولدت عن تلاقى جماعتين يتصادف أن تكون إحداها متقدمة عن الأخرى فى مجال أو فى آخر من مجالات النشاط البشرى المختلفة . فالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ — مثلاً — كانت فى طورها الأول ؛ مجهوداً « ثقلانيا » للحاق بالتقدم الدستورى الذى حققته بريطانيا فى بطن ، إبان القرنين السابقين . وبقينا ؛ إن الحركة اللبرالية الغربية فى أوروبا ، ألهمت هذا العدد الكبير من الثورات — التى أصيب معظمها بالعقم فى القرن التاسع عشر ، هذه الحركة اللبرالية ، التى أطلق عليها طائفة من المؤرخين اسم « حب تقليد الإنجليز » . (أنجلومانيا) .

وثمة نموذج مألوف « للتعجيل » ، نجده فى سلوك رجال الحدود القاطنين على هامش حضارة ما ، أو فى سلوك البرابرة الذين يقطنون خارج الحضارة بقليل ؛ إذا ما فكروا — جميعاً — بغتة فى اللحاق بحيرانهم الأعظم منهما تقدماً ،

ويذكر كاتب هذه الدراسة - بجلاء - التأثير الذي أحدثته في نفسه زيارة « المتحف النوردى » في إستكهلم عام ١٩١٠ . فإنه بعد أن اجتاز سلسلة من الحجرات تعرض نماذج من الثقافات الإسكندنافية في غضون العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث وعصر البرونز وعصر الحديد السابق للمسيحية ؛ أخذه العجب إذ ألقي نفسه في حجرة تعرض منتجات حرفت فنية إسكندنافية بأسلوب النهضة الإيطالية . وعجب إذ فاتته مشاهدة منتجات العصر الوسيط . فعاد أدراجه حيث وجد - بكل تأكيد - حجرة خاصة بعرض منتجات العصر الوسيط ، لكن كانت محتوياتها لا يؤبه لها . فعندئذ أخذ يدرك أن بلاد إسكندنافيا قد انتقلت - في ومضة - من العصر الحديدي المتأخر الذى بدأت خلاله في إبداع حضارة مميزة خاصة بها ، إلى العصر الحديث المبكر الذى أصبحت فيه شريكا - لا يفرق عن غيره - في ثقافة إيطالية مسيحية غربية ذات معدل واخذ . فكان جزء من ثمن هذا الفعل القذ المتمثل في التعجيل ؛ هو ذلك الإفقار الثقافى الذى يحمل معاملة ذلك المتحف النوردى .

وكما كان الحال في بلاد أسكندنافيا إبان القرن الخامس عشر الميلادى ، كان الحال كذلك بالنسبة لجميع العالم غير الغربى - وإن كان منهمكا في إصطناع الحضارة الغربية - أثناء الجليل الذى عاش فيه الكاتب . فإن من الأمور المألوفة : أن تشاهد الشعوب الإفريقية - مثلاً - وهى تسعى إلى أن تُنجز خلال جيل واحد أو اثنين ، تقدماً سياسياً واجتماعياً وثقافياً استغرق من الشعوب الأوروبية الغربية - التى كان الإفريقيون يحاكونها ويقاومونها في نفس الوقت - ألف سنة أو أكثر . وكانت هذه الشعوب تنزع إلى الإفراط في تقدير مقدار التعجيل الحقيقى الذى أنجزته أفريقيا ؛ بينما كان المشاهد من أهل الغرب ينزع إلى بخس الجهود التى بذلتها أفريقيا في هذا المقام .

وإذا كانت الثورات مظهراً درامياً للتعجيل ؛ فإن ظاهرة الإبطاء يمكن مشاهدتها على شكل إعراض بليد عن مسابقة حركة الجسم الرئيسى ، ويمكن العثور على مثال للإبطاء فى عناد الولايات الجنوبية من اتحاد الولايات الأمريكية فى استبقاء نظام الرق طوال جيل كامل ؛ بعد أن تم إلغاؤه فى جزائر الهند الغربية المجاورة ، وهى جزء من الإمبراطورية البريطانية . وثمة أمثلة أخرى تقدمها جماعات من المستعمرين الذين نزحوا إلى بلاد « جديدة » واحتفظوا فيها بمقاييس كانت شائعة فى أوطانهم الأصلية وقما خلفوها وراءهم ، وظلوا يحتفظون بتلك المقاييس حتى بعد أن نبذها أبناء عمومهم فى الوطن القديم بوقت طويل ، وساروا إلى الأمام قدماً . وهذه حالة مألوفة ؛ ويكفى ذكر : كوبك ومرتفعات الابالاش والترنسفال خلال القرن العشرين الميلادى إذا قورنت بكل من فرنسا والصتر Ulster وهولندا - فى نفس القرون - على التوالي .

وتعرض الصفحات السابقة من هذه الدراسة^(١) أمثلة عديدة عن التعجيل والإبطاء على السواء ، وفى وسع القارئ نفسه استعادتها . وواضح - مثلاً - أن ما دعونا به « المسابقة »^(٢) هو نزعة مماثلة لما أطلقنا عليه « التعجيل » ؛ وإن ما دعونا به « التزمّت »^(٣) ، نزعة مجانسة لما أطلقنا عليه « التأخير » . وواضح كذلك أنه طالما كان التغيير يعنى الاتجاه إلى الأسوأ أو إلى الأفضل ؛ فإن « التعجيل » ليس بالضرورة حسناً ، كما أن « الإبطاء » ليس بالضرورة سيئاً .

وفى وسعنا أن نرى فى التاريخ الغربى الحديث لفنون الملاحظة وبناء

(١) صفحات ٤٢٣ - ٤٣٤ من الجزء الثالث من هذه الترجمة .

(٢) فى الأصل - الهيرودية Herodianism : شعبة يهودية يضرب بها المثل فى الرياء واصطناع الأساليب الانتهازية والطرق المسالمة ، لبلوغ الأهداف . (المترجم)

(٣) فى الأصل - الزيوتية Zealotism : طائفة يهودية اعتنقت مبدأ العنف لتنفيذ أغراضها ، والتزمّت فى معتقداتها الفكرية . (المترجم)

السفن ، سلسلة من التغيرات المتعاقبة في معدلات السرعة . ويجرى هذا التسلسل ، لا بالنسبة لجيلين اثنين ؛ لكنه يشمل ثلاثة أجيال ، ولربما يصل إلى أربعة أجيال . وتبدأ القصة بتعجيل فجائى يقلب الفنون رأساً على عقب خلال فترة الخمسين سنة من ١٤٤٠ إلى ١٤٩٠ ميلادية . وتلا هذا التفجّر ؛ « إبطاء » استمر طوال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر . ولكن تبعه بدوره - بعد هذا التوقف الطويل - تعجيل فجائى آخر استمر طوال الخمسين سنة من ١٨٤٠ إلى ١٨٩٠ ميلادية . وفى عام ١٩٥٢ ؛ كان الطور التالى يتسم بالغموض ، إذ كان ما يزال فى طريق التقدم . على أنه يبدو لعين الرجل غير الفنى ؛ كما لو أن أوجه التقدم التكنولوجى التى أحرزت جانباً كبيراً من الرقى ؛ تبدو - على بروزها - أقصر من أن تبلغ ما بلغته المنجزات الثورية التى تحققت فى نصف القرن الفيكترى :

« خلال القرن الخامس عشر . . . حدث تغير سريع وخطير فى بناء السفن . . . فى مدى خمسين سنة ، تطورت المركب الصالحة للملاحة فى البحار ، من مركب ذات سارية واحدة فأصبحت ذات ثلاث ساريات تحمل خمسة أو ستة أشعة » (١) .

ولم تهىء هذه الثورة التكنولوجية لمبدعها منفذاً إلى جميع أركان العالم فحسب ، بل لأنها هيات لهم كذلك تفوقاً على جميع الملاحين غير الغربيين الذين اصطدموا بهم وتمثلت الميزة الخاصة لهذه السفينة الجديدة ، فى قدرتها على البقاء فى البحر إلى أجل لا يكاد ينتهى تقريباً ، دون أن تحتاج إلى أن ترسو فى ميناء ؛ وقد تفوقت فى هذا على ما تلاها وما سبقها من طرز السفائن ؛ فلقد كانت السفينة - كما سميت خلال فترة مجدها بالسفينة

(١) صفحة ٤٦ : Ships and Men ، J.W. Basseit-Jowke, and G. Holland, (London 1946 Harrap)

المثالية - نتاج تآلف سعيد بين الأساليب التقليدية المختلفة المتصلة ببناء السفن وتجهيزها ؛ وكان لكل منها ميزات خاصة ، لكن كان لكل منها كذلك أوجه التقص الناتجة عن هذه الميزات ؛ فالسفينة الغربية التي ظهرت إلى الوجود خلال الفترة الواقعة بين ١٤٤٠ ميلادية و ١٤٩٠ ميلادية ، قد جمعت بين مزايا السفينة الطويلة التي تسير بالمجاديف ، والتي كانت شائعة زمنا طويلا في البحر المتوسط وعرفت باسم القادس^(١) ؛ وبين مزايا ثلاثة أنواع مختلفة على الأقل من السفن وهي :

١ - السفينة الماخرة عباب البحر المتوسط والمعاصرة للسفينة سالفة الذكر ، وهي سفينة أسطوانية ذات أشعة مربعة ومعروفة باسم « الغليون »^(٢) .

٢ - المركب الشراعى الكبير ذو الأشعة المثلثة الشكل الذى كان يبحر عباب المحيط الهندى وقد رسم سلفه في السجلات المرئية المتعلقة ببعثة مصرية إلى أراضي إفريقيا الشرقية المعروفة ببلاد « بُولت Punt » إبان حكم الإمبراطورة حتشبسوت (١٤٨٦ - ١٤٦٨ ق م) .

٣ - السفينة الضخمة التي كانت تجوب المحيط الأطلسى والتي لفتت نظر يوليوس قيصر عام ٥٦ قبل الميلاد وقما احتل شبه الجزيرة التي أطلق عليها فيما بعد اسم بريتانى Brittany^(٣) .

ولقد استكمل التصميم الجديد - الذى جمع خير مزايا هذه النماذج الأربعة - قبل أن ينتهى القرن الخامس عشر . ومن ثم ؛ لم تختلف في أسمها خير السفن التي مخرت عباب البحار - وقتذاك - عن السفن التي كانت شائعة في عصر نلسون ؛

(١) القادس : galley .

(٢) لغليون : Carrack .

(٣) بريتانى مقاطعة في شمال فرنسا .

وبعد انقضاء ثلاثة قرون ونصف من « الإبطاء » ، ألقى فن بناء السفن الغربي نفسه في بداية مرحلة أخرى من مراحل « التعجيل » . وفي هذه المرة ؛ سار العمل الإبداعي السريع إلى الأمام قُدُماً في اتجاهين متوازيين : فن ناحية - حل المحرك البخارى محل الشراع .

ومن ناحية أخرى اقترن ذلك بصحوة فن بناء السفن الشراعية من رقاذه الطويل . فطور طراز البناء القديم إلى درجة من الكمال ، لم يكن يحلم بها أحد حتى ذلك الوقت . وكان من مقتضاها إحتفاظ السفينة الشراعية - في سبيل طائفة من الأغراض - بقدرتها على الصمود أمام منافسة السفينة البخارية ، خلال فترة التطور البناء في الخمسين عاماً (١٨٤٠ - ١٨٩٠ ميلادية) .

فإذا ما تطلعنا الآن إلى تفسير لظواهر « التعجيل » و « الإبطاء » التي هي خروج واضح على رتابة الحركة التي يجب أن نتوقعها في المجتمعات التي تخضع خضوعاً تاماً لقوانين الطبيعة إذا أردنا تفسير هذه الظواهر ؛ فسنعثر على تفسيرنا في قاعدة « التحدى والاستجابة » التي بحثناها ، وقدّمتنا الشواهد عليها بتفصيل في باب سابق من هذه الدراسة .

فلنتناول الحالة الأخيرة التي أوردناها ؛ ألا وهي التعجيلان الكبيران اللذان تفصل بينهما فترة إبطاء طويلة الأمد ، في تاريخ بناء السفن والملاحة في الغرب :

كان التحدى الذي استثار بناء السفينة الغربية الحديثة في غضون نصف القرن من سنة ١٤٤٠ إلى سنة ١٤٩٠ ميلادية ، ميامى الطابع . إذ لم يقصر فشل المسيحية الغربية عند نهاية العصور الوسطى في شق طريقها صوب المناطق الجنوبية الشرقية نحو دار الإسلام (جهود تمثلت في الحروب الصليبية) بل لقد ألفت نفسها مهددة - هي نفسها - تهديداً خطيراً بفعل الهجوم المضاد الذي شنه الأتراك في أعلى الدانوب وعلى طول ساحل البحر

المتوسط . وما زاد موقف الغرب خطورة في هذا الوقت ، أن المجتمع المسيحي الغربي كان يشغل في ذلك الوقت رأس أحد أشباه جزر القارة الأوراسية . وإن مجتمعا هذا موضعه القلق لا بد - إن عاجلا أم آجلا - أن يُلْقَى في البحر بفعل ضغط قوى أشد بأسا ، مندفعة إلى الخارج من قلب العالم القديم . اللهم ؛ إلا إذا عمل هذا المجتمع المحاصر على تفادى الكارثة ؛ فانطلق من طريقه المسدود إلى فجاج الأرض الواسعة . وإلا حق له أن يتوقع أن يقاسى على أيدي الإسلام ، المصير الذى أوقعه هو نفسه (أى المسيحية الغربية) قبل ذلك بعدة قرون على مجتمع مسيحي عقيم ، كان مركزه في أقصى الحدود الكلتية من العالم المسيحي الغربي .

ففي أثناء الحروب الصليبية ؛ اختار المسيحيون اللاتين ، البحر المتوسط معبرا لعملياتهم الحربية . فعبروه في مراكب من طراز البحر المتوسط للتقليدى ، مدفوعين بتشوفهم إلى الاستيلاء على مهد عقيدتهم المسيحية ؛ ولكنهم فشلوا . وتلا ذلك تقدم التهديد الإسلامى الذى وضع خصومه من أهل الغرب بين نارين : الشيطان والبحر العميق . فكان أن اختاروا البحر العميق ، فابتكروا السفينة الحديدية . وانبنت على ابتكارها ، نتائج جاوزت أعنف أحلام أكثر المتفائلين من مريدى الأمير البرتغالى « هنرى الملاح » .

وإلى النجاح الساحق الذى أحرزته في القرن الخامس عشر استجابة فن تشييد السفن لتحدى الإسلام ؛ تعزى فترة « الإبطاء » الطويلة التى أعقبت ذلك في صناعة بناء السفن الغربية .

وكانت فترة « التعجيل » الثانية في هذا المجال ، راجعة إلى سبب مغاير تماما . ذلك هو الثورة الاقتصادية الحديدية التى بدأت تؤثر في أجزاء من أوروبا الغربية عند نهاية القرن الثامن عشر . وتمثلت الحاصيتان البارزتان لهذه الثورة في :

١- زيادة مفاجئة في عدد السكان بمعدل يرتفع ارتفاعا مطردا .

٢- رجحان كفة التجارة والصناعة الآلية على الزراعة .

ولا نحتاج هنا إلى سرد قصة التوسع الصناعى الغربى فى غضون القرن التاسع عشر ؛ وهى قصة معقدة ، لكنها معروفة . وما صاحب هذا التوسع من زيادة عدد السكان ؛ زيادة لم تؤد فقط إلى تضاعف - بدرجات متفاوتة - عدد سكان مختلف البلاد فى الجزء الغربى من العالم الغربى الأوروبى القديم ، لكنها شرعت كذلك فى ملء البقاع الخلاء الواسعة فى الأراضى الجدينة التى استحوذ عليها الرواد من أهل الغرب فيما وراء البحار : وواضح أن النقل عبر المحيطات كان يغدو بمثابة « عنق زجاجة » خانقة تعوق هذه التطورات ، لو لم يستجيب صناع السفن إلى هذا التحدى بقلوب صادقة وعزم قوى ؛ على غرار استجابتهم للتحدى منذ أربعائة سنة مضت .

• • •

وبعد ؛ فلقد اخترنا مثالنا من المجال المادى من شئون البشر . ووقع اختيارنا على اثنين من الاستجابات التكنولوجية المتعاقبة فى صناعة معينة لتحديين اثنين :

الأول - سياسى وحربى .

والثانى - اقتصادى واجتماعى .

لكن مبدأ التحدى والاستجابة ، هو نفسه لا يتغير خلال صروف الدهر جميعها ؛ سواء أكان تحدى البطون الخاوية التى تشتهى الحبز ، أو تحدى النفوس الجائعة التى تتوق إلى الله العلى القدير .

ومهما يكن من أمر التحدى ؛ فهو فى جميع الأحوال ، نعمة حرية الاختيار التى يمنحها الله عباده .

الفصل الثامن والثلاثون

ناموس الله

سنحاول في هذا الفصل من هذه الدراسة ، تحقيق قدر من الوقوف على حقيقة العلاقة بين القانون والحرية في التاريخ . فإذا عدنا الآن إلى السؤال الذى يلح علينا ، سنجد أننا قد توصلنا بالفعل إلى إجابة .

فما هى علاقة الحرية بالقانون ؟

وإن تماثلت لدينا ، يفصح أن الإنسان لا يعيش فى ظل قانون واحد فقط . إنه يحيا فى ظل قانونين اثنين ؛ أحدهما هو ناموس الله الذى هو الحرية ذاتها ، تحت اسم آخر ، أكثر بهاء^(١) .

إن « ناموس الحرية الكامل » — كما يدعو القديس يعقوب فى رسالته^(٢) — هو كذلك قانون المحبة ، لأنه ما من أحد يستطيع منح الإنسان حريته ، غير إله هو بنفسه « المحبة » . ولا يستطيع الإنسان إستخدام هذه الهبة الإلهية ليختار بمطلق حريته الحياة والخير ، عوضاً عن الموت والشر ؛ إلا إذا أحب الإنسان — من جانبه — الله بالقدر الذى يكفى ليدفعه هذا الحب الاستجابى ، إلى التسليم لله ؛ وذلك بأن يجعل إرادة الله ، إرادته هو نفسه .

إن إرادتنا ملك لنا ولكننا لا نعرف كيف

أن إرادتنا ملك لنا ، لنجعلها ملكاً لك^(٣) .

(١) يرى الأستاذ المؤلف أن لفظ liberty أكثر بهاء من لفظ freedom .

(المترجم)

(٢) رسالة للقديس يعقوب إصحاح ١ آية ٢٥ وإصحاح ٢ آية ١٢ . (المترجم)

Tennyson : In Memoriam in the Invocation

(٣)

« إن التاريخ هو : . . قبل كل شيء ، دعوة ، نداء ، قانون ، يجب على الكائنات للبشرية الحرة الاستماع إليه والاستجابة له . هو إجمالاً ، تفاعل بين الله والإنسان^(١) ، لقد ثبت أن القانون والحرية في التاريخ هما شيء واحد . بمعنى أنه من الثابت أن حرية الإنسان هي ناموس الله الذي هو المحبة ذاتها . لكن هذا الكشف لا يحل مشكلتنا : وذلك لأننا عندما أجبنا عن سؤالنا الأصيل ؛ أثرنا موضوعاً جديداً . فبمعرفة أن الحرية تتطابق مع إحدى مجموعتي أحكام القانون ، أثرنا موضوع علاقة كل من المجموعتين بالأخرى . وقد يبدو - للوهلة الأولى - أن الإجابة هي أن قانون المحبة وقانون الطبيعة البشرية اللاشعورية - وظاهر أن لكل منهما ولاية على شئون البشر - ليسا متباينين فحسب ؛ لكنهما متضاربان ، بل إنهما متنافران . ذلك لأن قانون النفس اللاشعورية يهيمن على نفوس دعاها الله للعمل معه ، في حرية ، وكلما تعمقنا في الموازنة بين هذين « القانونين » ظهر لنا اتساع الهوة المعنوية بينهما . فإن قدرنا « قانون الطبيعة » وفقاً لمعيار « ناموس المحبة » ، ونظرنا بعين المحبة جميع ما فعلته الطبيعة ؛ لشاهدنا شيئاً رديئاً للغاية .

انظر . . . إن السماء العليا والأرض ترتجفان من أساسهما :

جميع الأفكار التي تشق القلب موجودة هنا . . . وجميعها باطل^(٢) .

إذ أن إحدى النتائج التي استخلصها المشاهدون من البشر ، لما في الكون من شروء معنوية ، هي أن دنيا الأحوال هذه ، لا يمكن أن تكون من صنع الله .

فالأبيقوريون^(٣) ذهبوا إلى أنها النتيجة التلقائية لالتقاء مفاجئ بين ذرات لا تفتنى .

(١) Lampert, E : The Apocalypse of Historne (London 1948, Faber)

(٢) Housman, A. E : Shropshire Lad xiviii

(٣) نسبة إلى الفيلسوف أبيقور . (الترجم)

أما المسيحي ، فيجد نفسه مكرهاً على اختيار أحد رأيين يبلبل كلاهما
فكرة بلبله مفعجة .

فإما أن الله — وهو محبة — لا بد أنه خلق كوناً ظاهر الفساد :

وإما أن يكون خالق الكون لهاً آخر غير إله المحبة !!

ولقد اعتنق الملحد « مارسيون Marcion »^(١) في بداية القرن الثاني الميلادي
والشاعر بليك Blake^(٢) في بداية القرن التاسع عشر الميلادي — اعتنق كلاهما —
الرأى الأخير . إذ قام الحل الذى ذهب إلهه لهذا اللغز المعنوى ؛ على
نسبة خلق الكون إلى إله « لاحاب ولا محبوب » . فعلى حين يجذب الإله
المخلص النفوس بالمحبة ؛ فإن الإله الخالق ليس فى وسعه إلا أن يفرض قانونا
ويوقع عقوبات وحشية على من يخرق هذا القانون شكلا . وهذا الإله
السوداوى المزاج الفارض نفسه سيداً — الذى رأى فيه مارسيون « يهوى
Jehevah »^(٣) الموسوى ودعاه بليك بـ « يوريزين Urizen » وأطلق عليه
تهكما « أباً غير كائن — لا بد أن يكون سيثا بما فيه الكفاية ؛ إذا كان كفواً على
أداء واجباته بما يتفق ووجهة نظره المحدودة . لكن هذا الإله اشتهر بأنه يفشل
فى أداء واجباته بكفاءة ، ولا بد أن يُردّ فشله : إما إلى عدم كفايته ، أو إلى
سوء نيته !! . ولا شك أنه ليس ثمة علاقة مفهومة — أيا كانت — بين آثام
العالم وآلامه !!

وعلى حين أن مارسيون قوى الحجة من ناحية توكيده ارتباط عملية خلق

(١) مارسيون : مؤسس شيعة المارسونية . ومن رأيه أن بشارة السيد المسيح تتألف
من المحبة الطليقة للخير ، وأن النظام الموسوى — بما يضمه بين ثنائيه من ثواب وعقاب —
هو مجرد قانون ونظم لا صلة له بالله . ومن ثم ينكر « مارسيون » جميع ما ورد فى العهد
القديم والعهد الجديد على السواء ، إلا بضعة رسائل قليلة وجانب من إنجيل لوقا . (المترجم)
(٢) بليك — ولهم بليك (١٧٥٧ — ١٨٢٧) : شاعر ونقاش إنجليزى . وكان
يعتقد بأن الملائكة توحى بأشعاره وأعماله الفنية . (المترجم)
(٣) يهوى : أقدم أسماء الله فى اليهودية . (المترجم)

الكون بالشر ، فإن حجته ضعيفة في إنكاره عدم وجود رابطة ما بين الخلق وبين الخير والمحبة . لأن الحقيقة هي أن محبة الله هي مصدر حرية الإنسان . وأن الحرية التي تمهد الطريق أمام عملية الخلق ، إنما تفتح بفعلها هذا ، الباب لولوج الخطيئة إلى العالم . ويمكن اعتبار كل تحد نداء من الرب ، أو إغراء صادرا من الشيطان على السواء . وإن محاولة مارسيون تبرير محبة الله - حتى ولو أدى ذلك إلى إنكار وحدته - أبعد عن الصواب من محاولة إيريناوس؛ ^(١) Arenaеus تبرير الرأي القائل بتطابق « الخالق » مع « الفادي » ^(٢) حتى ولو أدى به ذلك إلى القول بتطابق مظهرين لتجلي الربوبية ^(٣) ؛ لا يتأتى - من الناحية المعنوية - التوفيق بينهما من وجهة النظر البشرية .

وفضلا عن ذلك ؛ فلقد حقق العلم الغربي الحديث - بصورة مذهلة - بيّنة التجربة - المسيحية عن صدق التناقض المنطقي والمعنوي . فإن الجهود الذي بُذل في سبيل محاولة التوفيق بين مظهرين لتجلي الله ؛ لا يتأتى التوفيق بينهما - وهو ما أرق ألباب القديسين والباحثين - قد أعلنت أكثر من مدرسة من المدارس المحدثّة في علم النفس في الغرب ، بأنه قد أرق بالفعل النفس اللاشعورية في غمار صراع سالف ، أدى - منذ البداية - إلى تكوين الشخصية الأدبية لكل من قديس وباحث المستقبل ، في مرحلة الطفولة المبكر ؛ شغلت فيه « أم » الطفل الوليد ، المكان المستقبل للإله في عالم النفس :

(١) إيريناوس - القديس إيريناوس ١٢٠ - ٢٠٢ ميلادية : كان أسقف مدينة ليون في نهاية القرن الثاني الميلادي . ويرجع أصله إلى أزيمير بآسيا الصغرى . وقد بذل جهوداً صادقة لتحويل فرنسا الوثنية إلى المسيحية . وقد توسط في تسوية الخلاف الناشب بين كنيسة روما وكنائس آسيا الصغرى بشأن تحديد مواعيد عيد الفصح . (المترجم)

(٢) الفادي - في المسيحية - هو السيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

(٣) يقصد الأستاذ المؤلف بمظهرى تجلى الربوبية ، الأب والابن في العقيدة المسيحية . (المترجم)

« عند ما يبدأ الرضيع . . . مبكرا . . . خلال السنة الثانية من حياته بعد مولده . . . في تحديد فارق بين ذاته وبين الحقيقة الخارجية ؛ تقف الأم ممثلة للعالم الخارجى ، وواسطة لتقل مؤثراته إلى الطفل . بيد أنها تظهر أمام وعيه النامى فى مظهرين متعارضين :

« فإنها موضع حب الطفل ، وهى مصدر راحته وأمنه وحدوثه .

لكنها - كذلك - تمثل السلطة . فإنها المصدر الأساسى للسلطة المفروضة عليه بطريقة خفية ، والتى تعترض - بتعنت - طائفة من الدوافع التى عن طريقها ، تشق حياته الجديدة طريقها إلى العالم الخارجى . ويولد لدى الطفل ما تلاقيه دوافع الطفولة من كبت ، مشاعر الغضب والكراهية والرغبات الهدامة - أى ما يطلق عليه علماء النفس عامة (العدوان) - موجّهة ضد السلطة التى تعترض طريقه . بيد أن هذه السلطة البغيضة ، هى كذلك الأم الحبيبة . ومن ثم يجابه الطفل صراعه الأول . فثمة مجموعتان من الدوافع لا يمكن التوفيق بينهما ، تتجهان صوب الهدف نفسه . وهذا الهدف هو مركز العالم المحيط بالطفل « (١) .

وهكذا ؛ طبقا لإحدى نظريات علم النفس ، فإن الصراع المعنوي الذى يتخذ سبيله داخل الشعور الواعى عند ما يبلغ الإنسان مرتبة الرشد والنضج ، يُلحظ لاشعوريا فى الطفولة المبكرة . هذا ؛ وفى الصراع الذى يجرى فى إبان الطفولة - كما فى مرحلة البلوغ - يتقاضى الفوز الروحى ثمنا روحيا . إذ تقهر المحبة البدائية ، الكراهية عن طريق تحميلها عبء الخطيئة الأولى (٢) . وبهذا يؤيد علم النفس ؛ الكشف الإيرينى (٣) المسيحى المناهض

(١) صفحة ١٠٧ Huxley, J. : Evolutionary Ethics : The Romanes Lectures, 1943 ; reprintad in Huxley, T. H. and y : Evolution and Ethice 1843-1943 London Pilot Press.

(٢) صفحة ١١٠ من المرجع السابق .

(٣) نسبة إل القديس إيريناوس (المترجم)

لفكرة مارسيون السالفة الذكر وهو أن الحب والكراهية والاستقامة والخطيئة ، يتصل أحدها بالآخر - اتصالا لا يُفصم - عن طريق سلسلة الخلق :

« من غير أم ؛ لا يتركز حب قوى على هدف شخصى . وبانتفاء مثل هذا الحب لا صراع بين تأثيرات لا يتأتى التوفيق بينها ، ولا خطيئة ، وبانعدام مثل هذه الخطيئة لا يوجد الإدراك المعنوى الفعال »^(١) .

(١) المرجع السابق .

الباب الثاني عشر

طوال الحضارة الغربية

الفصل التاسع والثلاثون

الحاجة إلى هذا البحث

انتاب كاتب هذه الدراسة — وقتما تناول قلمه لتحرير هذا الجزء الحالى — نفور من هذا العبء الذى فرضه على نفسه غرضاً ، وهو إحساس يتجاوز النفور الطبيعى من المجازفة بالبحث فى موضوع يقوم على النظر والتأمل ،

فلا شبهة فى أن تنبؤات قيلت فى عام ١٩٥٠ ؛ قد تكذبها الأحداث ، قبل أن يجد مخطوط هذا الكتاب طريقه إلى المطبعة ودور النشر ؛ بزمن طويل . على أن خشية المؤلف من أن يعرض نفسه للسخرية — وهى التى كانت تحكم تصرفات عقله — هذه الخشية ، قينة بأن تصرفه عن التفكير فى كتابة أى جزء من هذه الدراسة . وإذا قد أخذ على نفسه كتابة القسم الثانى عشر من كتابه ، بعد أن أودع القدر فعلاً «إحدى عشرة رهينة»^(١) فلهل يستمد الشجاعة مما تعكسه الاحتمالات التى تنتظر الحضارة الغربية . وهى احتمالات كانت على أية حال — عام ١٩٥٠ — أقل قتامة مما كانت عليه وقتما بدأ المؤلف يعدّ — فى الأشهر الأولى من عام ١٩٢٩ — مسودة المذكرات الأصلية لإعداد هذا الجزء ؛ الذى هو الآن بين يديه .

إذ أن الكساد المائل الذى كان يوشك أن يبدأ — بكل ما كان يحمله من عواقب بما فيها نشوب الحرب العالمية الثانية ؛ قد قضى قضاء تاماً — قبل أن يحل عام ١٩٥٠ بوقت طويل — على الوهم الذى ساد العالم قبل عام ١٩٢٩ ، بأن الأمور لم تتغير كثيراً عما كانت عليه قبل سنة ١٩١٤ ؛

(١) يشير المؤلف إلى الأحد عشر قسماً السابقة .

وعلى هذا ؛ فإن نقور المؤلف من معالجة موضوع هذا الجزء من الكتاب ، جدير بأن يخفف منه كثيراً ، مرور هذين العقدين الباهرين من السنين : هذا إذا كان هذا النفور مجرد تخرج عن الخوض في غيابات التكهّن : على أن هذا النفور لا يتصل — عن قريب أو عن بعيد — بصعوبة تقدير « طوالع الحضارة الغربية » ، أو ما يُخبئها لها المستقبل بين طياته . ولكن يكمن الباعث الحقيقي ، في خشية المؤلف من أن يتخلى عن أحد المبادئ الأساسية التي تحكم منهجها في دراسة التاريخ .

ولقد كان يزعم الكاتب ؛ خوفه من أن يصبح عرضة للتخلى عن موقف اعتقد أن منه — وحده — يستطيع أن يرى — في شيول صادق — كل تاريخ نوع من المجتمع ، ليست الحضارة الغربية إلا أحد مثليه . وفي رأيه ؛ أن قد عززت إيمانه بصواب هذا الموقف غير الغربي ، النتائج التي أسفرت عنها أحداث هذين العقدين من السنين اللذين أمضاها البشر وهم يحاولون قراءة خارطة التاريخ من زاوية غير غربية .

ومن الحوافز التي دفعت الكاتب دفعاً إلى ولوج هذه الدراسة ، ثورته ضد ما اصطلاح عليه الناس وشاع في الغرب حديثاً ، وهو : إعتبار تاريخ المجتمع الغربي كأنه « التاريخ » بصفة عامة . وقد بدا للمؤلف أن هذا الاصطلاح نشأ عن وهم التركيز على « الذات » . وهو وهم وقع فيه أبناء الحضارة الغربية مثلما تردى فيه — من قبل — أبناء الحضارات المعروفة والجماعات البدائية الأخرى^(١) . ولعل خير وسيلة للتخلص من فكرة التركيز

(١) عندما كان المستر سومرفيل صاحب هذا المختصر لدراسة التاريخ يقيم خلال عام ١٩٣٥ على منح جبل كليمنجارو ، نما إلى علمه سبب نشوب الحرب العالمية الأولى ، كما تفهمه قبيلة تشابا التي تعيش على الجانب الجنوبي من هذا الجبل : « كان الدكتور هانز ماير الألماني هو أول من تسلق جبل كليمنجارو عام ١٨٨٩ . فلما بلغ القمة ، ألقى هناك إليه الجبل الذي أعرب عن إمتنانه لفته التي لم يحظ بها من قبل ؛ بمنحه =

على الذات ، تتمثل في تبني الفكرة المضادة القائلة بتساوي جميع ممثلي أى نوع من المجتمع — من الناحية الفلسفية — مع بعضهم بعضاً ؟

ولقد تبني الكاتب هذه الفكرة المضادة ، فكان أن بدأ له من خلال الأجزاء الستة الأولى من هذه الدراسة ، ما يؤيد إيمانه بها ؛ وفي الجزء السابع ؛ رأى الكاتب أن الحضارات غير متكافئة في قيمتها ؛ في ضوء مبحث يقوم على الدور الذي يلعبه إلهيار الحضارات وتحولاتها ، في تاريخ العقيدة الدينية :

بيد أن هذه الدراسة ؛ لم تسفر — مع ذلك — عن التفخيم من شأن الحضارة الغربية من جديد . فإن البحث قد أسفر — على العكس — أن حضارات الجيل الثاني وهي الحضارات : السورية والسندية والهلينية والصينية ؛ كانت هي من أبرز الحضارات من وجهة نظر الباحث الذي يرى أن سير التاريخ إنما يقوم على النمو المطرد في تزويد نفوس البشر — في هذه الحياة الدنيا — بإمكانات روحية :

وإذا كان إعتناق الكاتب وجهة النظر هذه ، قد عزز إحجامه الأول عن تخصيص مبحث خاص للحضارة الغربية ؛ إلا أنه بتقريره عام ١٩٥٠ التزام نهج وضعه خلال سنوات ١٩٢٧/٢٩ ، إنما كان يخضع للضرورة المنطقية التي

= الألمان متسلق الجبل ومواطنة كافة بلاد تشاجا . واشترط إله الجبل شرطاً واحداً هو أن يقوم أحد مواطني هذا الرجل الألماني كل سنة (ولعلها خمس سنوات) بتسليق الجبل تحية وولاء . وسارت الأمور على ما يرام ، واحتل الألمان شرق أفريقية الألمانية ، حتى عام ١٩١٤ . لكن الألمان في عام ١٩١٤ ، تفاوضوا عن تأدية هذا الواجب . فكان أن غضب إله الجبل فغضب عطية ومنح البلاد إلى أعداء الألمان الذين أعلنوا الحرب عليهم وطردوهم منها . إن هذه الحرب الإنجليزية الألمانية في قلب أفريقيا الشرقية قد جلبت معها مصادفة — كما يحدث عادة إبان الحروب — دورات حروب ثانوية في مناطق بعيدة ليست لها أهمية خاصة . ويبدو تفسير قبيلة تشاجا لهزيمة الألمان معقولا مثل تفسيرات كثيرة أخرى عنها . وفي الحق ؛ يعتبر المستر سومر فيل التفسير خيراً من تفسيرات كثيرة أخرى ، من ناحية أنها تعترف بأهمية الدور الذي يلعبه الدين في مجريات التاريخ .

تطلبها ثلاث حقائق لم تفقد شيئاً من وجاهتها خلال السنوات التي فصلت بين ١٩٥٠ و ٢٩/١٩٢٧ .

الحقيقة الأولى - أن الحضارة الغربية كانت خلال الربع الثاني من القرن العشرين المسيحية ؛ هي تمثل نوعها الوحيد البارز ، الذى لم يُظهر علامات قاطعة على التحلل . فإن من بين الحضارات السبع الأخرى ؛ كان ثمة خمس حضارات هي : المسيحية الأرثوذكسية وفرعها الروسى ، والكيان الأسامى لحضارة الشرق الأقصى وفرعه الكورى اليابانى ، والحضارة الهندية ؛ لم يقتصر الأمر على أنها مرتت بمرحلة الدولة العالمية ، بل تتجاوزتها . أما بحث تاريخ الحضارة الإسلامية (الإيرانية العربية) ، فقد أثبت بالدليل القاطع أن هذين المجتمعين قد انهارا كذلك .

ومن ثم ؛ لعل المجتمع الغربى هو المجتمع الوحيد الذى كان فى هذه السنوات (١٩٢٧ - ١٩٥٠) لا يزال فى مرحلة الارتقاء ،

الحقيقة الثانية - أن توسع المجتمع الغربى وإشعاع الثقافة الغربية ؛ قد وضع جميع الحضارات الأخرى الباقية وجميع المجتمعات البدائية الباقية ، فى نطاق إطار عالمى شامل ، يصطبغ بالصبغة الغربية .

الحقيقة الثالثة - وهى حقيقة مزعجة تجعل من الاستقصاء أمراً لازماً ، ومدارها أن جميع مصائر الجنس البشرى بأسره قد جُمعت لأول مرة فى تاريخه فى موضع نفيس لكنه غير مستقر ، كما لو أنه بيض جُمع فى سلة واحدة : انقضت الأيام . عندما كان الجنون تحصره .

البحار أو المضارب ؛ من الانتشار بين الجنس البشرى :
وقد كانت الحكمة تسيطر فى بكين مطمئنة ؛

رغمًا عن حق نيرون وهو يعزف على أوتار عوده هـ
وكان الرب يبتسم من خلال طلعة البوذا ، مرحباً :

رغمًا عن تبشير كالفين في جنيف بالإيمان ؛
لأن أرضنا المتصلة بعضها ببعض قد انكشفت حتى غدت صغرة ،
ويعنى وجود هتلر واحد فيها ، الجنون للجميع .
وكل موجة من قلق تنتشر في أنحاء العالم
وتجزع أيبوه من الحرب التي تلوح بها أيبسدين^(١) :

وفي حرب عالمية ثالثة تُستخدم فيها الأسلحة النووية والبكتريولوجية ؛
يبدو أمراً بعيداً عن الاحتمال ، أن يغفل ملاك الموت حتى عن هذه الزوايا
والأركان من مواضع سكنى الإنسان . تلك المواضع التي كانت حتى وقت
حديث : إما غير مرغوب فيها بالمرّة ، أو صعبة المثال ، أو تتوافر لها هاتان
الصفتان . وكانت بحالتها ؛ تهيم لقاطنيها الفقراء الضعاف المتأخرين ، مناعة
أصيلة ضد الاهتمام الذي لا يرحب به أحد من جانب العسكريين
« المتحضرين » !!

ولقد عرض الكاتب في حديث ألقاه بجامعة برنستون قبل إنقضاء ثلاثة
أسابيع على إعلان مبدأ ترومان بتقديم المساعدة الأمريكية لليونان وتركيا
ضد الضغط الروسي (١٢ مارس سنة ١٩٤٧) ؛ عرض فكرة مرت
بخياله مدارها أن العالم المتأثر بالثقافة الغربية ، لو سمح لنفسه بالتردى في
حرب عالمية ثالثة ؛ لترتب على ذلك بعث أسطورة من أساطير أفلاطون
إلى الوجود فعلاً : تخيل فيها الفيلسوف الأثيني رعاة الجبال ينحدرون من
حصونهم — الفينة بعد الفينة — ليقوموا حضارة جديدة على الموقع الخاوي
لحضارة قديمة بادت في نهاية طائفة من الجائحات ألّت بتلك الحضارة
بصفة دورية .

Skinner, Martyn : Letters to Malaya I & II (London 194). (١)

ايبوه وايبسدين : مدينتان في الملايو . (المترجم)

ويعنى هذا - فى تصور نفس لا شعورية جماعية - أن الرعاة يرمزون إلى الطاقات البشرية البدائية السليمة المدخرة لإنجاز الإبداع الذى ما يزال الرب يحتفظ به ذخيرة .

وإن الحضارة تعتبر أكثر الأعمال البشرية الحديثة حداثة ، ولعلها أشد ما أنجزه البشر خطورة . فإن أصاب الإنسان المتحضر الشجن خلال عملية تحضره ، فلهذه يعتمد دائماً - كلما أعوزه الأمر - على الاستقاء من القوة الاحتياطية التى ما تزال كامنة فى إخوته البدائيين ، الذين لفظهم من تلك المناطق المنتقاة من الأرض التى استأثر بها لسلطانه . فباتوا « يهيمنون على وجوههم فى الصحارى والجبال ، مرتدين جلود الماعز والأغنام » . ولقد طفقت البقية الحية من أبناء هايل الأبرياء - نسبياً - يهيلون فح مات النار على رؤوس أبناء « قايين » ، وذلك بقدمهم لنصرة قاتليهم وقما فضحت الخطايا أبناء « قايين » . ومصادقاً لذلك ؛ نجد راعياً من آسكرا Ascara^(١) - على سفح جبل هليكون - ينطق بتقدمة مأساة التاريخ الهليني ؛ ورعاة من النقب على مشارف صحراء العرب ، يقفون فى بيت لحم إلى جانب مهد المسحبة .

ولقد ذهب المؤلف عام ١٩٤٧ فى دعايته الأفلاطونية السالفة الذكر إلى أنه إذا كان قد قدر على الحضارة الغربية التى ينتمى إليها هو وسامعوه ؛ أن تبطل بكارثة شاملة ؛ فتلعب عبء إعادة السير فى طريق التحضر لكفالة استمرار جهد ثقافى ظل قائماً طوال خمسة أو ستة آلاف سنة الأخيرة ، يقع على كاهل أهالى التبيت الذين ظلوا محتمين حتى الآن وراء هضبتهم . أو لعله يقع على كاهل الاسكيمو الذين ما يزالون حتى الآن ؛ يستكنون مسترخين أمام عواصف ثلجية هى بالنسبة لهم ، أقل حقداً من أى نوع من أنواع البشر .

(١) موطن هيبود - الشاعر . (المترجم)

وفي خلال ثلاثة أعوام ونصف عام إنتقضت منذ إلقاء ذلك الخطاب وكتابة هذه الأسطر في الأرباض الهادئة لنفس المدينة الجامعية ؛ دهم سير الأحداث التاريخية ، هذه الأخيالة ودهسها . ففي لحظة كتابة هذه السطور في ديسمبر ١٩٥٠ ، أذيع أن تجريدة صينية شيوعية في طريقها للاستيلاء على مدينة لهاसा^(١) . في حين أن الاسكيمو الذين كانوا سعداء فيما مضى لأنه ما من عدو أو صديق لهم عدا الطبيعة المادية ؛ قد ألفوا أنفسهم قابعين في الجزء المطروق من طريق قذف القنابل عبر المناطق القطبية بين حوضي الفولجا والمسيبي ، وفي بطن أرض طريق الغزو عبر الطرف الثلجي لمضيق بهرنج من الموطن المنعزل للسكان المقيمين في الطرف الشمالى الشرقى لروسيا الآسيوية حتى الاسكا ؛ أصبحت روسيا تنفصل عن الجسم الرئيسى لقارة الولايات المتحدة بمجرد « مر بولندى » من أراضى كندا^(٢) .

وهكذا أصبح المجتمع الغربى المنتشر في أصقاع المعمورة ، يمسك الآن بيديه مقادير البشرية بأسرها في لحظة يقع فيها مصير الغرب نفسه على طرف أصبع رجل واحد في موسكو وآخر في واشنطنجتون ، في وسعهما بالضغط على زر أن يفجرا قنبلة ذرية .

وبعد ؛ تلك هى الوقائع التى دفعت الكاتب أن يسجل - وهو كاره - عام ١٩٥٠ ميلادية ، النتيجة التى وصل إليها - وهو كاره - عام ١٩٢٩ . نتيجة قوامها أن بحثنا في مصائر الحضارة الغربية ، هو جزء ضرورى من دراسة تاريخية تكتب في القرن العشرين .

(١) لهاسا : عاصمة التبت . وقد سيطرت الصين الشعبية عليها الأمر الذى أصبح يعكّر صفو العلاقات بين الصين الشعبية والهند . إذ كانت الهند ترغب في جعل التبت دولة حاضرة بينها وبين الصين . (المترجم) .

(٢) يشبه المؤلف هنا ألاسكا التى أصبحت فيما بعد الولاية ٤٩ من الولايات المتحدة الأمريكية بروسيا الشرقية ، والأراضى الكندية بدانترج . (المترجم)

الفصل الأربعون

قصور الردود الأولية

تُرى ما هو المصير الذى كان ينتظر المجتمع الغربى فى عام ١٩٥٥ ؟

أول ما يحتتمل تبادره إلى ذهن دارس التاريخ ، بـخس تقدير
إحتمالات الحياة فى الغرب ؛ حين يضع نصب عينيه - عند تقديره - سخاء
الطبيعة الواضح للعيان . فـا الحضارة الغربية - قبل كل شىء - إلا حضارة
من نفس النوع الحضارى الذى لا يجاوز عدده الواحد والعشرين .
وبالأحرى ؛ هل يتوقع منطقيا ، أن تفلت الحضارة الحادية والعشرون
من المصير الذى تردت فيه الحضارات الأخرى السالفة ؟

لو أخذنا فى الاعتبار عدد مرات الفشل الذى كان بمثابة الثمن الفادح للذى
اقتضاه توفيق كل حضارة فى تطوير الحياة على سطح الأرض فى التاريخ
البعيد ؛ لظهر أنه من غير المحتمل أن أبة حضارة من حضارات الجيل الثالث -
وهى من نوع حضارى لا يزال فى عنقوان شبابه - تستطيع أن تُكرس
نفسها للبحث عن طريق - لم يُطرق من قبل - لتمضي الحياة وتركو دون قيئد
أو حدة ، أو لخلق جنين يتولد فيه نوع جديد من أنواع المجتمعات .

ونلاحظ على هذا الاستدلال ؛ أنه مستنبط من تجارب الحياة فى المستوى
السابق لظهور البشرية . وقد يكون من الحق أن الطبيعة - وقما أخذت على
عاتقها تطوير الكائنات البدائية - كانت قادرة على صياغة ملايين من الأنواع ،
حتى تتيح لنفسها فرصة بعيدة المدى لإبراز نوع جديد أسمى . فلاشبهة -
والحالة هذه - أن العشرين نوعا من الحضارات ، وهى جُمُوع ما أسفر عنه
فى خاتمة المطاف تطور النباتات والحشرات والأسماك وما إلى ذلك ؛ يعتبر

عدداً في مجال الطبيعة ، ضليل ضالة تثير الضحك : لكن من الناحية الأخرى ؛ لا مبرر للافتراض بأن قواعد التطور التي لا معدى عن توافرها للكائنات الحيوانية أو النباتية ، ينبغي حتماً أن تكون صالحة للتطبيق على أنواع تغاير تلك الكائنات تماماً ؛ أنواع مثل المجتمعات البشرية الآخذة بأساليب الحضارة .

والحق ؛ إن الاحتجاج بوفرة الطبيعة ؛ لا يقوم - في هذا البحث - على أساس . وإنما ما أثرناه هنا ، إلا للاستبعده .

عندئذ ؛ يتبقى أمامنا - رداً على أسئلتنا - ردان أوليان a priori مثيران - ولكن يتسمان بتناقضهما التام - ، يجب إمعان الفكر فيهما ، قبل أن نمضى قدماً في بحث الأدلة المستقاة من الحضارات نفسها . وجدير بالذكر أن كاتب هذه الدراسة (وقد ولد عام ١٨٨٩) عاش ليرى العالم الغربي ينكفي من أحد هذين الإحساسين إلى الآخر :

فأحد الإحساسين ؛ يتجلى في نظرة أبناء الطبقة الوسطى البريطانية في نهاية القرن التاسع عشر إلى الأمور . وخير ما يمثل هذه النظرة ؛ الفقرة التالية المقتبسة من عبارة كتبها معلّمان حاكيا فيها - بأسلوب ساخر - أفكار تلميذ عن التاريخ ، كما دونها في أوراق امتحانه تحت عنوان « ١٠٦٦ وكل ذلك » :

« بلغ التاريخ الآن أجله فأصبح هذا التاريخ أمراً نهائياً » .

ولقد شارك المنتصرون الألمان والأمريكيون في آخر دورات الحرب الأوربية الحديثة ، تلك النظرة التي اعتنقتها الطبقة المتوسطة الإنجليزية في أواخر القرن التاسع عشر . ولم يكن الشك قد أخذ يتطرق إلى أذهان أولئك الذين أفادوا من الأحوال التي سادت عقب الحرب العامة ١٧٩٢ - ١٨١٥ (مثلهم في ذلك مثل إخوانهم الإنجليز) في أن العصر الحديث من تاريخ الغرب لم يول إلا ليبدأ عصر آخر « بعد الحديث » منفرداً بتجارب مفعمة .

إذ كانوا يتصورون - لمنفعتهم - إن الحياة التي يحيونها - حياة الأمن والدعة والرضا - قد بلغت - بمعجزة - حالة من الاستقرار ستدوم أبد الآبدين . ومن ذلك : أن شعوراً بـ « اللانهاية » قد بدا أنه ساد طوال الستين عاماً التي عاشها العصر الفيكتوري في إنجلترا : هذا على الرغم من أن فحصاً عابراً للصور التي عرضت في اليوبيل الماسي للمملكة ، يظهر تغيراً سريعاً في جميع نواحي الحياة ابتداء من الأساليب التكنيية ، حتى أزياء الناس .

ولقد كان المحافظون من أهل الطبقة الوسطى الإنجليزية الذين أقبل من أجلهم عصر الهناء والازدهار الطويل الأجل^(١) ، كما كان الأحرار من الطبقة الوسطى الإنجليزية الذين عاشوا على هامشه ؛ كانوا جميعاً مدركين - طبعاً - أن حصة الطبقة العاملة الإنجليزية من الرخاء الذي تنعم به الطبقة الوسطى ، ضئيلة إلى حد مذهل . كما تبين لهم أن الرعايا البريطانيين في معظم المستعمرات والأملاك التابعة للمملكة المتحدة ، لا يتمتعون بالحكم الذاتي الذي كان ميزة يتمتع بها رفاقهم من الرعايا البريطانيين القاطنين في المملكة المتحدة وفي بعض أملاك التاج البريطاني ؛ بيد أن المحافظين دأبوا على إسقاط هذا التفاوت من حسابهم ؛ باعتباره أمراً لا معدى عنه . أما الأحرار . فكانوا يعتبرونه أمراً قابلاً للإصلاح . والمثل يقال عن معاصري الإنجليز من الأمم الأخرى ، في هذه الحقبة من الزمن :

فكان مواطنو شمال الولايات المتحدة مدركين بالمثل بأن رفاقهم من مواطني الجنوب لا يشاركونهم رخاءهم الاقتصادي :

كذلك أدرك رعايا الرايخ الألماني بأن سكان « أرض الرايخ » الذين

(١) في الأصل : العصر الألقى - وهو عصر يستمر ألف سنة ، ويحكمه السيد المسيح وفقاً للمسيحية ، ويسود العالم - خلاله - (الرخاء والاستقرار والدعة) . (المترجم)

ضُمُوا إليه من فرنسا ، ما يزالون فرنسيين بقلوبهم ؛ وأن بقية الأمة الفرنسية لا تسلّم بيتر المقاطعتين المتنازل عنهما . فالواقع ؛ لبثت أفكار الانتقام تراود أذهان الفرنسيين ، وطفق سكان الألزاس واللورين الخاضعتين لألمانيا ، يحلمون بأن يتحقق يوماً ما نفس حلم التحرر الذي كان يطوف بأذهان السكان الخاضعين في شلزويج وبولندا ومقدونيا وإيرلندا .

ولم تكن مثل هذه الشعوب لتسلّم بالمذهب الوادع المريح القائل بأن « التاريخ قد بلغ غايته » . بيد أن ثقهم التي لا تززع في أن النظام الذي فُرض عليهم ، سوف يحرقه - عاجلاً أم آجلاً - تيار الزمن المتدفق ابداً ؛ هذه الثقة الشعبية ، لم يكن لها أبداً كبير أثر على الأخيلة البليدة لملندوبى الدول المسيطرة ، وقتذاك .

وبالأحرى ؛ في وسعنا أن نقرر مطمئنين ، أنه في عام ١٨٩٧ ميلادية ، لم يكن ثمة أحد - رجلاً كان أو امرأة - حتى من بين أعنف المبشرين بالثورة الوطنية أو الاشتراكية - يحلم بأن المطالبة بمبدأ تقرير المصير سوف تمزق إمبراطوريات : هابسبرج وهو هنزلرن ورومانوف والمملكة المتحدة لبريطانيا وإيرلندا ، في غضون الخمسة والعشرين سنة التالية . ولم يتصور قط أن المطالبة بالديمقراطية الاجتماعية سوف تنتشر من طبقة عاملة نضج وعيها مبكراً في مدن طائفة قليلة من المقاطعات الصناعية في الغرب ، إلى فلاحي المكسيك والصين . وكان غاندى (الذى ولد عام ١٨٦٩ م) ولينين (الذى ولد عام ١٨٧٠ م) ما يزالان إسمين مجهولين .

وما كانت كلمة « الشيوعية » لتعنى سوى حَدَثَ باهت قصير تافه من أحداث الماضي التى نزلت بفرنسا عقب الكارثة التى نزلت بها في حرب السبعين . واعتُبر هذا الحدَث - وقتذاك - آخر مالفظه بركان « التاريخ » بعد أن هدأت ثورته ونحمت نيرانه .

ولم يكن ثمة خوف من تجدد اشتعال نار أمكن إحماها مدى ربع قرن ،
بتأثير الحطة المهدئة التي سارت عليها الطبقة البورجوازية في فرنسا ؛ على
عهد الجمهورية الثالثة .

ولم يكن ذلك التفاؤل الرضى الذى إعتنقته الطبقة المتوسطة أيام
الاحتفال باليوبيل الماسى ، بالشىء الجديد للملكة فيكتوريا . وإذ نراه
شائعا قبل ذلك بمائة عام ؛ تلك هى الأيام المجيدة التي عاش فيها المؤرخ
« جيبون » وألقى فيها « تيرجو »^(١) فى السوربون عام ١٧٥٠ م « الخطاب
الثانى » ، « تحت عنوان « المنافع التي حققها المسيحية للجنس البشرى » .

فى وسعنا أن نستشف نزعة التفاؤل هذه ، قبل ذلك بمائة عام أخرى ؛
معمثلة فى الملاحظات العابرة التي أبدتها « بيبس »^(٢) . فهذا
للكاتب الساخر — صاحب اليوميات الأريب — كشف عن صعود فى
« مقياس الضغط » السياسى والاقتصادى . فكان من رأيه أن أحداث عام
١٦٤٩ وما إليها — وتتضمن مذبحه سان بارتولوميو^(٣) وديوان التفتيش
الأسباني^(٤) — أصبحت أشياء تمت إلى الماضى .. وحقا ؛ يعتبر الجيل الذى

(١) تيرجو Turgot (١٧٢٧ - ٨١) : سياسى واقتصادى فرنسى . رثا طوال حياته
للغامة إلى تحرير الفلاحين الفرنسيين من استعباد الأرستقراطية . لكنه لم ينجح ، إذ خضع الملك
لويس السادس عشر لفسط النبلاء فطرد تيرجو من منصبه . وله طائفة من المؤلفات الاقتصادية
والأدبية . (المترجم)

(٢) صمويل بيبس (١٦٢٣ - ١٧٠٢) : صاحب يوميات إنجليزية . كتب مذكرات
تعتبر أهم المراجع عن عصر النهضة . (المترجم)

(٣) مذبحه سان بارتولوميو : جرت فى باريس فى ٢٤ أغسطس عام ١٥٧٢ . وقتل
فيها عدة ضخم من الهيجونوت (بروتستانت فرنسا) . وكانت بداية استئصال هذا العنصر من
فرنسا . وتمت هذه المذابح بأمر من الملكة كاترين دى مديشى . (المترجم)

(٤) محاكم التفتيش : تألفت محاكم التفتيش بناء على توصية أصدرها المجلس للدينى
المتعقد فى تولوز عام ١٢٢٩ . وأصدر البابا جريجورى التاسع قراره بتنظيمها . وكانت الغاية
من إقامتها بحث أحوال المتهمين بالهرطقة والخروج على قواعد المسيحية كما كانت تفهمها
الكنيسة فى هذا الوقت . وانتشرت هذه المحاكم فى أسبانيا والبرتغال وإيطاليا وفرنسا . إلا أنها -

عاش فيه « بيبس » بداية العصر الحديث المتأخر ، الذى هو أحد الصور الكبرى التى عمّ فيها الإيمان بالتقدم والكمال البشرى . فقبل عصر « بيبس » يجيلين ؛ نرى « نبياً » جلجل صوته بهذا التفاؤل ، ألا وهو فرنسيس باكون^(١) :

وهذا « الإيمان » الذى عاش ثلاثمئة عام ؛ لقي نهايته فى ظروف شاقة ، بعد عشر سنوات إنقضت على الضربة القاصمة التى أصابته فى سنة ١٩١٤ . ونستشف ذلك فى خطاب ألقاء مؤرخ ممتاز ، وأحد موظفى الدولة هو السير هيدلام مورلى (١٨٦٣ - ١٩٢٩) :

« فى تحليلنا لهذه الثقافة « الغربية » ؛ أول حقيقة نلاحظها هى أنه وإن كان هناك بلارب تاريخ مشترك وحضارة مشتركة لجميع أوروبا الغربية ، فإن شعوبها لم تنخرط فى أى اتحاد سياسى رسمى ، كما لم تخضع تلك البلاد - فى أى وقت - لحكومة واحدة مشتركة . ولقد بدا وقتاً ما ؛ كما لو أن شارلمان سيسيطر على المنطقة بأسرها ، إلا أن هذا الأمل - كما نعلم - قد تبدد : إذ فشلت محاولته لتكوين إمبراطورية جديدة ، كما فشلت جميع المحاولات التى تلتها . ومن وقت لآخر ؛ تجددت محاولات قامت بها الإمبراطورية بعد ذلك ، أوقام بها حكام إسبانيا وفرنسا لتوحيد أوروبا الغربية بأسرها فى دولة - أو إمبراطورية - واحدة كبرى . بيد أننا فى كل مرة ؛ نرى

= ترعرعت خاصة فى إسبانيا حيث انحصر عملها فى محاكمة المشتبه فى مسيحتهم من المرتدين من المسلمين واليهود . وظلت هذه المحاكم تمارس عملها البغيض حتى صدور قانون ١٨٣٤ الذى ألغىها رسمياً . (المترجم)

(١) فرنسيس باكون (١٥٦١ - ١٦٢٨) : فيلسوف إنجليزى . له طائفة من المؤلفات التى تنمّ عن عبقرية فذة ، أشهرها مؤلفه « الطريقة الجديدة للكشف العلمى » ثم كتاب « البحث العظيم » . وكان لنبوغه وتعدد جوانب ثقافته ، أثر كبير فى نشوء نظرية أنه هو المؤلف الأسمى لكل ما ينسب إلى شكسبير من أعمال . (المترجم)

نفس الشيء : إستثارة الوطنية الإقليمية ، والاستعانة بالحرية الفردية لإلهاب شعور المقاومة الذى يحطم جهود كل فاتح . وهكذا فإن ثمة طابعا أزليا يتميز به أوروبا ، ينعته النقاد بالفضى . ذلك لأن إنتفاء الحكم المشترك ، يغنى الصراع والعراك والحرب والفتنة التى لا تنقطع — بين الوحدات الحكومية المتناقضة التى تنازع إحداها الأخرى فى سبيل السيطرة والاستحواز على الأرض » .

« وتلك حالة تُشير الألم الشديد عند الكثيرين : لأنها تنطوى — بلاريب — على تبديد طاقات ضخمة ، وتدمير الثروة وخسارة عظمتى فى الأرواح فى بعض الأحيان . لهذا نرى كثيرين يؤثرون قيام حكومة مشتركة تشيد تدريجيا ، وهم يوازنون بين تاريخ أوروبا وتاريخ الإمبراطورية الرومانية ، أو يوازنون حاليا بين تاريخ أوروبا وتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية . ويخرجون من هذه الموازنة بنتيجة ليست فى صالح التاريخ الأوروبى . وإن الكثيرين ليتوقعون — منذ أيام دانتي وما بعده — إلى قيام حكومة نظامية ، لعلها تعكس المشيئة الإلهية وتكون أداتها . وطالما سمعنا من يقول « إذا كان الإنجليز والإيطاليون والبولنديون والروتيونيون والألمان والسكندنافيون يعيشون على تربة أمريكا جنبا إلى جنب سالمين راضين ، فماذا يمنعهم من أن يفعلوا ذلك فى مواطنهم الأصلية ؟

« إننى لا أقف اليوم لأناقش المُشَلَّ العُلَيا للمستقبل . إننا نَعْنى بالماضى . وكل ما ينبغى علينا أن نعمله هو ملاحظة حقيقة مدارها أن هذه القوضى ، هذه الحرب ، وهذا الصراع ، هذا كله قد وُجِدَ فى الوقت الذى بلغت فيه طاقات القارة ذروتها . ولنلاحظ كذلك أن طاقات عالم البحر الأبيض المتوسط — وتمثل فى القوة الحيوية وفى الروح الفنية وفى الأصالة الثقافية — تبدو أنها تتحلل تدريجياً وبصورة منتظمة ، وأن بداية تحللها قد توافقت

مع إقامة حكومة مشتركة . أفلا يكون الاحتكاك والاضطراب - في الحقيقة -
لا مجرد تدمير الطاقة ، ولكن يكون عاملا لتوليد تلك الطاقة « (١) » .

وعجيب أن نسمع صوت جيبون المتفائل لا يزال يتردد صدها في إنجلترا ؛
وهو يُسمع الآن بصوت مخيف لندير غامض . على أنه ما إن حل عام ١٩٢٤
حتى شاع في هذا العالم الغربي الذي برح به الألم ، شعور مناقض تمثل في
قرارات تبحث في دلالة لإنهيار الحضارة الحديثة السابقة ، وسقوطها .

وقبل أن يلتقي هيدلام مورلي خطابه بخمس سنوات ؛ أعلن بول فاليري
- بفصاحته المعهودة - أن جميع الحضارات مصيرها القضاء . كما قرر شبنجلر
نفس الشيء في العصر ذاته .

وأيا ما تكون الحال ؛ ففي وسعنا الآن أن نرى أن مذهب « التقدم »
قام على بضعة من القضايا المنطقية الخاطئة .

ولكن هل يدفعنا التسليم بهذه الحقيقة إلى تقبل مذهب « الهلاك
الحتمي » ؟ .

مثل هذا القول مجرد استدلال . لأن في وسع المرء كذلك ؛ أن يجادل
بالقول بأنه ما دام الإنسان قد تردى في حمأة اليأس ، فلن يكون ثمة والحالة
هذه طريق غيرها . إن تشاؤم فاليري وتفاؤل جيبون - كلاهما - إخضاع
الإنفعالات للبحث العقلي ، تلك الانفعالات التي عانت - ظاهرا - بالحياة
للقصيرة التي عاشها كل منهما .

J. W. Headlam-Morley : The Cultural Unity of Western Europe (١)
in the new Past and Other Essays on the Development of Civilization;
edited by E. H. Carter (Oxford 1925, Blackwell P.P. 88-89).

الفصل الحادى الأربعون

فحوى تاريخ الحضارات

(١) التجارب الغربية مع الحضارات الغير الغربية السابقة حاولنا فى أجزاء سابقة من هذه الدراسة ، أن ننفذ ببصرنا إلى العوامل التى أدت إلى إنهيار الحضارات وإلى عملية تحللها ؛ وذلك باستعراض الوقائع التاريخية المتصلة بعملية الانهيار والتحلل . فكان أن أسفرت دراستنا لظاهرة إنهيار الحضارات ؛ على أن السبب فى كل حالة ، نوع من الإخفاق فى تقرير المصير . فإن مجتمعاً منهاراً يثبت - بلا ريب - أنه قد حرم حقه فى توجيه إرادته نحو تحقيق فعل نافع ؛ بترديه فى عبودية وثن من صنعه يديه .

فإن طبقنا هذا الرأى على المجتمع الغربى ؛ ألفيناه يسلك خلال منتصف القرن العشرين المسيحى ؛ مسلك العاكف على عبادة بضعة من الأوثان . إلا أن من بين هذه الأوثان ؛ ثمة وثناً سما فوق الأوثان الأخرى : هذا هو وثن الدولة الإقليمية .

ولهذه الظاهرة فى حياة الغرب فى عصر ما بعد الحديث ، دلالتها المزعجة ، من ناحيتين :

الأولى - أن هذا التأليه للدولة الإقليمية ، كان هو العقيدة الدينية الحقيقية للغالبية العظمى لسكان العالم الآخذ بأسباب الحضارة الغربية ؛ وإن لم يعترفوا بذلك صراحة .

الثانية - أن هذه العقيدة الباطلة ، هى السبب فى إنقضاء أجل ما لا يقل عن أربع عشر حضارة - وقد يكون عدتها ست عشرة - من الحضارات الإحدى والعشرين التى سجلناها فيما سبق .

وحقاً ؛ ما برحت الحرب التي يقتل فيها الأخ أخاه ، وتزاد فيها أساليب العنف باطراد - وهذه الحرب نتيجة التعلق بالدولة الإقليمية - هي إلى أبعد حد ، أكثر العوامل المشتركة لفناء حضارات ثلاثة أجيال بأسرها :

ففي الجيل الأول - كان في تلك الحرب - بكل تأكيد - دمار الحضارتين السورية والأنديانية^(١) . ولعلها كانت كذلك عامل دمار الحضارة المينوية . وفي الجيل الثاني - تسببت في دمار الحضارات البابلية والسندية والسورية والهلينية والمكسيكية والياكوتية^(١) .

وفي الجيل الثالث - كانت هي عامل دمار الحضارة المسيحية الأرثوذكسية ؛ سواء في وطنها الأصلي : أو في فرعها الروسي .

وكانت بالمثل عامل دمار حضارة الشرق الأقصى وفرعها الياباني . ودمرت كذلك ؛ الحضارتين الهندية والإيرانية .

أما بالنسبة للحضارات الخمس الأخرى (باستثناء الحضارة الغربية) ؛ فقد نرى كذلك أن الحضارة الحثية قد جلبت على نفسها الدمار ، بفعل حرب أهلية نُشبت في عقر دارها . وذلك قبل استكمال عُدتها لقتال عالم مصرى أصابه التحجر . فانهى المطاف بها إلى الاستسلام لهجرات بربرية وقّدت عليها .

وأما الحضارة المايانية ؛ فلا تُظهر - على ما نعلم - دليلاً على نشوب حرب داخلية . ويبدو أن الحضارة المصرية وحضارة الشرق الأقصى في الصين ؛ قد ضحيتا بحياتهما على مذبح وثن غير الدولة الإقليمية ، هو نظام عالمي يضم بيروقراطية طفيلية بطّرد نموها .

(١) الحضارات : الأنديانية والمكسيكية والياكوتية ، حضارات انبعثت في أمريكا للوسطى وقد سبق الحديث عنها في الفصل الأول من هذه الترجمة . (المترجم)

يُتَبَقَّى بعد ذلك الأَنَموذج الوحيد الباقي وهو المَجتَمع العربي . وكان من المحتمل أن يَلْقَى مصرعه تحت وطأة نظام بدوى دَخيل طَفِيلِي يَجمَعُ على عَالمٍ متَحَضَّرٍ غير بدوى . وهذا النظام البدوى ؛ ماثِلٌ في سيطرة الأرقاء المَالِيكِ على مصر . فَكأن من المحتمل أن يَلْقَى المَجتَمع العربي نَهايته تحت وطأة هذا النظام ، لولا أن هذا المَجتَمع قدَّم حالة فريدة من الانهيار تحت سَنابك غاز دَخيل .

وفضلاً عن ذلك ؛ فإن التأثير المدمر لتأليه نظام الدولة الإقليميه ذات السيادة - خلال العصر ما بعد الحديث من التاريخ الغربى - قد ألْهَبَ حدته مؤثر شيطاني . فقد زال النفوذ الكابح الذى كانت تمارسه الكنيسة العالمية . فإن تأثير الديمقراطية - فى شكل نزعة قوميه صاحبها فى كثير من الحالات نوع من العقيدة المذهبية - قد جعل الحرب أشدَّ ضراوة . وجاء التصنيع والتكنولوجيا فزودا المتحاربين بأسلحة تعظم طاقتها التدميرية باستمرار .

ولا ريب فى أن الثورة الصناعيه التى أخذت تؤثر على العالم الغربى فى القرن الثامن عشر المسيحى ؛ هى صورة مقابلة تماماً للثورة الاقتصادية التى دَهِمَت العالم الهليني خلال القرن السادس قبل الميلاد . فى كلتا الحالتين : أخذت الجماعات التى كانت تحصل فيما مضى على معاشها - معترلة بنفسها فى كثير أو قليل - من الزراعة الاستهلاكية : أخذت تدخل مع بعضها البعض فى مشاركة اقتصادية ، تستهدف زيادة إنتاجها ودخلها ، بفضل بصرها بإنتاج السلع التى تتخصص فى إنتاجها وتبادلها .

وبقيامها بهذا الأمر ؛ زالت عنها صفة « الاستكفاء الذاتى » . ولم يُعُدْ فى وسعها أن تعود إليه ، حتى وإن شاءت . والنتيجة فى كلتا الحالتين ؛ بناء المَجتَمع بناءً جديداً على المستوى الاقتصادى ، وهو بناء مَبَايِن لَبَنائِهِ على المستوى السياسى . ولقد قابلتنا فى دراستنا - أكثر من

مرة - النتيجة المدمرة لهذا التناقض ، على التركيب الاجتماعى للمجتمع الهليني .

وإذا كان لإنبعاث النزعة الحربية أثر مهلك فى تاريخ الحضارات ؛ فإن ظهورها فى بروسيا - فى بداية الأمر - فى عصرى الملكين البروسيين : فردريك وليم الأول وفردريك وليم الأكبر (١٧٠٣ - ٨٦ ميلادية) ثم فى ألمانيا فى مجموعها ؛ ليُعتبر أحد الأعراض الهدامة فى التاريخ الغربى الحديث . وقد اختلفت الحرب وقتذاك عن الحرب فى جميع عصور التاريخ الغربى الحديث ، من ناحية ضعف طاقتها التدميرية ، ومظهرها الذى كان يتسم بالتكلف . لكن النزعة الحربية الشبيهة بالكلب العقور ، التى إنبعثت فى مرحلتها الأخيرة فى ألمانيا تحت حكم الاشتراكية الوطنية ؛ لا يمكن أن تُقرن إلا بـ « الاندفاع الأشورى » بعد أن رفع تيجلات بيلسر الثالث (حكم ٧٤٧ - ٧٢٧ ق . م) حدته إلى منتهائها . أما القول بأن ما أصاب أداة الحرب الألمانية الاشتراكية الوطنية من تحطيم ، قد أدى إلى القضاء على النزعة الحربية فى جميع أنحاء العالم الغربى الصبغة ؛ فإنه يبدو حتى وقت كتابة هذه السطور ، موضع شك كبير .

بيد أن ثمة بشائر تحذرو إلى التفاؤل فى مواجهة هذه النذر المشؤمة . فلقد استطاعت الحضارة الغربية التخلص من نظام قديم لم يكن يقل عن الحرب شراً ؛ ذلك هو نظام الرق . ومن ثم ؛ فإن فى وسع الحضارة الغربية أن تستمد من هذا النجاح المنقطع النظير ، قوة تمكنها من القضاء على نزعة الحرب هذه . فلا يخفى أن الحرب والرق سرطانان توأمان أُصيبت بهما الحضارة منذ ظهرت إلى الوجود ؛ وإن الانتصار على أحدهما بشير بالقضاء على الآخر .

ثم إن هذا المجتمع الغربى الذى ما زال موصوماً بنزعة الحرب ، قد استطاع أن يشهد عزيمة فى مجالات روحية أخرى :

ففي استجابته للتحدى الذى استثاره ضغط السياسة الصناعية على نظام الملكية الخاصة ؛ استطاع المجتمع الغربى فى كثير من البلاد ، أن يشق طريقاً وسطاً بين السياسة الاقتصادية القائمة على الفردية المطلقة - من جانب - وسيطرة الدولة الجاعية على أوجه النشاط الاقتصادى ، من جانب آخر (١).

كذلك حقق المجتمع الغربى بعض النجاح فى مسابقة تأثير الأفكار الديمقراطية على التربية . فإن الديمقراطية قد فتحت أبواب الثقافة على مصراعيها للجميع ؛ تلك الأبواب التى ما فتئت فى حراسة أقلية صغيرة حريصة ، تستغلها منذ فجر الحضارة ، استغلالاً تعسفياً . وبذلك أعطت الروح الديمقراطية الغربية الحديثة ، البشرية أملاً جديداً .

إلا أنها دفعت ثمن ذلك ؛ حين عرضت البشرية لخطر جديد ، لما جره تعميم التعليم العام من إنطلاق ألوان الدعاية دون وعى ؛ وتظهر فى ما يقوم به رجال الإعلان ووكالات الأنباء والجماعات المتكتلة صاحبة النفوذ ، والأحزاب السياسية ، والحكومات الديكتاتورية ؛ ما يقومون به من إستغلال الجماهير ، إستغلالاً يجمع بين المهارة ومجافاة المبادئ* . والأمل معقود فى احتمال أن يخفق هؤلاء المستغلون للجماهير من أنصاف المتعلمين ، فى أن « يكيّفوا » ضحاياهم بحيث يحولوا بينهم وبين مواصلة تعليمهم إلى الحد الذى يزودهم بحصانة تقيهم شر هذا الاستغلال .

على أن المعركة الروحية الحاسمة التى جابهت رجل الغرب عام ١٩٥٣ ،

(١) فى الأصل : يجابه طريقاً بين سيللا Scylla وخاربيديس Charybdis . ولقد ذكر هوميروس فى الجزء الثانى عشر من الأوديسية ، أنه اسم كائن مخيف له ستة رؤوس يعيش على شجرة تكتنفها دوامة من الماء . وكانت الرؤوس فى وضع يجعلها تحول بين مرور أحد من بوغاز مسينا . (المترجم)

لم تُنشب على الصعيد الحربى ولا على الصعيد الاجتماعى أو الاقتصادى أو الثقافى .
لكن ميدان المعركة الروحية الحاسمة وقتئذ كان حول موضوع الدين .

فهل وصل الأمر بالديانات : اليهودية والمسيحية والإسلام ، إلى حد
أنها تستعصى على العلاج بسبب روح التعصب الجارف الذى يحفل به تاريخها
ويناقض مبادئها ؟

وهل ثمة فضيلة كامنة فى التسامح الدينى الذى جنح إليه العالم الغربى فى
أواخر القرن السابع عشر الميلادى ، وقد صحا من أوهامه ؟
وإلى متى تظل نفوس الناس فى الغرب محتملة مواصلة العيش بدون عقيدة
دينية ؟

وإذا كانت نفوس الناس فى الغرب قد استبد بها قلق الفراغ الروحى
ففتحت الباب لدخول شياطين مثل : القومية والفاشية والشيوعية ؛ فإلى متى
يظل إيمانها الذى كسبته أخيراً بالتسامح ، صامداً للتجربة ؟

لقد كان التسامح سهلاً ميسراً فى عصر إمتاز بفتور العقيدة الدينية ،
فقدت أثناءه ألوان المسيحية الغربية سيطرتها على قلوب المسيحيين وعقولهم ؛
فى الوقت الذى لم تجد فيه هذه القلوب والعقول أهدافاً بديلة توجه إليه ولاها
المضيع . فالآن وقد أخذت تغازل آلهة أخرى^(١) ؛ فهل تستطيع نزع تسامح
القرن الثامن عشر أن تصمد أمام نزع تعصب القرن العشرين ؟

إن السائرين فى بيداء المجتمع الغربى - وقد انحرفوا عن طريق الإله الواحد
الصمد الذى آمن به أجدادهم - أولئك الذين علمتهم التجربة الواقعية بأن
الدول الإقليمية - مثل الكنائس الطائفية - أو ثنائ تجلب عبادتها الحرب
لا السلام ؛ أن هؤلاء السائرين فى بيداء المجتمع الغربى ، قد تدفعهم التجربة

(١) يقصد المؤلف بالآلهة الأخرى : مذاهب الشيوعية والفاشية والنازية وما إليها من

النظم الجامعية . (المترجم)

إلى التعلُّق بهدف بديل لعبادة الأوثان وهو « الإنسانية الشاملة »^(١) . إن « عبادة الإنسانية » التي فقدت حيويتها في القلب الجاف الذي صاغته فلسفة أوجست كومت الوضعية^(٢) ، قد هزت أنظار العالم عندما انطلقت مدوية من أفواه الشيوعية الماركسية .

لقد سبق أن شنت المسيحية وهى فى عنفوان قوتها ، حرب حياة أو موت — لخلاص أرواح البشر — ضد العبادة الهلينية لمذهب « الإنسانية الشاملة » ؛ متمثلة فى « الربة روما » و « الرب قيصر » ، ففازت فى المعركة . فهل قدّر عليها مرة أخرى بعد إنقضاء ألفى سنة ، أن تشن معركة جديدة ضد تجسيد جديد لنفس هذه العبادة الرهيبة ؟

لقد أثارت العبادة الهلينية فى نفوسنا نفس السؤال ؛ لكنها لم توح لنا بالإجابة المنشودة .

* * *

فلذا ما انتقلنا الآن من أعراض إنهيار المجتمع الغربى إلى أعراض تحلله ؛ يتبادر إلى أذهاننا ما ألفيناه أثناء تحليلنا « الانقسام فى الكيان الاجتماعى » ؛ من آثار واضحة المعالم عن وجود انقسام مميز ذى شعب ثلاث فى العالم الغربى الحاضر :

أقلية مسيطرة — بروليتاريا داخلية — بروليتاريا خارجية .

(١) الإنسانية الشاملة أو الجماعية : أى النظم التى تَجَبُّ الحرية الفردية وتجعل من الجماعة أساس النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مثل الشيوعية والفاشية . (المترجم)

(٢) الفلسفة اليقينية أو الوضعية : تحصر هذه المدرسة الفلسفية تمامها فى « التجربة » وتصدف عما دون ذلك . ومن ثم ؛ فإنها لا تؤمن بالقيم الروحية الدينية باعتبارها شيئاً غير محسوس . ويرى أوجست كومت مؤسس المذهب اليقنى ، ضرورة إعادة تقييم القيم الاجتماعية والمنوية على ضوء العلوم الصحيحة . (المترجم)

بالنسبة للبروليتاريا الخارجية ؛ فإنها تنقسم إلى ثلاث فرق :

الأولى - البروليتاريا الخارجية الغربية . ولسنا بحاجة إلى الوقوف عندها . لأن المتبربرين الأول ، قد استبعدوا - لآ عن طريق الإبادة - ولكن بنقلهم إلى صفوف البروليتاريا الداخلية الغربية ، التى أصبحت تضم بين ظهرانيها أغلبية كبرى من جيل البشرية التآئم . وهكذا غدا البرابرة - وقد تم إستئناسهم قسرا - إحدى الكتائب الصغيرة التى تألفت منها هذه البروليتاريا الداخلية - الواسعة النطاق - فى المجتمع الغربى فى القرن العشرين .

الثانية - وأعظم من هؤلاء المتبربرين نصيباً ، أبناء الحضارات الغير الغربية الذين وقعوا فى شرك الغرب التى أخذتهم من كل جانب .

والفرقة الثالثة - تعتبر أقل الفرق الثلاث حظاً ؛ وبالتالى أشدها عزلة . وقد تألفت من الشعوب المختلفة التى اقتلعت من أصولها سواء أكانت أصولا غربية أو غير غربية . وقد طفقت تكابد مختلف درجات القهر . فمنهم المنحدرون من أرقاء الزنوج الأفريقيين الذين أقتيدوا بالقوة عبر الأطلسى ، ومنهم سلالة العمال الصينيين والهنود المستوردين بعقود ، الذين حُمِلوا عبر البحار بوسائل لا تقل قهراً عما اتُّبع بالنسبة للعبيد الإفريقيين . ثم كان هناك آخرون أقتلَعوا من مواطنهم إقتلاعاً ، دون أن يعبروا البحار .

وأكثر أمثلة الاصطباغ البروليتارى قوة ؛ تتجلى فى « البيض المساكين » فى الجنوب العتيق من أرض الولايات المتحدة وفى اتحاد جنوب أفريقيا . وهم الذين انحدروا إلى المستوى الاجتماعى الذى كان عليه إخوانهم المستعمرون الأكثر نجاحاً : سواء أكانوا مجلوبين ، أو أرقاء أفريقيين من أهل البلاد .

بيد أنه يمكن القول ؛ أن فوق هذه الجماعات التى عرفت بيوتها ، تقوم بروليتاريا داخلية ؛ حيثما وجدت جماهير من الناس من أهل الحضرة

والريف ، تحسّن بأن النظام الاجتماعى الغربى لم يتح لها ما هى جديرة بالحصول عليه ، وتتفق حالتها مع تعريفنا لها : ذلك لأن تعريفنا للبروليتاريا فى كل مكان من هذه الدراسة ؛ يقوم على إعتبارات سيكلوجية . وقد التزمنا هذا التعريف باستمرار لنعنى به أولئك الذين يحسّون بأنهم لم يعودوا بعد ، ينتمون روحانيا إلى المجتمع الذى يجدون أنفسهم — ماديا — يعيشون فى نطاقه .

ولقد وجد رد الفعل البروليتارى ضد الأقلية المسيطرة ، تعبيراً عنيفاً خلال أوقات متعددة وفى أماكن مختلفة : منذ حروب الفلاحين خلال القرون الوسطى ، إلى يعاقبة الثورة الفرنسية . وقد عبّر رد الفعل البروليتارى عن نفسه فى منتصف القرن العشرين الميلادى تعبيراً أشد قوة مما سبق له التعبير فى أى وقت من الأوقات . وتم ذلك فى نطاق مجريين :

الأول — اتخذ رد الفعل إتجاها شيوعيا ، حيثما كانت المظالم اقتصادية فى الغالب .

الثانى — اتخذ رد الفعل إتجاها وطنياً ثورياً ضد الاستعمار ، حيثما كانت المظالم سياسية أو عنصرية ؛

وكان أن ظهر للعيان عام ١٩٥٥ ميلادية ؛ عِظَم الخطر الذى يهدد الحضارة الغربية من جانب الكتلة الروسية الصينية الشيوعية . بيد أنه كان ثمة من الناحية الأخرى عوامل تحدّ من الخطر هى أقل إثارة ، ولكنها ليست بالضرورة أقل أثراً :

فالأمر الأول الذى نجده فى صالح الحضارة الغربية المهددة ، هو ذلك المزيج من الوطنية الروسية الذى نجده فى الشيوعية الدولية . فإنه وإن كانت روسيا تؤكّد — فى غيرة تماثل غيرة القديس بولص — بأنها تنجرد تماماً من حماقة التمييز العنصرى بين الشعوب ؛ إلا أن عدم إخلاصها الحقيقى لما تزعمه ، يُضعف القوة المعنوية للشيوعية . ذلك لأنه فى الوقت الذى

كانت قضية الغرب تعاني في شرق آسيا خصومة رهبة ؛ كان في وسع الغربي الذي تنسب له قراءة أفكار سياسة الكرملين الصامتين أن يدرك أنهم يرقبون - بمزيج متناقض العواطف - إنتصارات حلفائهم الصينيين ، فإن مستقبل مانشوريا ومنغوليا ومنكيانج ، له قبل كل شيء أهمية خاصة للصين وروسيا كليهما ؛ أهمية تفوق بكثير ، أهمية مستقبل الهند الصينية وهونج كونج وفورموزا .

لقد كان من الواضح أن من الممكن أن يغدو المينكوف أو خليفة خروشوف أو خليفة خروشوف : تيتو آخر^(١) . وأنه بعد أن أعاد الغرب تسليح ألمانيا واليابان - وبعد أن أعاد الاتحاد السوفيتي تسليح الصين - عندئذ قد يهمل الغرب لإنبعاث الوطنية الروسية باعتبارها « أمل الإنسان الأبيض »^(٢) .

(١) مذهب تيتو : يعنى قيام الشيوعية في بلد واحد يكيف مبادئها وفقاً لظروفها الخاصة . وبالأحرى فإن الشيوعية عند تيتو ليست دولية الطابع بل قومية . ولا يلتزم البلد الذى يعتنقها باقتفاء أثر بلد شيرعى آخر . وكانت بقية البلاد الشيوعية تعتبر هذا الرأى انحرافاً عن الشيوعية الأصلية ، بيد أن الأمور تطورت في أوروبا الشرقية حتى أصبحت جميعها تعتنق مذهباً شيوعياً وطنياً تطبقه وفقاً لمصالحها القومية ولم تعد ترتبط بالبلاد الشيوعية الأخرى - أى الشيوعية الدولية - إلا بما يتفق ومصالحها القومية .

ويقصد الأستاذ المؤلف هنا أن الأمور قد تتطور تطوراً يدفع روسيا إلى إعتراف مذهب شيوعى أوربى ، وإعتناق الصين مذهباً شيوعياً صينياً فتقوم العدواة بين الدولتين . وهذا ما أيدته الأحداث داخل الكتلة الشيوعية بالفعل . (المترجم)

(٢) إن الآراء التى أبدتها الأستاذ المؤلف عام ١٩٥٥ بشأن توقعه تصدع الشيوعية الدولية ، حققها الأحداث التى ما انفكت تظهر على مسرح السياسات الدولية . إذ يستفحل تفكك وحدة العالم الشيوعى يوماً بعد آخر . ومناطق الأسباب الحقيقية ، هى كما أشار الأستاذ المؤلف : المصالح القومية ، وهى تمكس بدورها « المظاهر الحضارية القومية » . فإن المصالح القومية فى القوميات التى تكون العالم للشيوعى ، أصبحت تطفو على سطح الأحداث . وتبين للباحثين أن أحكام التاريخ - أو التطورات الحضارية باستخدام مصطلحات الأستاذ المؤلف - أقوى من المبادئ المذهبية وأعمق تأثيراً وفعالية من آراء الأيديولوجيين . إذ تبدى =

= للبيان أن مستقبل الشيوعية قد بات يتوقف على اختلافات الأحزاب الشيوعية في تطورها تطوراً قومياً وطنياً . كما أوضحت الأحداث التي تمر بها الشيوعية الدولية ، خطأ كارل ماركس في تجاهله أن التقسيمات القومية كفيلة بأن تطلق في الشيوعية الدولية قوى عارمة ، قمينة بتفتيت وحدتها وتقويض دعائم الجهاز الذي يشرف على عملية التوحيد . فإن كارل ماركس لم يتوقع عجز التنظيم الدولي الخاضع لسيطرة مركزية ، عن الصمود لضغوط الحركات القومية داخل التنظيم لتسهم زمام حكم بلادها وإدارته وفق المصالح الوطنية التاريخية . فالتاريخ - حقاً - أقوى من المبادئ مهما تسامت في المنطق والفكر .

فلقد أثبتت الأحداث الأخيرة ؛ أن كلا من الاتحاد السوفيتي والصين ، يجابه مجموعة مختلفة من المشكلات والأفكار والفرص ، وأن كلا منهما - مسيراً بالتاريخ - يعمل في المكان الأول تحقيق مصالحه الخاصة . وتبين - بمرور الأيام - أن كلا من الفريقين ، يضطلع بمسؤوليات داخلية وخارجية تتطلب منه سلوك طريق معين قد يخفى الطريق الذي يتخذه الفريق الآخر . فأمسر هذا عن انبعاث مشكلات تفسد علاقات البلدين . بل طفت إلى سطح الأحداث ، رواسب الماضي وأحقاده الكامنة في أعماق اللاشعور في نفسية الشعبين ، والتي ظنَّ - خطأ - أن اشتراك البلدين في أيديولوجية واحدة يكفل زوال الماضي وبداية عهد جديد من التعاون والتآزر ضد العدو المشترك : الامبريالية . وفي الحق ؛ فإذا كانت الصين والاتحاد السوفيتي قد تعاونا في الماضي ، فقد كانت المصالح القومية لحمة التعاون وسداه .

وشمة ظاهرة - في موضوع الصراع السوفيتي الصيني - هامة للغاية . فإن الأحزاب الشيوعية الأوروبية تقف - عدا القليل النادر منها - في صف الاتحاد السوفيتي ، في حين توازر الأحزاب الشيوعية الآسيوية الأفريقية - عدا القليل منها - الصين الشعبية . وهذا ما يجعل للصراع الصيني السوفيتي مظهراً خاصاً له نتائج الرهبة . فإن الأحزاب الشيوعية الآسيوية الأفريقية مسيرة بعقلها الباطن بشعور أن روسيا دولة بيضاء تنتمي إلى العنصر الذي ذاق الملونون على يديه ويلات الاستعمار والامبريالية والاضهاد العنصري .

وهكذا تكوّنت في العالم - من ناحية الجوهر - كتلتان شيوعيتان : آسيوية / أفريقية تنزعها الصين الشعبية ، وأخرى أوروبية تنزعها موسكو . ولقد أصبح لهذا الانقسام صدى يشتد يوماً بعد آخر ، تقبينه في دراسات الباحثين في الشؤون الدولية ، وتُجمع كلها عن تقارب فكري بين الاتحاد السوفيتي وبقية أوروبا ، يشتد يوماً بعد آخر وستكون له نتائج على الصمغدين السياسى والاقتصادى مما يحقق حلم ديمول عن أوروبا : من الأورال إلى الأطلسي . وهذا التقارب - كما يقول الباحثون الأوروبيون - يؤكد انتماء روسيا إلى الحضارة الأوروبية وانتصار الثقافة الأوروبية - في نهاية المطاف - في روسيا ، وهو ما جاهد لتحقيقه القيصر بطرس الأكبر ومن تلاه من الحكام والمفكرين الروس ، وهو اتجاه عطلته - كما يقولون - انحرافات التاريخ . (المترجم)

وقديماً سفته الناس القيصر ولهم الثانى^(١) لتنبيهه الأذهان إلى « الخطر الأصفر » وكانوا يحسبون هومو جنوناً . لكن ؛ ما يزال بعض الكتاب يتمسك بالقول بأنه لم يكن حسن النية فحسب ، بل كان رجلاً حاذقاً كذلك . ومما له دلالة ، أن هتلر كان يثنى بالمثل على رأى القيصر فى هذه النقطة بالذات . ولهذا الدلالة التى تبدو للوهلة الأولى غير مقنعة ، أساس صلد يقوم على حقيقتين لا تقبلان الجدل :

الأولى — أن روسيا هى الأرض الرئيسية الوحيدة فى بلاد الجنس الأبيض ، حيث ظل السكان يتزايدون خلال القرن العشرين وفقاً لمعدل زيادة سكان أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية خلال القرن التاسع عشر .

الثانية — أن روسيا أيضاً من بلاد الجنس الأبيض التى تتاخم حدود الصين والهند .

فإذا أتيح لإحدى هاتين الدولتين أو كليهما معاً (وكل أشبه بالقارة ويضم حوالى ربع الجنس البشرى تقريباً) أن تصلا — بعملية اقتباس النظم الغربية الإدارية والتكنولوجية — إلى المدى الذى تصبح عنده القوة البشرية العاملة الهندية أو الصينية ، يُحسب حسابها فى ميزان القوى العالمية الحربية والسياسية وفقاً لنسبتها العددية وحدها ؛ هنا يُنتظر أن يصير مثل هذا الجبار العاقى الممكن ، على إجراء تعديل تام فى توزيع أراضي العالم وفى توزيع ثرواته ، وهو توزيع لا يزال مجافياً للعدالة .

عندئذ ؛ قد تجد روسيا نفسها — وهى تكافح لصيانة كيائها نفسه — مسوقة دون إرادتها لتُسدّى للعالم الغربى الذى يقف مترخياً محتبياً وراء أسوارها ؛ تُسدّى إليه مينة قيامها بدور الدولة الحاضرة . وهى منة لا يتوقع

(١) إمبراطور ألمانيا الذى دالت دولته بعد خسارتها الحرب العالمية الأولى .

(المترجم)

لها من الغرب جزاء ولا شكورا ؛ وقد سبق أن قامت الكتلة الرئيسية للعالم المسيحي الأرثوذكسى^(١) بتأدية هذا الدور لهذا العالم الغربى نفسه . ولم يأت الخطر وقتذاك من الهند أو الصين ؛ لكنه جاء من جنوب غربى آسيا ، بعد أن توحدت تحت قيادة قوة ديناميكية فتيه هى : قوة العروبة والإسلام .

إن هذه التنبؤات المتصورة إلى أبعد حدود التصور تمت بكليتها إلى مستقبل لم تتضح معالمه للناظرين بعد . ولعل ثمة ما يبعث على الأمل فى أن الجماعة الغربية التى اصطدمت بالصينيين بعنف فى كوريا واشتركت فى صراع يائس فى الهند الصينية ؛ قد توصلت إلى اتفاق مع الأندونيسيين غداة تحررهم من حكم اليابانيين ، وتنازلت مختارة عن سلطانها إلى أهالى الفلبين وسيلان وبورما والهند وباكستان .

وإن عملية المصالحة التى تمت من قارة آسيا - ممثلة فى جماعات مختلفة كانت خاضعة للسلطان البريطانى - وبين المجتمع الغربى - ممثل فى القادة البريطانيين - إن هذه العملية ؛ قد فتحت باب الأمل بأن جماعة - على الأقل - من الحشد الأسوى الضخم فى البروليتاريا الغربية الداخلية الواسعة النطاق التى تسعى قُدُماً إلى الانفصال عن الأقلية الغربية المسيطرة ؛ إن ثمة أملاً بأن هذه الجماعة قد تحوّل طريقها وتتجه إلى هدف آخر يقوم على المشاركة على قدم المساواة مع السادة الغربيين السابقين .

وقد يحدث نفس الشيء فى أقطار العالم الإسلامى فى آسيا وشمال إفريقيا ، ولعظم الأقطار الأفريقية جنوب الصحراء . لكن ثمة مشكلة أشد من ذلك تعقداً ، قائمة فى تلك المناطق التى أغرت أحوالها المناخية الأوربية باستيطانها ، فضلاً عن بسط سيطرته عليها . وتتبدى نفس المشكلة - ولكن فى وضع أقل خطورة - فى المناطق التى استجلب إليها الأوربي عناصر غير بيضاء

(١) أى الإمبراطورية البيزنطية . (المترجم)

لتؤدى للرجل الأبيض ضروب الأعمال الكريمة والبدائية التي يكره هو القيام بها . ويبدو الاختلاف في درجة الخطورة في الحالتين - من وجهة نظر الإنسان الأبيض - في الإحصاءات الموضوعة عن التكوين العنصرى للأهالى المحليين . فحيثما يكون السكان غير البيض هم أهالى البلاد - كما هو الحال في جنوب إفريقيا - فإن عددهم يطغى على الأقلية البيضاء المسيطرة . أما في البلاد التي يستجاب إليها غير البيض على غير إرادتهم - كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية - فإن الأكثرية البيضاء المسيطرة ، تطغى على الأقلية الغير البيضاء .

وفي الولايات المتحدة - وقت كتابة هذه السطور - لقي الاتجاه نحو تقوية الحاجز اللوى بحيث يتحول إلى تمييز طبقى على نحو ما عرفته الهند ؛ لقي مناهضة من إتجاه مضاد مستمد من روح المسيحية . وإذا كان من المتعذر - الآن - أن نرى ما إذا كان هذا الهجوم - المستمد من المسيحية - أملاً ضائعاً أو « بادرة للمستقبل » ؛ فإنه لبشير بالخير ، أن نرى روح الخلاص تفعل فعلها في الولايات المتحدة وفي الهند على السواء . ومصادقاً لذلك ؛ نجد الضمير المسيحى في قلوب الغالبية المسيطرة من البيض التي تمسكت فيما مضى بتحرير العبيد قد تحققت من أن العتق عن طريق التشريع وحده ، لا يكتفى . كما نجد - في الناحية الأخرى - أن البروليتاريا الملونة تبدى - بنفس الروح - إمارات استجابة .

ولقد شاهدنا في قسم سابق من هذه الدراسة ؛ أن نفور البروليتاريا الداخلية ، هو أوضح ظواهر التحلل لأية حضارة . ونحن إذ نضع هذا أمام أبصارنا ؛ ماضون في البحث عن أية دلالة لهذا النفور . ولهذا المصاحبة معاً ، في داخل المجتمع الغربى ؛ كما هو قائم في منتصف القرن العشرين :

ولقد دأبنا - باستخدام نفس المنهاج - على أن نتمق في بحث تلك

العناصر من البروليتاريا التي لا تمت بأصلها إلى أرومة أوربية ، ولكنها جُلبت داخل حدود المجتمع الغربى عن طريق التوسع الغربى الذى شمل العالم بأسره . على أنه لا حاجة إلى القول ؛ أنه يزال هناك ، ذلك الجزء الكبير من البروليتاريا الذى لا يتأتى — من الناحية العنصرية — تمييزه عن الأقلية المسيطرة . ونعنى به ؛ هذه الغالبية من أهل الغرب رجالا ونساء ، الذين كان « كبار القوم » — الذين نشأوا فى أحضان الأقلية الممتازة التى عرفها الغرب فى القرن التاسع عشر — ينعتونهم بأسماء مختلفة مثل : « الطبقات العاملة » و « الطبقات الدنيا » و « للعامة » و « الجماهير » : بل إنهم قد يطلقون عليهم فى سخرية لاذعة اسم « الجمهرة غير النقية » .

هنا ؛ تروعا ضخامة المشكلة . ويجب أن تكتفى بالقول : بأنه فى جميع الأقطار الغربية — وبصفة خاصة فى أعظمها تقدما فى الصناعة وأعلاها كعبا فى إعتناق الأساليب العنصرية — حدث خلال نصف القرن الأخير فى كل مجالات الحياة ، تقدم حقيقى هائل نحو تحقيق العدالة الاجتماعية :

ولم تكن الثورة السياسية التى بوساطتها تحررت الهند من السلطان البريطانى ؛ أقل بهاء من الثورة الاجتماعية فى بريطانيا ، حيث كانت القوة والثورة والفرص المتاحة — إلى عهد قريب — حكرا على أقلية ضئيلة متخمة بالامتيازات . وعن طريق هذه الثورة الاجتماعية ؛ استطاع ذلك البلد الغربى أن يتحول إلى جماعة حققت قدراً كبيراً من العدالة الاجتماعية على حساب التضحية بقدر ضئيل من الحرية الفردية . ولم يتخلف عن هذا التحول عند البجائين ، سوى القليل النافه من شعور البغضاء .

وصفوة القول ؛ إن الاستعراض الآنف الذكر للوقائع الداحضة — أو المؤيدة — لترجيح القول بتردى الحضارة الغربية فى الكارثة بفعل حدوث انقسام داخل بروليتاريا داخلية فيها ؛ إن هذا الاستعراض يُثير لتيجتين محتملتين :

الأولى - أن القوى التي تعمل في سبيل المصالحة ، تبدو أقوى من القوى المناظرة لها التي كانت تعمل في المجتمع الهليني ، في مرحلة مناظرة من تاريخه .

الثانية - أن هذا الاختلاف - الذي هو في صالح الغرب - يبدو أنه يرجع - أساسا - إلى التأثير المستمر لروح مسيحية ، لم تفقد سيطرتها - بعد - على قلوب الرجال والنساء في الغرب . وذلك رغما عن أن عقولهم قد تعرضت عن العقيدة التي تُرجحت فيها حقائق المسيحية الثابتة إلى اللغة الفانية : لغة الفلسفة الهلينية الوثنية .

حقا ؛ إن المجتمع الهليني - موضوع المقارنة - كان مفتقرا بشكل واضح إلى تلك الحيوية الدافقة التي هي من سمات الدين الأسامي ؛ تلك الحيوية التي زوّدت بركة المجتمع الغربي بـ « يفعتة » . وقد يكون من باب التخمين ؛ أن ثمة شيئا من العلاقة بين هذه المزايا الظاهرة للعيان التي يتمتع بها جوهر الروحانية المسيحية ، وبين جذب الأديان الأخرى التي أطلّت برأسها - إبان ذلك العصر - في أماكن مختلفة من أنحاء العالم الغربي .

ونستطيع أن نختم بحثنا هذا بأن الشهادة المستخلصة من الأحداث السابقة في المجتمع الغربي لا تعتبر حاسمة في إيضاح مستقبل الحضارة الغربية .

(٢) تجارب غربية فريدة

ما برحنا حتى الآن ؛ نتحرى في الحضارة الغربية خلال مرحلة عصورها التي دعوناها « ما بعد الحديثة » ، عناصر يمكن مقارنتها بنظائرها في تاريخ الحضارات الأخرى . بيد أن ثمة - كذلك - عناصر لا نظير لها في تاريخ الحضارات الأخرى .

ويظهر أمام أنظارنا مظهران تنفرد بهما الحضارة الغربية :

الأولى — المدى الذى بلغه الإنسان فى الغرب فى سيطرته على الطبيعة غير البشرية .

الثانى — السرعة المتزايدة للتغير الاجتماعى الذى حققته تلك السيطرة .

حقا ؛ كان الجنس البشرى سيد الإبداع على الأرض منذ سلك طريق الارتقاء التكنولوجى : من مرحلة العصر الحجري الأدنى ، إلى مرحلة العصر الحجري الأعلى . ونعنى بذلك ؛ أنه منذ ذلك الوقت ، بلغ الإنسان مرتبة تكنولوجية لم يعد معها مستطاعا — سواء للطبيعة الجامدة أو أى مخلوق آخر غير بشرى — أن يستأصل الجنس البشرى ، أو حتى أن يعرقل تقدمه .

ومن ثمت ؛ لم يكن فى وسع أى كائن على الأرض أن يعترض طريق الإنسان أو يدفع به إلى الدمار ، اللهم إلا الإنسان نفسه . ذلك لأن الإنسان — كما رأينا — قد إنساق ضوب الهلاك بفعله هو ؛ مصداقا لما رأيناه فى الأربع عشرة أو الخمس عشرة حضارة . وها هو يستبين له بوضوح — فى خاتمة المطاف — أنه بعد نجاحه فى تفجير القنبلة الذرية عام ١٩٤٥ ، قد بات يستحوذ على درجة من السيطرة على الطبيعة الغير البشرية ؛ بحيث تعذر عليه بعد ذلك ، أن يتجنب تحدى الآفتين اللتين جلبهما بنفسه على رأس العالم ؛ وذلك حين زود نفسه بنوع جديد من المجتمعات : فى شكل مجتمع لا يزال فى طور التحضر .

إن هاتين الآفتين التوأمين ، مظهران مختلفان لآفة واحدة هى : الحرب . على أنه قد يكون من الملائم التمييز بينهما بإطلاق اسمين مختلفين عليهما :

الحرب كما تفهم عادة .

وحرب الطبقات .

وبعبارة أخرى ؛ الحرب الأفقية ، والحرب الرأسية .

وهذا موقف لم يُهَيِّأ الجنس البشرى لمواجهته ؛ ولدراسة احتمالاته ؛
 عسانا أن نُعالج الأمر بتبسيط مهمتنا ، وذلك بتقسيم عملنا إلى مبحثين
 منفصلين :

الأول - التكنولوجيا والحرب والحكومة .

الثاني - التكنولوجيا وحرب الطبقات والعمالة .

الفصل الثاني والأربعون

التكنولوجيا والحرب والحكومة

(١) احتمالات حرب ثالثة

كان من نتائج الحربين العالميتين الأخيرتين ؛ أن الدول العظمى قد تناقص عددها من مجموعة من الدول ، يتفاوت عددها من حين إلى آخر . وضمت في نطاقها دولاً - كإيطاليا - أضمت عليها المجاملة البهجة ، لقب الدول العظمى ؛ على الرغم من أن كل امرئ يدرك عجزها عن القيام بالواجبات التي يتطلبها هذا المركز . ولقد تناقص عدد هذه الدول العظمى إلى دولتين عظيمتين فقط هما : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

فرض الاتحاد السوفيتي سلطانه على ألمانيا الشرقية . كما فرضه - كذلك - على معظم الدول التي تخلقت عن الإمبراطوريتين السابقتين : الهابسبرجية والعثمانية^(١) . وهذه الدول ، سبق أن اجتاحتها الرايخ الثالث الوطني الاشتراكي في غضون الحرب العالمية الثانية : والسبب الوحيد في أن ألمانيا الغربية وجمهورية النمسا (التي أقيمت في فترة ما بين الحربين) لم تلقيا مصير جيرانهما في الوقوع في قبضة الروس حتى عام ١٩٥٦ ، هو أن هذين البلدين وقعا - في الوقت نفسه - تحت حماية الولايات المتحدة وحليفاتها من دول غرب أوروبا .

حقاً ؛ بات واضحاً أن إستبدال إستقلال يصعب الدفاع عنه بحماية

(١) تألفت الإمبراطوريتان في أوروبا من دول البلقان جميعها ومن المجر والنمسا وتشيكوسلوفاكيا والجزء الغربي من بولندا . (المترجم)

الولايات المتحدة - حتى ذلك الوقت - هو الضمان الوحيد ضد السيطرة الروسية (أو الصينية) التي تُنذر بأن تُصبح - على طول المدى - أمراً خطيراً لأية دولة في العالم .

ولقد ألفت الولايات المتحدة فترة طويلة أن هذا الدور في العالم الجديد .
وها هي تؤديه في العالم القديم . فإن مبدأ مونرو - منذ عقد المحالفة المقدسة^(١) حتى الرايخ الثالث - قد عصم الدول التي تخلّفت عن الإمبراطوريتين الإسبانية والبرتغالية في القارة الأمريكية ، من الوقوع بين براثن إحدى الدول الأوربية . لكن هذه الدول اللاتينية قد دفعت ثمن ذلك ، قبول زعامة الولايات المتحدة عوضاً عن الإدارة الاستعمارية الإسبانية أو البرتغالية . على أن الخيرين قلما يكونون قريبين من القلوب ؛ فإن لم تتجرد أفعال الخير من شبهات الغرض تماماً ، فإنها تخرج عن نطاق الخير . ويطالعا في المقام ؛ ما أصبحت عليه مشاعر الفرنسيين - مثلاً - إزاء الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٥ ، فإنها لا تختلف كثيراً عن المشاعر التي ما برح البرازيليون - مثلاً - يكتنونها للأمريكيين طوال المائة عام الماضية .

وأياً ما تكون الحال ؛ ففي عام ١٩٥٦ ، ألقى الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة - كلاهما - يجابه أحدهما الآخر باعتبارهما الدولتين العظيمتين الوحيدتين الباقيتين على سطح الأرض . وإذا كان وجود دولتين في أي توازن دولي بين القوى يعتبر - في أحسن الحالات - عدداً يبعث على الحيرة ؛ فيجب أن لا يعزب عن البال أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كانتا - إذا قورنتا بألمانيا واليابان قبل عشرين عاماً - دولتين مكتنظتين

(١) عهد وقعه عام ١٨١٦ قبصر روسيا إسكندر الأول وإمبراطور النمسا وملك بروسيا . وتمهدوا فيه باتباع مبادئ المسيحية في الشؤون الداخلية والخارجية . وإنه وإن كانت الغاية الظاهرة منه المحافظة على السلم ، لكن رنا أولئك الملوك - في الحقيقة - إلى الإبقاء على الأوضاع التي كانت قائمة في أوروبا وقتذاك . (المترجم)

بالثراء في وسعهما توفير العمل السلمى في فلاحه أراضيها ، لعشرات من
السنين القادمة .

لكن أبان التاريخ للعيان ؛ أن الخوف المتبادل ، لا يقل أثراً — كمصدر
للعنوان الحربى — عن الحرمان الاقتصادى . وحقاً ؛ لم يتهباً للشعبين الروسى
والأمريكى أن يفهم كل منهما الآخر . ويبدو ذلك من إختلاف مزاجيهما :
فإن التسليم المتصفا بالوداعة ، هو قوام مزاج الرجل الروسى العادى .
بينما المائل الصاحب ، قوام المزاج الأمريكى :

ولقد انعكس هذا الاختلاف في المزاج ، على موقف كل منهما تجاه
الحكومة المستبدة :

فقد استسلم لها الروس ، باعتبارها قضاء محتوما . أما مريدو الشيوعية
في روسيا ، فقد رأوا هناعهم الكاملة في المساواة النظرية التى ما انفكوا
يخلطون بينها وبين الحرية ، خلطاً يُشِيرُ العجب .

بينما تعلم الأمريكيون من واقع تاريخهم ، النظر إلى الحكومة المستبدة
على أنها نظام أثم في وسع أى شعب خلعه بمحض رغبته . ورأى الأمريكيون
هناعهم كلها^(١) في الحرية الشخصية ، وخلطوا بينها وبين المساواة
خلطاً عجيباً .

وهذه الفروق في المزاج والمبادئ ، جعلت من الصعب على هذين
الشعبين أن يفهم كل منهما الآخر ويثق به . وهذا الارتياب ولد الخوف ،
في وقت تبدلت فيه ساحة النزاع التى يتخذها كل فريق ميداناً يهدد فيه
الفريق الآخر ؛ تبدلت — بل تنكّرت معالمها — بفعل التقدم السريع الذى
أصابته التكنولوجيا ، على نحو لم تعرفه البشرية من قبل . فكان أن تقلّصت
أبعاد العالم — الذى كان يوماً فسيح الأرجاء — بحيث تعلّز على المتنازعين

أن يتخذوا مواقعهم في ساحة النزال دون أن يقترب أحدهم من الآخر ويصطدم به .

وهكذا ؛ يبدو أن التنافس بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة على السلطان ، في هذا العالم الذي أصبح موحداً بفضل التقدم التكنولوجي الحديث ؛ قد تفصل فيه — على طول المدى — أصوات ثلاثة أرباع الجيل البشرى الذى يعيش فى الوقت الحاضر . هذه الجيل الذى لا يزال — بعد انقضاء خمسة أو ستة آلاف سنة منذ فجر الحضارة — يعيش فى نفس المستوى المادى من الحياة ، فى العصر الحجرى الحديث . إلا أنه غدا مُدركاً أن بلوغه مستوى من العيش ، قد أصبح أمراً ممكناً . فإن هذه الغالبية الناهضة التى ما انفكت حتى الآن مغمورة فى ممارسة حقها فى إختيار أى من أساوبى الحياة السوفيتى أو الأمريكى ؛ يتوقع لها أن تختار أياً من هذين الأسلوبين ، يحقق لها آمالها الثورية .

ومع هذا ؛ فعلى الرغم من أن الكلمة الأخيرة قد تكون لهذه الغالبية من الجنس البشرى — من غير الغرب — التى عاشت مغمورة حتى اليوم ، إلا أنه يبدو من المحتمل أن الثقل الحاسم المرجح فى ميزان القوة بين روسيا وأمريكا ، لن يأتى من هذه الأرباع الثلاثة من سكان العالم ، وإنما سيأتى — فى المدى القصير — من هذا الربع الباقى من سكان العالم الذى تتركز فيه فى الوقت الحاضر طاقات الحرب الصناعية فى العالم ، والذى لا يزال يعيش فى فى غربى أوروبا .

فإذا ما استخدمنا مصطلحات علم الجغرافيا ، نستطيع أن نقرر أن ثمة قارة واحدة قائمة الآن هى «أورافراسيا»^(١) تحف بها — على البعد — جزيرتان ضخمتان هما أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية . وعلى مرمى البصر من هذا

(١) أورافراسيا : أوروبا / أفريقيا / آسيا . (المترجم)

المنظر الأرضي ؛ تبدو روسيا وكأنهما القوة البرية ، على حين تبدو أمريكا وكأنها القوة البحرية . وهذا يماثل تماما ؛ دور الدولة البحرية الذى أدته بريطانيا فى الحروب الأوربية الإقليمية الطابع التى نشبت خلال الفترة الحديثة من التاريخ الغربى وقما قامت إسبانيا وفرنسا وألمانيا — على التوالى — بدور أعداء بريطانيا فى القارة .

وما برج الخطر البالغ يكتنف القسم الأوروبى الغربى من عالم ما بعد الحرب . لأنه رأس الجسر الذى تتخذة الدولة البحرية^(١) لبلوغ القارة . فى سالف الأيام ؛ كانت الأراضى المنخفضة^(٢) ميدان صراع « أوروبا الغربية » دارت فيه المعارك العنيفة بين دولها الإقليمية المتحاربة . ويبدو الآن ؛ كما أن أوروبا الغربية بأسرها ستودى — فى حالة قيام حرب عالمية أخرى — دور ميدان الصراع للعالم المتحضر بالحضارة الغربية . ولعل هذا التحول الذى أصاب الخارطة الاستراتيجية ، شىء من القصاص «الشاعرى» . بيد أن موقع أوروبا الغربية كـ « ميدان صراع » ما كان ليصد الأوربيين عن سكناة منذ عام ١٩٤٦ ، كما لم يصد الفلمنك عن سكنى الأراضى المنخفضة منذ الأيام السابقة لنهاية القرن الخامس عشر .

ولم يكن فى مقدور التقدم التكنولوجى أن يضعف سلطان المشاء الإنسانية على ~~مهنون~~ البشر . إذ أن النزعة الحربية لا تمت إلى التكنولوجيا ، بل هى من شئون البشر . فهى — أى النزعة الحربية — رغبة فى القتال . والحروب مثيرة ؛ حينما تُشن فى مكان آخر وبين أقوام آخرين ؛ ولعل أكبرها إثارة ، تلك تندلع ثم تخمد سريعا .

(١) أى بريطانيا قديما والولايات المتحدة حديثا . (المترجم)

(٢) الأراضى المنخفضة (أو الفلاندرز) : تشمل فى الوقت الحاضر الشمال الغربى لبلجيكا وقسم من جنوب هولندا والقسم الشمالى من فرنسا . وما برحت مسرحا للمعارك والحروب ، وآخرها معركة الفلاندرز التى وقعت فى ١٠ مايو — ٢ يونيو عام ١٩٤٠ ، والتى انتصرت فيها الجيوش الألمانية انتصارا مبينا ، انبنى عليه استيلاؤها على بلجيكا وهولندا وفرنسا . (المترجم)

وقد إعتاد المؤرخون لجميع الحضارات ، إعتبار الحروب أشد الأحداث التى تناولها كتاباتهم جذبا للاهتمام . وكانت أكثر الجيوش فى الماضى قليلة العدد نسبيا ، وودةا أناس يؤثرون القتال على غيره من الحرف . إلا أن فنون الحرب الحديثة فى الغرب ، قد أصبحت تشكّل حدثا خطيرا ؛ منذ «النفير العام» الذى أطلقته الثورة الفرنسية عام ١٧٩٢ . وما فتئت فنون الحرب فى المستقبل تُنذر بخطورة أشد .

ومن الظواهر الجديدة بالإعتبار ؛ أن الحرب أصبحت تميل الآن إلى القضاء على النزعة العسكرية فى الشعوب التى تُكابدها . كما لا يخفى أن إرادة الشعوب قد غدت قوة لامناص للحكومات المستبدة من الإذعان لها فى نهاية الأمر . وبطالعنا فى هذا الشأن مثال فرنسا التى عانت فى الحرب العالمية الأولى أشد الأهوال ، فكان أن تقاعست عن الصمود للحرب الثانية . ووفق هتلر فى التأثير على الألمان لدفعهم إلى خوض غمار حرب جديدة . بيد أنه بدا فى عام ١٩٥٦ شك عظيم فيما إذا كان فى قدرة هتلر آخر — إن كان ثمة بالمرّة مجال لظهور هتلر آخر — أن يدفع العالم إلى الحرب مرة أخرى .

وإن من العبارات ذات المغزى ؛ تلك الصفة التقليدية التى يخلعها الديكتاتوريون على أنفسهم بأنهم «محبو السلام» . ولو كان نابليون قد امتد به العمر إلى عصر الحرب الذرية لعدل عن ترديد العبارة التى ما فتئ — وهو فى منفاه بسانت هيلانه — يصف بها الحرب بأنها «حرفة جميلة» .

على أن هذه الآراء لا تصدق — فى الدرجة الأولى — إلا على الشعوب التى تقدمت فى مجال الحضارة والتى عركتها حروب القرن العشرين . وفى آسيا اتخذ استسلام الشعوب التقليدى منذ الأزل ، الشكل السياسى للرضوخ السلبى للحكومات جائرة . وكان لابد لعملية الاقتباس الثقافى من الحضارة الغربية ؛ أن تقطع شوطا طويلا يتجاوز مجرد إقتباس الفن العسكرى الغربى ، قبل أن يبدأ الجندى الفلاح الأسبوى التفكير فى مناقشة أو تحدى الأوامر

التي تطلب إليه التضحية بحياته ، حتى في حروب عدوانية لا تعنى شيئاً بالنسبة إليه شخصياً .

فإلى أى مدى يتأنى - في منتصف القرن العشرين - لحكومات أسيوية أن نذهب إليه في إستغلال نزعة الاستسلام المنصلة في رعاياها ، لتحقيق أغراض عسكرية ؟

لعل الأمر يبدو أمام أهل الغرب ، كما لو أن الجندى الروسى أو الصينى الفلاح ، قد أجاز لحكومته التصرف المطلق بحياته . بيد أن التاريخ قد دلل على وجود حد لا تجزؤ أية حكومة صينية أو روسية على تجاوزه دون التعرض للقصاص . ويدلل على صحة هذا القول أن الحكومات الصينية المختلفة ابتداء من تسين Tsin حتى حكومة الكيومنتانج^(١) ؛ التي تهورت بدفع الأمور بعض الشيء أكثر مما ينبغي ، قد دفعت ثمن تهورها ، كراهية الشعب لحكمها .

وتكرر القصة نفسها في التاريخ الروسى كذلك .

فإن القيصرية التي ألهمتها الحكمة أن تُسلم للشعب الروسى بإصلاحات الستينات من القرن التاسع عشر ترضية له عن أوجاعه في القرن^(٢) ؛ أن هذه القيصرية قد دفعت حياتها ثمناً لعنادها في إفتداء المزايم العسكرية التي منيت بها روسيا مع اليابان عام ١٩٠٤ - ٥ ؛ التي دفعت إلى قيام الثورة الروسية العظيمة عام ١٩٠٥ ، ثم هزيمتها في الحرب العالمية الأولى التي دفعت إلى الوجود ثورة ١٩١٧ المزدوجة^(٣) .

(١) حزب تشانج كاي تشك في الوقت الحاضر . ويقتصر حكمه الآن على جزيرة فورموزا . (المترجم)

(٢) نشبت حرب القرن عام ١٨٥٤ بين روسيا القيصرية من جانب وتركيا وإنجلترا وفرنسا وحلفائهم من جانب آخر دفعا للأطاع الروسية عن تركيا . (المترجم)

(٣) اندلعت في روسيا عام ١٩١٧ ثورتان : أسفرت الأولى عن خلع القيصرية وتولية حكومة كيرنسكى التي كانت تتجه إلى إقامة الديمقراطية الغربية ، والأخرى بولشفية وأسفرت عن تولي لينين الحكم . (المترجم)

وبالأحرى ؛ ثمة حدود تنهار عندها معنويات روسيا أو أى بلد زراعى آخر . على أنه يرجح القول بأن حكومة الاتحاد السوفيتى تفضل مجابهة أهوال حرب مع الولايات المتحدة على أن تقدم لها تنازلات سياسية تبلغ بالروس - فى نظرهم - مبلغ الخضوع للتفوق الأمريكى .

فإن كان يُحتمل - والحالة هذه - توافر ظروف - تُمكن الاتحاد السوفيتى من خوض غمار حرب من نفس مستواه : فهل ستقف الولايات المتحدة نفس الموقف ؟

الرد بالإيجاب ؛ مصداقا لما بدت عليه الأحوال العالمية عام ١٩٥٦ . إذ ما برح الشعب الأمريكى منذ إقامة أول مستعمرة من مستعمرات الثلاث عشرة^(١) وأقدمها ، فى طليعة الشعوب التى تصدّف عن النزعة الحربية وتمحقها . إلا أنه يعتبر فى نفس الوقت من أصلح الشعوب فى العالم الغربى لخوض غمارها . ونعنى بعزوف الشعب الأمريكى عن الحرب ؛ كراهية أفراد الخضوع للتنظيم العسكرى ، ولأنهم لا يطمحون مثل الغالين^(٢) فى الظفر لبلادهم بمجد حربي ، إكراما للمجد ذاته . وتردّ صلاحية الأمريكين كجنود : إلى أنه حتى غلق الحدود حوالى عام ١٨٩٠ ، كانت ثمة دائماً فرقة من جنود الحدود ذات خبرة بحمل السلاح واستعماله بمطلق حريتها الخاصة سعيا لتحقيق مصالحها الذاتية . وهذا وضع كان - منذ وقت طويل - مجهولا فى القسم الأكبر من أوروبا الغربية .

وإن هنود أمريكا الشمالية ليعترفون حقا بتلك الروح النزاعية إلى القتال ، منذ هبوط الرجل الأبيض إلى الشواطئ الأمريكية قادمًا من الجزائر البريطانية . وهى النزعة التى اتسمت بها - خاصة - الأجيال العشرة من أمريكى الحدود ، كما يعترف بها الفرنسيون منافسو المستعمرين الإنجليز خلال القرن الثامن عشر . وقد عرفها فى القرن التاسع عشر ، الضحايا المكسيكيون .

(١) كانت هذه المستعمرات هى نواة الولايات المتحدة الأمريكية . (المترجم)

(٢) أى جنس الفرنسيين . (المترجم)

ومن الناحية الأخرى ؛ تؤكدُها المصادمات التي نُشبت بين رجال الحدود الأنجليز والأمريكيين ومنافسهم ، للاستحواز على أمريكا الشمالية . وما فتئ الشعب الأمريكي بأسره - لا رجال الحدود فحسب - مستعداً لإخضاع نفسه للنظام الحربي الصارم ، على شريطة أن يكون خضوعه عارضا إستثنائيا ، ولولا هذا الاستعداد ؛ ما كان ليهيئ لروح الإقدام في رجال الحدود ، أن تغلب على خصوم يقفون معهم - ثقافيا - على قدم المساواة .

ولقد تكتشفت صفات الجندية الكامنة في الشعب الأمريكي - في مجموعه - لخصومه الألمان إبان الحرب بين الألمان والأمريكيين ، أعوام ١٩١٧/١٨ و ١٩٤١/٤٥ . على أن أشد مظاهر الإقدام والاحتمال والنظام والقيادة عند الأمريكيين تأثراً في النفس ؛ تطالعنا في حرب انتظم في معمعانها أمريكيون ضد أمريكيين - فإن حرب ١٨٦١/٥ بين الشمال والجنوب^(١) ؛ كانت أطول الحروب التي نشبت في العالم الغربي منذ سقوط نابليون حتى اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى ، كما كانت أصعبها مراساً وأفظعها خسائر في الضحايا ؛ لكنها كانت - كذلك - أحفلها بالتجديدات التكنولوجية ؛

وبالإضافة إلى ما قدمناه ؛ لم تؤثر الحربان العالميتان الأخيرتان في الولايات المتحدة تأثراً سيكولوجياً يماثل تأثرهما في معنويات الأوروبيين ؛ فإذا كانت هاتان الحربان العالميتان قد دمرتا خلال عمر واحد - في فترة ما تزال عالقة بالأذهان - ألمانيا وضحايا ألمانيا من الروس وأهالي غرب أوروبا ؛ تدميراً يماثل في قسوته ، تلك القسوة التي دمرت بها الحرب الأهلية الأمريكية ولايات الجنوب ؛ إلا أن الحربين العالميتين قد خلفتا الولايات المتحدة في الواقع ، بمنأى عن الأضرار .

وبالحرى ؛ لم يكن ثمة من يشك - في عام ١٩٥٦ - في أن الشعب

(١) كان الاتحاد يمثل الولايات الشمالية ، والتحالف ولايات الجنوب . (المترجم)

الأمريكي كان مستعدا لمواجهة أهوال حرب مع الاتحاد السوفيتي ، مؤثرا ذلك على أن يقدم له أية تنازلات تبلغ في أعين الأمريكيين مبلغ الخضوع للتفوق الروسي .

بيد أن هذا الشاهد التاريخي الآنف الذكر الذي يوحى باحتمال وجود إرادة للحرب - في ظروف معينة - عند الشعبين الأمريكي والروسي ؛ هذا الشاهد التاريخي والتأثير السيكلوجي لهذه التطورات ، ينبغي أن يكون موضع التقدير في ضوء تطورات الحرب الذرية . وهو تأثير لن يتخلف كثيرا في ظروف منتصف القرن العشرين عن التطورات التكنولوجية ذاتها ، فإن ملاقات الموت في سبيل وطن أو قضية ؛ يصبح تضحية لا مبرر لها وفعلا من أفعال البطولة لا معنى له ، إذا إتضح - بالتأكيد - أن البلد بأسره سيفنى - بما في ذلك هذا الوطني الغيور وهذه القضية وأنصارها - في نكبة واحدة شاملة .

(٣) نحو نظام عالمي للمستقبل

لم يحل عام ١٩٥٥ حتى كان القضاء على الحروب حتما مقضيا ؛ لكن ؛ لن يتأتى القضاء عليها ، إلا إذا أمكن تركيز الرقابة على الطاقة الذرية في يد سلطة سياسية واحدة . وترتب على هذا الاحتكار للسيطرة على السلاح الرئيسي الذي أنتجه العصر ، أن تقوم هذه السلطة السياسية بدور حكومة عالمية . وفي الظروف التي كانت قائمة في عام ١٩٥٥ ، كان لا مندوحة أن يكون المقر الفعلي لهذه السلطة السياسية : واشنطن :

بيد أنه ؛ لا الولايات المتحدة - ولا الاتحاد السوفيتي - كانت مستعدة لأن تضع نفسها تحت رحمة الأخرى .

وفي هذا المأزق الحرج ؛ كان الأسلوب التقليدي - لا محالة - لتحقيق أقل قدر من المقاومة السيكلوجية ، هو اللجوء إلى محنة القتال . وقد رأينا

كيف أن « الضربة القاضية » كانت الوسيلة الوحشية التي بواسطتها مرت الحضارات المتهارة - الواحدة تلو الأخرى - من مرحلة عصر الاضطراب إلى مرحلة الدولة العالمية . إلا أنه في حالتنا هذه ؛ قد تصرع « الضربة القاضية » لا العدو وحده ، ولكنها قد تصرع أيضاً : المنتصر ، والحكم ، وحلقة الملائكة ، والنظارة ؛ جميعاً .

وفي هذه الظروف ؛ تتعلق آمال البشرية في تأمين مستقبلها ، باحتمال تجمل حكومتى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وشعبهما بالصبر الذى يعينهما على المضي في السياسة التي يُطلق عليها في الوقت الحاضر : التعايش السلمى .

إن أعظم خطر يُهدد رخاء الجنس البشرى - بل وجوده نفسه - ليس اختراع الأسلحة النووية . ولكنه إنبعاث حالة نفسية في نفوس الناس تشبه تلك التي سادت العالم الغربى في مطلع عهده الحديث ، طوال مائة عام تبدأ بنشوب الحروب الدينية حوالى سنة ١٥٦٠ م . ومصدقا لذلك ؛ فرى في مستهل النصف الثانى من القرن العشرين ؛ رأسا ليين وشيوعيين ، يشعرون - مثلاً شعر الكاثوليك والبروتستانت من قبل - بأن من الأمور المستحيلة والتي لا يمكن قبولها ، أن يرضوا بأن يتخلوا عن الولاء لمجتمع موزع - لوقت غير محدود - بين : عقيدة صادقة (هى عقيدتهم) ولإلحاد ممقوت (هو عقيدة خصومهم) .

بيد أن تاريخ الحروب الدينية في الغرب ، حل بين طياته الدليل على استحالة إستخدام قوة السلاح في تسوية القضايا الروحية . كما أن تملك البشرية للأسلحة النووية ؛ يقدم نذيراً بأن السبيل لن يكون مهيئاً للرأسماليين والشيوعيين - على السواء - ليدركوا تفاهة الحرب الدينية ، بذلك الأسلوب التجريبي الذى عُرِف عن تلك الحقبة التي طال أمدها وعانها الكاثوليك والبروتستانت في عصر كانت فيه أسوأ أسلحة الإنسان : السيوف والخرااب والبنادق التي تُحشى من فوهتها .

ومن ثم ؛ لا مبرر للتفاوت القاطع - كما لا مبرر للتشاؤم الجارم - في ظروف هذه حالها من التقلقل والغموض . وليس من السهل للجبل من البشر الذى يعيش اليوم ؛ سوى أن يوطن النفس - قدر الاستطاعة - على إدراك أنه يواجه قضايا يتوقف عليها كيانه نفسه ، وأنه يتعذر التخمين بما يحبته له القدر :

ويطالعنا في هذا المقام حادثة طريفة ، تُحتمل حال أبناء البشرية في عام ١٩٥٥^(١) ، الذين يجدون أنفسهم كما لو كانوا دوماً هائمين على سطح فلك نوح ؛ ففي صبيحة يوم ٧ أغسطس سنة ١٩٤٧ المشؤم وجد « تور هيرادهل Thor Heyerdahl »^(٢) نفسه ورفاقه الفايكنج الخمسة أن التيار المتدفق غربا الذى سبق أن حمل الطوف « كون تيكى Kon-Tiki » مسافة ٤٣٠٠ ميل عبر المحيط الهادى ، يحملها الآن تجاه صخور جزيرة « راروتونجا Roarotonga »^(٣) . ووراء خط أمواج الشاطئ الصخرى التى تنكسر على هذا الحاجز ؛ كان في وسع الملاحين المقترين من الجزيرة أن يدينوا أشجار النخيل الشبيهة بالريش . وهم قد أدركوا أن هذا النخيل ، يزين جزائر شاعرية يحتويها بحر ساكن . على الشعف^(٤) القاصب الزبد ، يمر بينها وبين هذا الملجأ الأمين ، في خط يبدأ من الأفق وينتهى بالأفق^(٥) . ولا يهيئ مجرى التيار والريح للمسافرين فرصة الطواف بحراً حول

(١) وقت كتابة هذا الفصل من كتابه . (المترجم)

(٢) كاتب أمريكي . ويشبه المؤلف موقف هذا الكتاب ورفاقه - في قصته - بما كان يماثيه الفايكنج (سكان اسكندنافيا) في رحلاتهم البحرية . (المترجم)

(٣) مجموعة من الجزائر الصغيرة التى تتكون منها جزائر كوك في المحيط الهادى . وتقع هذه المجموعة بين خطى عرض ١٨ و ٢٢ جنوباً وخطى طول ١٤٧ و ١٦٣ غرباً . (المترجم)

(٤) الشعف : مخور قريبة من سطح الماء . (المترجم)

(٥) Heyerdahl, Thor : Kon-tiki (Chicago 1950)

الجزر : إذ لا مناص لهم من مكابدة محنة قُدّر عليهم مكابدتها . ولأنهم - رغما عما قد يدور في أذهانهم عن الاحتمالات التي تنتظر من يقع في هذا المأزق من المسافرين - ما كان لهم أن يحزروا أى احتمال منها ، يُقدّر أن تنتهى إليه مغامرتهم .

فلو قُدّر للطوف أن يتحطم في خضم الأمواج العاتية ؛ لتمزق البحارة لإربا على حافات الشُعْب المرجانية المدببة كالسكين ؛ إلا إذا دهمهم الموت السريع غرقا ، فأنقذهم من تلك الميته الأشد إيلاما .

أما إذا تماسك الطوف ونجح ملاحوه في التثبت به إلى أن تهزمهم الأمواج العاتية فتلقى بالطوف على الشُعْب المرتفعة الخافة ؛ عندئذ يصبح في قدرة الملاحين - بعد تحطّم طوفهم - السباحة في البحر الساكن ، والوصول أحياء إلى إحدى الجزائر التي يتوجّها النخيل .

أما إذا اتفق ميعاد وصول الطوف إلى الشُعْب مع إحدى حركات المدّ العالية التي تغمر الشُعْب في أوقات منتظمة إلى عمق يدفع الأمواج العاتية إلى الانحسار ؛ عندئذ قد تزيح « كون تيكى » الموت عن كاهلها ، فتسلك طريقها في الماء الصافي سليمة لا يمسها ضرر .

أما عن واقع الحال ؛ فقد فاض بالفعل مدّ عال عمل على رفع هيكل السفينة « كون تيكى » المهشّم بعيداً عن الشُعْب ، وألقى به في منطقة البحر الهادى ؛ بعد انقضاء بضعة أعوام على إلقاء أمواج الشاطئ الصخري لهيكل السفينة على صخور مرجانية مدببة قاحلة . على أنه لم يكل في وسع أى رجل في صبيحة ٧ أغسطس سنة ١٩٤٧ على سطح « كون تيكى » ، أن يقرر أيا من الاحتمالات السابقة يكون مصيره .

وبعد ؛ فإن تجربة هؤلاء الملاحين السكندنافيين الستة خلال ذلك اليوم ، تُشبه كثيراً ، المحنة التي كانت تنتظر البشرية ، في مستهل النصف الثاني من القرن العشرين .

إن فُلك الحضارة الذى مضى يشقّ عباب التاريخ خمسة أو ستة آلاف سنة ، أخذ يندفع نحو شُعب صخور يعجز بحارتها عن الطّواف حولها . وإن هذا الخطر الذى ينتظرهم - والذى لا معدى عنه - مائل فى الانتقال - المحفوف بالخطر - من عالم منقسم إلى منطقة نفوذ أمريكية وأخرى روسية ، إلى عالم موحد تحت سيطرة سلطة سياسية واحدة ؛ ينبغى عليها - فى عصر الأسلحة الذرية - أن تستأصل عاجلاً أم آجلاً ، بطريقة أو بأخرى ، هذا الانقسام الحالى فى السلطة السياسية .

فهل يتم الانتقال سلمياً ، أو يتم بحدوث كارثة ؟

فإن تم بكارثة ؛ فهل تكون شاملة ، تستعصى على العلاج ، أو تكون مجرد كارثة جزئية تخلف وراءها عناصر تُحقق - على مدى الأيام - البرء والشفاء ، بعد معاناة مرحلة من الألم والشقاء .

وما كان لأحد - حتى كتابة هذه الكلمات - أن يستبقي الأحداث فيعلم - مقدماً - نتيجة المحنة التى يبدو للعيان أن العالم سائر إليها ؛ ومهما يكن من أمر ؛ فقد يكون فى وسع المراقب أن يسمعن النظر فيما تتمخض عنه الأحداث ، دون انتظار للحكمة التى تُستخلص - فى يسر وسهولة - بعد وقوع الكارثة ؛ طالما حصر تفكيره بشأن مصير التنظيم العالمى فى العناصر الضرورية لقيام حكومة عالمية : عناصر تشارك فى صفاتها كلا من الحكومتين نصف العالميتين ، اللتين تبلورتا - على التوالي - حول الولايات المتحدة وحول الاتحاد السوفيتى .

فإذا بحثنا مسألة قدرة التكنولوجيا على تيسير سبل المواصلات ، ألفينا أن قيام حكومة عالمية ، قد غدا فرضاً قابلاً - تماماً - للتحقيق .

أما إذا انتقلنا - صعيداً أو هبوطاً - من الصعيد التكنولوجى إلى صعيد الطبيعة البشرية ؛ ألفينا الفردوس الأرضى الذى أقامه حذق الإنسان

الصانع^(١) في مهارة فائقة ، قد أحالته ضلالة الإنسان السياسي^(٢) إلى جنة للحمقى . فإن « برلمان الإنسان » الذي بدا أن الشاعر تينيسون Tennyson^(٣) تنبأ بمولده مع اختراع الطائرة تقريباً ، ظهر الآن إلى الوجود يحمل اسماً أكثر جوداً هو « الأمم المتحدة » .

وإذا كانت الأمم المتحدة لم تكن من العجز بما أكدّه نقادها أحياناً ؛ فقد ظهر بوضوح ، عجزها عن خلق حكومة عالمية .

إن الحقائق الماثلة في توزيع القوى : لم تنعكس في دستور المنظمة السخيف القائم على مبدأ أن لكل حكومة واحدة ، صوت واحد . ولم تجد - حينئذ - من وسيلة للتوفيق بين مساواة خيالية وحقائق الحياة القاسية ، خيراً من أن تمنح حق الاعتراض (الفيتو) لدول خمس عظمى ، انكشبت إحداها منذ ذلك الحين : فبعد أن كانت الصين ، غدت فورموزا ؛ بينما حرّم هذا الحق ، الأقران ، (الرسميون) لهذه الدول العظمى .

وخير ما يمكن أن يتوقع للأمم المتحدة ، تطورها من منبر لإلقاء الخطب وإثارة النقاش ، إلى إتحاد بين دولها . على أن ثمة إختلافاً هائلاً بين إتحاد من دول مستقلة واتحاد يجمع الشعوب في حكومة مركزية تطلب من كل مواطن - في هذا الاتحاد - أن يحول ولائه الشخصي لها ، فتلقيها منه . على أن من المعروف أن تاريخ النظم السياسية لم يُسجّل قط أنه كان في الإمكان اجتياز تلك الهوة ، إلا على يد حركة ثورية . وعلى هذا ؛ فليس من المحتمل أن تصبح الأمم المتحدة نواة التنظيم العالمي الذي تنبعت عنه الحكومة العالمية العتيدة ، في نهاية المطاف . لكن من المحتمل أن يحدث هذا ؛ لا عن

(١) Homo farber

(٢) Homo politicus

(٣) شاعر إنجليزي (١٨٢٩ - ٩٢) وكان يمجّد نظام البرلمان الإنجليزي .

(المترجم)

طريق تطور الأمم المتحدة ، ولكن عن طريق تطور أحد نظامين سياسيين قائمين أعرق منها وأشد مراسهما : حكومة الولايات المتحدة أو حكومة الاتحاد السوفيتي .

وإذا قُيِّض للجيل من البشر الذي يعيش في وقتنا الحاضر ، أن يكون حراً في إختيار إحدهما ؛ فإن أى باحث غربي ، لا يشك بالمرة في أن الجمهرة الساحقة من جميع الرجال والنساء الأحياء ذوى الأهلية لتكوين أى رأى في هذه القضية ؛ سيؤثرون أن يكونوا رعايا للولايات المتحدة الأمريكية ، على أن يكونوا رعايا للاتحاد السوفيتي . فإن المزاي التي تجعل من الولايات المتحدة موضع إثار دون منازع ، ترجح تماماً سيف الشيوعية الروسية المصلّت .

والميزة الأساسية التي تتمتع بها أمريكا في أعين رعاياها الحاليين والمحتملين مستقبلاً ، هي إحجامها الواضح الصادق عن الانسياق وراء تأدية دور الحكومة العالمية .

فإن جانباً لا يستهان به من جيل المواطنين الأمريكيين الحاليين وآباءهم من غير المهاجرين ، قد اضطروا إلى اقتلاع جذور حياتهم من العالم القديم ليغرسوها في العالم الجديد ، ويبدؤوا حياة جديدة . وقد دفعهم إلى هذا ؛ توقعهم إلى تخلص أنفسهم من شواغل القارة ، بعد أن نفضوا - بشكل ظاهر - ترابها عن أقدامهم . وإن وقدة الأمل التي جاشت في صدورهم وحملتهم على الانسحاب من شواغل حياتهم الأولى ، لاتقل حدة عن الأسى الذي يحسّ به الجيل الحالي من الأمريكيين ، حين يضطرون إلى العودة إلى اهتمام بشواغل العالم القديم . ولقد جاء هذا الإضطراب - كما رأينا - نتيجة لتلاشي المسافات ؛ تلاشياً جعل العالمين القديم والجديد عالماً واحداً لا يتجزأ . بيد أنه رغماً عن أن الاعتراف بأن الأمريكيين مضطرون إلى

العودة للاهتمام بشواغل العالم القديم يزداد وضوحا كل يوم ، فإن ذلك لم يخفف من نفور الأمريكيين من قبول هذا الانسياق .

والميزة الثانية التي يتمتع بها الأمريكيون ، تتجلى في سخائهم .

فإن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي — كليهما — دولتان مفعمتان بالموارد . على أن نظمها الاجتماعية والاقتصادية ليست متماثلة ؛ إلا من حيث سيطرة كل منهما على موارد ضخمة غير مستثمرة . بيد أن روسيا — عكس أمريكا — قد شرعت بالكاد في استثمار إمكانياتها . كما أن التنمية التي قامت بها ودفعت ثمنها قدراً ضخماً من الجهد والمكابد البشرية طوال الاثنتي عشرة سنة التي سبقت مباشرة هجوم الألمان عليها عام ١٩٤١ ؛ هذه التنمية قد أنزل بها الغزو الألماني ضرراً فادحاً . إلا أن الروس بعد الحرب ؛ وجدوا أنفسهم في الجانب الظافر . لكنهم راحوا يعوضون أنفسهم عما أنزله الألمان من تدمير لمنشآتهم الصناعية ، بالاستيلاء على المعدات الصناعية ونقلها إلى بلادهم . ولم يقتصر هذا الإجراء على ألمانيا التي اعتُبرت مسؤولة عن ويلات الحرب ، بل تعداه إلى بلاد شرق أوروبا ووسطها التي ادّعى الروس أنهم جاءوا لتحريرها من النازيين . كما تجاوزه إلى المقاطعات الصينية في منشوريا التي ادّعوا أنهم وفدوا لتخليصها من ربة اليابانيين .

حقاً ؛ إن إتجاه الروس في هذا الشأن مناقض تماماً لسياسة التعمير الأمريكية بعد الحرب . وهي سياسة رسمها مشروع مارشال وغيره من المشروعات الأمريكية التي نُقِّدت في عدد من البلاد التي قلبت الحرب أوضاعها . فكان أن استقامت أمورها مرة أخرى ، بفضل أموال المعونات التي وافق الكونجرس في واشنطن على بذلها — عن طيب خاطر — من دافعي الضرائب الأمريكيين الذين أخذت من جيوبهم هذه الأموال . وكان المتبع في الماضي — عادة — أن تأخذ الدول الكبرى المنتصرة ، لا أن تُعطي .

ولم تُظهر سياسة الاتحاد السوفيتي تحولاً عن هذه العادة السيئة^(١) . لقد وضع مشروع مارشال قاعدة جديدة لا مثيل لها في التاريخ : وقد يقال بأن هذه السياسة السخية في صالح أمريكا من وجهة النظر الواعية البعيدة المدى ، بيد أن الأفعال الطيبة لا تفقد شيئاً من طيبها ، إذا كانت - في الوقت نفسه - أفعالا أملتها الحكمة .

ومع هذا ؛ فإن مواطني بلاد غربي أوروبا ، يقضّ مضاجعهم في الوقت الحاضر ، الخوف من أن تتخذ أمريكا قراراً - قد لا تشترك فيه شعوب أوروبا الغربية بالرأى - من شأنه أن يجلب الأسلحة النووية الروسية على رؤوسهم كنتيجة - غير مقصودة - لقيام أمريكا بعمل رادع رداً على تحرّش الروس . وعلى الرغم من أن الدول التي تسير في فُلك الولايات المتحدة الأمريكية تتمتع في معظم الأحيان بحرية تصرف تحسد عليها - وهي حرية ينكرها الاتحاد السوفيتي تماماً على الدول التي تسير في فلكه -^(٢) فإن هذه الدول التابعة - جميعاً - سواءً من حيث عجزها عن مواجهة هذه الأمور التي تمسّ كيائها نفسه ؛ حياة أو موتاً .

ويذكرنا هذا ؛ بالخطاب الرنان الذي أذاعه وزير للخارجية الأمريكية - ريتشارد أولني - في عام ١٨٩٥ ، بمناسبة النزاع الإنجليزي الأمريكي حول الحدود بين جيانا البريطانية وفنزويلا ، وهو خطاب جعل له ذكراً خالداً ، قال :

« إن للولايات المتحدة اليوم - من الناحية العملية - السلطان على هذه

(١) شرع الاتحاد السوفيتي بعد وفاة ستالين في بذل المعونات والمساعدات الاقتصادية والفنية إلى كثير من الدول النامية . ويظهر في هذا الشأن سخاءٌ عظيم . وأقرب مثال يطالعنا في هذا المقام تعاونه الصادق معنا في تنفيذ مشروع السد العالي العظيم . (المترجم)

(٢) تغير وضع الدول الاشتراكية الأوروبية عما سبق أن قرره الأستاذ المؤلف عام ١٩٥٥ ، إذ أصبحت تلك الدول تمتلك حرية أعظم في تصرفاتها الخارجية والداخلية . (المترجم)

القارة . وإن حكمها قانون مفروض على الرعايا القاطنين في نطاق سلطانها ، لماذا ؟ إنه لا يعزى إلى مجرد الصداقة الخالصة أو حسن النية ، إنه ليس مجرد تقدير لسمو خلقها كدولة متحضرة ، إنه لا يعزى لما تتميز به - في ثبات - معاملات الولايات المتحدة من حكمة وعدل واستقامة ؛ ولكن هذا السلطان الذي يتمتع به الولايات المتحدة يرجع إلى مواردها التي لا حدها ، يعززها موقعها المنزول - بالإضافة إلى البواعث السابقة - الأمر الذي جعل الولايات المتحدة سيدة الموقف - فعلا - وأبعد من أن تنالها أية دولة عظمى أو الدول العظمى مجتمعة » .

وهذا القول المأثور : لم يفقد شيئا من قوته إذ يطبق في مجال للزعامة أوسع مدى من مجال أمريكا اللاتينية وحدها . وإذا كان الفرد من غير الأمريكيين يستسلم للحقيقة القائلة بأن السباط الأمريكية خير من العقارب للروسية ؛ فلقد « يتاح للفيلسوف » (باستخدام عبارة المؤرخ جيبون) أن يوسع مجاله الذهني ، فيكشف أن إحتكار دولة عظمى وقوية ، تقرير وتنفيذ السياسات التي تتوقف عليها حياة ومصائر الشعوب الدائرة في فلكها ؛ إن هذا الإحتكار يحمل بين طياته مشكلة دستورية لا يحلها إلا صورة من صور الاتحاد الفيدرالي . ولا ينتظر أن تتم تسوية القضايا الدستورية المترتبة على قيام تنظيم يعلو على النظم القومية في سرعة وسهولة .

على أنه مما يبشر بالخير ؛ أن الولايات المتحدة قد غدت ملتزمة فعلا بحكم تاريخها نفسه - بقبول مبدأ الاتحاد الفدرالي .

الفصل الثالث والعشرون

التكنولوجية والصراع الطبقي والعمالة

(١) طبيعة المشكلة

إذا صدق القول بأن التأثير الذي تمارسه التكنولوجيا الغربية ذات القدرة الفائقة - على نحو لم يسبق من قبل - على مجتمع عالمي آخذ بأسباب الحضارة الغربية لا يزال موزعا بين طبقات منفصلة تتباين تباينا كبيرا في مستوى معيشتها ؛ إن هذا التأثير قد أصبح يجابه وارثي الحضارة الغربية بمشكلة عمالقة ، تناظر مشكلة « الحكومة » التي سبقت مناقشتها في الفصل السابق . على أنه يستلزم تحقيق ذلك أن يتسع معنى كلمة العمالة فيشمل الروح التي يُنجز العمل بها ، والمنفعة التي تُجتنى من الفراغ ؛ فضلا عن حجم العمل والفراغ وتوزيعهما .

وليست مشكلة العمالة - مثل مشكلة الحكومة - بالشئ الجديد في ذاته . فإذا كان العامل الجوهري في إنبهار الحضارات الأخرى وتحللها ، هو إخفاقها في التخلص من الحرب عن طريق السعى طوعا - وفي الوقت المناسب - لامتداد سلطان الحكومة من المجال الإقليمي إلى المجال العالمي ؛ فإن ثمة عاملا آخر ثانويا يكمن في الإخفاق في التخلص من الصراع الطبقي بالعمل - طوعا وفي الوقت المناسب - على إحداث تغييرات في ضغط العمل وخصيلته وفي الاستمتاع بالفراغ والإفادة منه .

ففي كلا المجالين : امتداد سلطان الحكومة وتغيير أوضاع المجتمع ، يرجع الاختلاف في مدى القوة بين سيطرة الغرب - أخيراً - وأية سيطرة

أخرى سابقة على الطبيعة غير البشرية ؛ يرجع هذا الاختلاف إلى اختلاف في نوع السيطرة . إذ قد ترتب على إزدياد الطاقة الإنتاجية الاقتصادية بصورة لم يسبق لها مثيل - بفضل تطبيق الأسلوب التكنولوجي الحديث - إنبعاث ظلم اجتماعي ظاهر للعيان ، بدأ لأول وهلة كما لو أنه قابل للعلاج ؛ ومن ثم أصبح استمراره لا يطاق .

وإذ أخذَ ضَرَعُ الصناعة الميكانيكية العصرية يدرّ ثروة بعيدة التصديق على رجال الأعمال من أهل الغرب - الذين غرسوا بذرة الثورة الصناعية ثم جمعوا محصولها - فما هو الداعي لبقاء الثورة والفراغ حكرا لأقلية مميزة ؟ ولماذا لا تكون هذه الوفرة المستحدثة ، شركة بين الغربيين وبين عمال الصناعة الغربيين والفلاحين الآسيويين والهنود الحمر الأمريكيين : أولئك الذين سيقوا كالقطيع إلى عالم تنتظم في صفوفه البروليتاريا الداخلية للمجتمع الغربي ؟

إن هذا الحلم الذي راح يداعب البشر عن إمكان تحقيق الوفرة للبشرية بأسرها ؛ قد بَعَثَ إلى الوجود مطالب لكفالة التحرر من العوز ، لم يسبق لها مثيل في إلحاحها وقلة صبرها . فكان أن أبرز شيوع هذه المطالب في كل مكان ، سؤال حول الطاقة الإنتاجية الصناعية الميكانيكية : هل حقا لا ينضب معينها ، كما كان يظن ؟

ويتوقف الردّ على هذا السؤال على حلّ معادلة من ثلاثة أطراف غير معروفة :

الأول - مدى قدرة الطاقة التكنولوجية المتاحة ، على كفالة المطالب المتزايدة للجنس البشري الذي ما برح يتكاثر ويطلب المزيد من الفراغ .

الثاني - إحتياجات العالم من الموارد المادية التي لا يمكن الاستغناء عنها بغيرها في شكل : معادن ، ومن الموارد التي يمكن الاستغناء عنها

بغيرها ، فى شكل : الطاقة المائية والمحاصيل والماشية والقوى العاملة والحدق البشرى :

الثالث - مدى القدرة على استغلال هذه الموارد التى جمعها البشر بحيث يزداد عائدها ، ومدى قدرة البشر على موازنة الموارد التى يبددونها ، بجمع موارد أخرى لم تُستغل حتى اليوم .

إن تيار الكشوف الغربية التى تجرى فى مجال العلم فى هذه الأيام ، يُوحي بأن التكنولوجيا تتمتع بقدرة هائلة . بيد أن ردود الفعل البشرية فى عصرنا الحالى قد أبتدت فى نفس الوقت ؛ وجود حدود فعلية - على الصعيد الإنسانى - على القدرة على الإنتاج إلى مالا نهاية ، باستخدام الطاقة التكنولوجية المتاحة . وتشمل هذه الحدود فى العوامل البشرية . فإنه وإن تيسر من الناحية التكنولوجية لإنتاج شىء ما ، إلا أنه لا يتأتى إبراز الفكرة إلى حين التنفيذ إلا حين تتوفر الأيدى العاملة .

بيد أن هذا الاندفاع الهائل فى تمكين سيطرة الإنسان على الطبيعة الغير البشرية ؛ قد اقتضى ثمنًا له ، فرض طائفة من القواعد لتنظيم العمال . فكان أن أخذوا يقاومون القيود التى فُرضت على حرياتهم . ومن شأن هذه المقاومة الحتمية ؛ أن تعرقل تحقيق الخطة التى كان من الواضح إمكان تحقيقها من الوجهة التكنولوجية .

هنا تعرض لنا الأسئلة التالية :

ما مدى استعداد العمال للتضحية بحرياتهم الشخصية فى سبيل زيادة الرخاء الذى يطالب كل منهم بنصيب أكبر ، منه ؟

ما هو مدى استعداد عمال الصناعة فى المدن للخضوع لـ « التوجيه العلمى » ؟

وما هو المدى الذى تذهب إليه أغلبية البشر من عمال الفلاحة البدائين

فى إقتباس الأساليب العلمية الزراعية الغربية ، وفى قبول القيود التى تفرض على ما نتصوره حقاً وواجباً تقليدياً مقدساً وفى الإنجذاب ؟

إن أقصى ما يمكن قوله فى هذه المرحلة : أن الطاقة التكنولوجية التى تُرجى من ورائها زيادة الإنتاج ؛ تعدو فى سباق مع التمرّد الإنسانى الطبيعى الذى يُبديه - فرادى - الفلاحون والعمال الصناعيون .

إن تكاثر الفلاحين - بأعداد ضخمة - يهدد بالقضاء على ثمار التقدم التكنولوجى . ذلك لأن تزايد سكان العالم ، يستوعب - بالتبعية - كل زيادة تطرأ على وسائل المعيشة . وفى الوقت نفسه ؛ يهدد العمال الصناعيون بالقضاء على ثمار التقدم التكنولوجى ، وذلك بتحديدتهم للإنتاج عن طريق الإجراءات المقيّدة التى تفرضها نقاباتهم فى وجه كل زيادة محتملة فى الإنتاج .

(٢) تأثير استخدام الآلات على المشروع الخاص

إن السمة البارزة فى المجال الاقتصادى والاجتماعى ، هى صراع الشد والجذب : بين التنظيم الذى تفرضه الصناعة الآلية وبين التمرّد العنيد للإنسان على هذا التنظيم .

وخطورة الموقف ، ماثلة فى الحقيقة الآتية :

إن تحول الصناعة إلى صناعة آلية ؛ والنظام المفروض ؛ أمران - لسوء الحظ - متلازمان . وإن مراقباً لهذا الموقف ، قد يرى إنطباعاته وقد تأثرت بالنور الذى يرى المنظر فى ضوءه . فن وجهة نظر الرجل الفنى ؛ قد يبدو أن موقف العناد الذى يقفه عمال الصناعة ، صيبانى ومجاف للعقل .

ألا يدرك هؤلاء الناس أن كل هدف مرجو لا بد له من ثمن ؟

وهل ظنوا أن فى وسعهم التحرر من العوز دون خضوعهم للاشتراطات التى لا بد من توافرها قبل إشباع حاجاتهم ؟

على أن المؤرخ قد يرى المشهد بعين مختلفة :

فلعله يستعيد إلى ذهنه أن الثورة الصناعية قد بدأت في إنجلترا خلال القرن الثامن عشر ؛ في عصر وبلد كانت تتمتع فيهما أقلية بقدر عظيم جداً من التحرر من القيود التنظيمية ، وأن أفراداً من تلك الأقلية هم الذين أبدعوا نظام الإنتاج الآلى . وكانت حرية الاستثمار التى ورثها هؤلاء الرواد الأول لحركة التصنيع عن مرحلة إجتماعية سابقة ؛ وحي المرحلة الجديدة ودعائها . وهى المرحلة التى كانوا هم مبدعيها ، وباعثيها إلى الوجود .

وقضلا عن ذلك ؛ فقد ظلت روح الحرية التى توافرت قبل الثورة الصناعية فى رب العمل ، والتى كانت المنبع الذى استقت منه الثورة الصناعية ؛ ظلت هذه الروح القوة الدافعة لهذه الثورة فى الفصل التالى من تاريخها . ومع ذلك ؛ فبينما استطاع رؤساء الصناعة أن يواصلوا - فى المرحلة الأولى - تجنب الوقوع تحت وطأة النظام الصناعى الذى هو من صنع أيديهم ؛ كان هذا هو المصير الذى لاقته الطبقة العاملة الجديدة فى المدن . والمدن هى التى أحسّت منذ البداية ، بالتأثيرات المدمرة على حياة البشر التى جاء بها نجاح التكنولوجيا المؤزر فى السيطرة على الطبيعة الغير البشرية . وإذا كانت التكنولوجيا - كما رأينا فى موضع سابق - قد حررت الإنسان من إسار تعاقب الليل والنهار ودورة الفصول ؛ إلا أنها فى تحريرها إياه من ألوان هذه العبودية القديمة ، قد أوقعتة فى عبودية من نوع جديد .

إن المنظمات النقابية التى كانت أظهر ما ساهمت به الطبقة العاملة فى بناء المجتمع الجديدة ؛ لم تكن إلا تراثاً تحدّر من نفس العهد الفردوسى : عهد النشاط « الخاص » السابق للثورة الصناعية . وهو العهد الذى كوّن رؤساء الصناعة . وإذا نُظر إلى هذه المنظمات النقابية باعتبارها وسائل لتمكين العمال من المحافظة على كياناتهم فى خيضم صراعاتهم مع أصحاب الأعمال ؛

إذا نظر إليها كذلك ، فهي — في حقيقة الأمر — من صنع نفس المرحلة الاجتماعية التي أنجبت خصومهم الرأسماليين :

وشاهدٌ على المشاركة في هذا الاتجاه ؛ نجده في الحقيقة الآتية :

فإن تصفية أصحاب الأعمال في روسيا الشيوعية ؛ قد أعقبه إخضاع النقابات لتنظيم معين . في حين أن تصفية النقابات في ألمانيا النازية ، قد أعقبه إخضاع أصحاب الأعمال الأفراد لتنظيم معين . وتختلف الأحوال عن ذلك في بريطانيا ؛ إذ أسفرت الانتخابات العامة في سنة ١٩٤٥ عن حكومة من حزب العمال ، وقام برنامجها على إنتزاع ملكية المشروعات الصناعية الخاصة من أيدي أصحابها ، مع صون الحرية الشخصية . لكن عمال الصناعات الموممة لم يفكروا إطلاقاً في حلّ نقاباتهم ، أو التخلّي عن حقّهم في النهوض بمصالح أعضائها ، باستخدام كافة الأساليب التي دأبوا على استخدامها ضد « المستغلّين » الأفراد الذين انتزعت منهم ملكية مشروعاتهم الخاصة . ولم يُنظر إلى هذا الإجراء على أنه مجاف للمنطق . ذلك لأن الغرض من نقابات العمال ، هو أن تقاوم التنظيم التعسّقي للعمال ؛ سواء فرضته الدولة ، أو فرضه الرأسمالي .

ومن سوء الحظ ؛ أن مقاومة العمال الخضوع لتنظيم تعسّقي — على أيدي أصحاب الأعمال — قد أدت بهم إلى إخضاع أنفسهم لتنظيم تعسّقي من صنع أيديهم . فإنهم في مقاومتهم مصير التحوّل إلى آلات بشرية في المصنع ؛ قد فرضوا على أنفسهم مصير العمل كآلات بشرية في نقاباتهم . إن هذا المصير لا مهرب منه . هذا ولكن يجدوا عزاءً في أن عدوهم القديم المألوف — أي رب العمل الفرد — أصبح الآن هو أيضاً ، يخضع للتنظيم المفروض على الجماعة ، وأنه هو نفسه قد فقد كيانه واستحال — على غرارهم — إنساناً آلياً .

وهكذا ؛ لم يعد خصم العمال طاغية بشرياً تُدركه الأفهام وتُصَبّ على رأسه اللعنات وتحطّم نوافذ بيته ، وقمّا يفقد الجمهور صوابه . بل تحوّل خصم العمال - في نهاية المطاف - إلى سلطة جماعية غير شخصية ، أعظم اقتداراً وأشدّ مكرّاً من أى كائن بشرى تمقته النفس وتبغضه :

وإذا كان إخضاع العمال أنفسهم لتنظيم تعسقى يلزمون به ، نذيراً بالسوء ؛ فإنه لأمر يبعث على الأسى ، أن نرى الطبقة الوسطى في الغرب وقد شرعت تسلك الطريق الذى ما برحت طبقة عمال الصناعة في الغرب تسير فيه منذ أمد طويل :

لذا يعتبر القرن الذى انتهى عام ١٩١٤ ميلادية ؛ العصر الذهبى للطبقة الوسطى في الغرب . بيد أن العصر الحديد قد شهد لإنهيار هذه الطبقة - بدورها - في نفس البؤس الذى حكمت به الثورة الصناعية على طبقة عمال الصناعة . لقد كانت تصفية البورجوازية في روسيا السوفيتية ، نذيراً مثيراً . ولكنك واجد دليلاً أدق لما نستأق به الأيام في التاريخ الاجتماعى المعاصر لبريطانيا وغيرها من البلاد التى يتكلم أهلها الإنجليزية ؛ حيث لم تنشب أية ثورة سياسية .

وإن أبرز الخصائص السيكلوجية المميزة للطبقة الوسطى في الغرب - إذا قورنت بطبقة « العمال » سواء الكتائين أو اليدوين - إن أبرز هذه الخصائص السيكلوجية ؛ تتجلى في إقبال الطبقة الوسطى الشديد على العمل . بيد أن الحال ، قد تغيّر كثيراً عما كان عليه من قبل . ويطالعنا في هذا الشأن ، مثال عظيم ضئيل في قدره عظيم في مغزاه :

ففي عام ١٩٤٩ ؛ أخفقت البيوت المالية في والستريت Wall Street^(١) بمانهاتن ، قلعة الرأسمالية في الولايات المتحدة ، في حثّ كتاب الاختزال

(١) حى المال والأعمال في نيويورك . (المترجم)

— ببذل مكافآت سخية عن ساعات العمل الإضافية — على إعادة النظر في قرارهم الجماعي بالامتناع عن العمل في مكاتبتهم صباح أيام السبت . وكان أرباب الأعمال تواقين إلى التضحية بعطلتهم يوم السبت ، بغية إجتماع الربح الذى يفقدونه إذا سلموا بإنقاص فترة العمل الأسبوعى . ولكنهم لم يعودوا قادرين على أن يؤدوا أعمالهم دون وجود عمال الاختزال إلى جانبهم يساعدونهم فى أعمالهم . وألقوا أنفسهم عاجزين عن إقناع معاونيهم هؤلاء ، الذين لاغنى عنهم فى أداء الأعمال الجالبة للمال ؛ إقناعهم بأن العمل صباح السبت من كل أسبوع أمر يستحق التضحية . فقد أصبح كتاب الاختزال مقتنعين بأن راحة إضافية ليوم^{٢٢} — أو حتى لنصف يوم — لها عندهم قيمة أهم من مغريات مالية تُبذل لسحب قرارهم . إذ لم تعد الأجور الإضافية ذات نفع لهم ، ما دام الحصول عليها يتطلب التضحية بوقت فراغ إضافي ينفقون فيه تلك الأجور . وأنهم — فى هذه المفاضلة بين المال ومتع الحياة — قد آثروا متع الحياة على حساب المال . ولم يفلح أرباب الأعمال فى إقناعهم بالعدول عن رأيهم .

ولم يأت عام ١٩٥٦ ؛ حتى أخذ يظهر للعيان شئ أبعد من مسألة إنصياح كتاب الاختزال — تحت تأثير المال — لوجهة نظر المالىين فى وال ستريت ؛ ذلك هو احتمال تحول رجال المال فى نهاية المطاف — بدافع من الضيق الاقتصادى — إلى وجهة نظر كتاب الاختزال . فقد بدأ يهب على حى المال فى نيويورك ، نسيم سبق أن لطّف حرارة القلوب القاسية لرجال الأعمال فى حى المال فى « لمبارد ستريت » بلندن .

وقد ضاقت — باستمرار — خلال القرن العشرين فُرص الأعمال المربحة أمام الطبقة الوسطى فى مراكز النشاط الرأسمالى فى الغرب ؛ مركزاً بعد آخر ، وكان لهذه التغيرات الاقتصادية آثار زلزلت لمعنويات الطبقة الوسطى : فإن هذه الحماصة للعمل التى عُرِفَتْ عن هذه الطبقة قد جفّت بفعل

القيود المتزايدة في مجال النشاط الخاص . كما أن التضخم والضرائب المرهقة قد جعلاً من فضيلتها التقليديتين - الكدح في سبيل الكسب والتوفر على الادخار - جعل منهما أمراً لا معنى له . وتضافر إرتفاع تكاليف المعيشة ، مع ما صاحبه من إرتفاع مستوى المعيشة - في الوقت نفسه - على خفض حجم عائلات الطبقة المتوسطة . وجاء حرمانها من الالتحاق بالوظائف العامة ، مهدداً بزعزعة كفايتها المهنية ؛ كما جاء فقدانها وقت « الفراغ » منذراً بتقويض ثقافتها . وبالإضافة إلى ما تقدم ؛ كابدت المرأة من الطبقة الوسطى متاعب أشد مما كابده الرجل . والمرأة هي الأم التي اعتمدت عليها - كما دلّت كتب السير - الطبقة المتوسطة العالمية في الدفاع عن كيانها . وقد ترتب على هجر الطبقة المتوسطة - بالتدريج - الأعمال الخاصة ودخولها في الوظائف العامة أو ما يعادلها - سيكلوجيا - من وظائف المؤسسات الكبرى الغير الحكومية ؛ ترتبت على ذلك مكاسب للمجتمع الغربي ، كما ترتبت عليه خسائر .

فأما عن المكاسب : يتمثل المكسب الأساسي في إخضاع الحافز الذاتي للكسب ، للحافز الغيرى للخدمة العامة . ويتأتى قياس القيمة الاجتماعية لهذا التغير ، بإمعان النظر في نتائج ما أسفرت عنه التغيرات التي تناظره في تاريخ الحضارات الأخرى . وتطالعنا مثلاً ؛ الصحوحة الاجتماعية التي إنبعثت عن إنشاء الإمبراطوريات العالمية في تاريخ الحضارات : الهلينية والهندية والصينية . إذ قد أنجزها وميّزها بطابعه - إلى حد كبير - توجيه مواهب طبقة دأبت على النهب والسلب ، إلى الخدمة في الوظائف العامة . ومصدّقاً لذلك ؛ استطاع أغسطس وخلفاؤه أن يجعلوا من رجال الأعمال الرومانيين الجشعين ، موظفي حكومة أختيار . وصنع الإمبراطور الصيني « هان ليو بانج » وخلفاؤه ، موظفين صالحين من أعيان الطبقة الإقطاعية النهبية . وصاغ كورنواليس وخلفاؤه ، موظفين صالحين من الوكلاء التجاريين الجشعين لشركة الهند الشرقية البريطانية .

وأما عن الحسائر : فإنه على الرغم من إختلاف الوسائل فى كل من هذه الحالات ، أسفرت النتائج عن مظاهر ضعف بارزة . ويمكن تفسير فشلها - فى النهاية - بالبليلة الفكرية الكامنة فى نفوس المشتغلين بالخدمة العامة ، حيث تلقى أسمى الفضائل وهى فضيلة النزاهة ؛ ولكن يضعفها الافتقار إلى التحمس للعمل ، وعزوف عن اتخاذ موقف المبادأة أو التعرض للمخاطر . وتبدى هذه المظاهر - فى الوقت الحاضر - فى المحيط العام لموظفى الخدمة المدنية العامة ، من خلال استقراء أحوال الطبقة المتوسطة الغربية أثناء القرن العشرين . ولا يبدى هذا الاستقراء ما يبشر بنجاحها فى القيام بالعبء الهائل الذى لاشك ستواجهه إن آجلاً أو عاجلاً ؛ وهو عبء تنظيم الحكومة العالمية والمحافظة عليها .

فإذا مارسنا دوافع المنحى التفكيرى للخدمة العامة ؛ نجدها - فى جوهرها - إستجابة لتحدد قوامه ضغط على النفوس البشرية ؛ لا يقل فى شدته ، عما لو كان مصدر هذا الضغط مادياً لروحانياً . ذلك لأن تطويع الجهاز الحكومى للدولة بلغت درجة عالية من التنظيم ونحكم ملايين كثيرة من البشر ، عمل شاق مدمر للنفس البشرية ؛ شبيه بتطويع مجموعة من آلات تدار فى مصنع ، إدارة علمية مثالية .

وفى الواقع ؛ قد تكون الإجراءات الحكومية أعظم فى التعبير أثراً ، من الحديد بالنسبة للمبانى . ولقد تغلغت هذه الإجراءات فى نفوس موظفى الدولة . وبالمثل ؛ يماثل الدور الذى يؤديه نظام حزبى جامد فى مجالس تشريعية مثقلة بالعمل ، الدور الذى تقوم به الأنظمة الشكلىة والروتين ، فى حكومة مثقلة بأعباء المسئوليات .

ولم يكن عسيراً ؛ إدراك دلالة هذه الاتجاهات جميعاً لمستقبل النظام الرأسمالى المألوف . إذ ما برح رصيد الطبقة الوسطى الغربية من الطاقة السيكولوجية التى اكتسبتها قبل الثورة الصناعية ؛ يُشكل القوة الدافعة للنظام

الرأسمالى . وإذا كانت هذه الطاقة قد استقطبت اليوم ثم تحولت فى نفس الوقت من النشاط الفردى الخاص إلى الخدمة العامة ؛ فإن هذا التحول نذير بنهاية النظام الرأسمالى .

« إن الرأسمالية فى جوهرها ؛ عملية تحول اقتصادى . . . إذ بانتفاء الابتداء ، يختفى عنصر أرباب الأعمال . وباختفاء دور أرباب الأعمال ، الفقد ، تختفى الأرباح الرأسمالية من الوجود ، ويزول معها الدافع الرأسمالى . إن المناخ الذى تنمو فيه الثورات الصناعية - أو « التقدم » بمعنى آخر - هو وحده المناخ الذى تستطيع الرأسمالية العيش فيه . . إن الرأسمالية المستقرة شىء يتناقض مع طبيعتها » (١) .

وقد بدا كما لو أن ظاهرة التنظيم الدقيق التى تفرضها التكنولوجيا الصناعية ؛ أخرى بأن تسلب الحيوية ، من روح الاستثمار الخاص الموروث من عهد ما قبل الثورة الصناعية . وقد أثار هذا الاحتمال سوؤالا آخر :

هل يستطيع النظام التكنولوجى القائم على الصناعة الآلية أن يظل حيا بعد انهيار النظام الاجتماعى القائم على النشاط الخاص ؟

وإن لم تُكتب له الحياة ؛ فهل تستطيع الحضارة الغربية - نفسها - أن تظل فى الوجود ، بعد انقراض الصناعة الآلية التى قدمت لها تلك الحضارة رهائنها ؛ وذلك حين سمحت لسكانها بالتكاثر - إبان عصر الآلة - إلى مدى أبعد مما يستطيع احتمال أى اقتصاد لا يقوم على الصناعة ؟

لا مشاحة فى أن النظام الصناعى لا يستطيع أن يحيا ويعمل ، إلا حينما يتوافر رصيد - من الطاقة الإبداعية الذاتية - يدفعه إلى العمل . ولقد تمثلت هذه الطاقة الدافعة - حتى اليوم - فى الطبقة المتوسطة .

Shumpeter, J.A. : Business Cycles (New York 1939, McGraw-Hill (١)

2 vols II p. 103.

وهكذا ؛ يبدو ان السؤال النهائي هو : هل ثمة مصدر آخر للطاقة الذاتية يتأتى استخدامه لتحقيق نفس الغايات الاقتصادية ويستطيع العالم الآخذ بأسباب الحضارة الغربية الاعتراف منه ؛ إذا لم يكن ثمة مناص من استقطاب طاقة الطبقة المتوسطة أو تحويل اتجاهها ؟

فإذا كان ثمة بديل عملي يمكن التوصل إليه ، ففي وسع العام أن يتطلع - وهو رابط الجأش - إلى نهاية النظام الرأسمالى . أما إذا لم يتوافر هذا البديل ، فإن المستقبل ملىء باحتمالات القلق والاضطراب .

وبالأحرى ؛ إذا كانت « مكنكة » الصناعة قد تطلبت فرض التنظيم الدقيق ، وإذا كان هذا التنظيم الدقيق قد استلب الروح من الطبقة العالمية فى للصناعة ومن الطبقة الوسطى بعدها ؛ فهل فى وسع أى يد بشرية - أيا ما تكون - أن تعالج الآلة الجبارة دون أن تحيق بها المكارها ؟

٣ - محاولات بديلة لتحقيق التوافق الاجتماعى

عولجت المشكلة الاجتماعية التى تواجه البشر من زوايا مختلفة فى البلاد المختلفة ؛ إحدى هذه الزوايا فى أمريكا الشمالية ، والثانية فى الاتحاد السوفيتى ، والثالثة فى غرب أوروبا :

١ - فأما عن النمو فى أمريكا الشمالية ، فاعلمها قد استوحته من مثل أعلى مناطق تشييد فردوس أرضى فى عالم جديد . ويقوم هذا الفردوس الأرضى على أساس من النشاط الخاص ، آمن سكان أمريكا الشمالية (ونعنى شعب الولايات المتحدة والمتكلمين بالإنجليزية فى كندا) بقدرتهم على الاحتفاظ به سليما معافى ، مهما يكن من أمر مصيره فى البلاد الأخرى . ويتم ذلك برفعهم المستوى الاقتصادى والاجتماعى لطبقة الأجراء إلى مستوى الطبقة المتوسطة . ومن ثم ؛ هدفوا إلى إبطال مفعول ما وصفناه فى التسم السابق بالآثار الطبيعية الناجمة عن تعميم الآلات فى الصناعة .

قد يكون هذا الإيمان ملهما دافعا إلى العمل ، ولكنه متناه في البساطة ، يقوم على بضعة أوهام يمكن أن تنحصر كلها في وَهْم أساسي هو وَهْم : العزلة .

وتفسير ذلك ؛ أن العالم الجديد ، ليس جديداً كما تمنى المعجبون به أن يكون . ذلك لأن الطبيعة البشرية — وتحمل بين طياتها الخطيئة الأصلية (١) — قد عَبَّرت المحيط مع المهاجرين الأوائل وأورثوها أخلاقهم . بل أنه حتى في القرن التاسع عشر — حين كان يبدو أن مبدأ العزلة قابل للتطبيق على الصعيد السياسي — كان هذا الفردوس الأرضي يحوى بين ظهرانيه فيضاً من الحيات (٢) . حتى إذا تقدم القرن العشرون وعبس وجه الزمان ؛ انضح — شيئاً فشيئاً — أن ثنائية العالم — أى جديد وقديم — نظرية لاتتمشى والحقائق . فلقد أصبح الجنس البشرى بأسره ، معرضاً لمصير واحد . وتبين أن فلسفة للحياة غير صالحة للتطبيق على الجنس البشرى كله ، لن يتأتى تطبيقها — على طول المدى — على أى جزء منه .

٢ — أما أسلوب الروس في تناول مشكلة الصراع الطبقي ، فقد استمدوه (مثلما فعل الأمريكيون) من مثلهم الأعلى في إقامة فردوس أرضى . وتبلور هذا الأسلوب (مثل الأسلوب الأمريكى) في سياسة ترمى إلى التخلص من الصراع الطبقي باستبعاد الانقسامات الطبقية .

وهنا تنتهى المشابهة بين الأسلوبين ؛ الروسى والأمريكى : إذ بينما يجد الأمريكيون في درج الطبقة العاملة في الصناعة بالطبقة الوسطى ؛ عمل الروس على إبادة الطبقة الوسطى ، وحرّموا جميع ضروب الاستثمار الخاص . ولم يقتصر الحظر على الرأسماليين ، بل تعداهم إلى نقابات العمال .

(١) أى خطيئة آدم وحواء بمخالفتها أوامر الله تعالى . وعند العقيدة المسيحية أن هذه الخطيئة قد ورثتها البشرية ، وأصبحت لاصقة بها . (المترجم)

(٢) يشير الأستاذ المؤلف هنا إلى الحية التى أسرت إلى حواء بارتكاب المصيبة .

(المترجم)

وتتضمن السياسة الروسية الشيوعية عناصر قوية ، عجز خصوم الاتحاد السوفييتي من الغربيين عن التهورين من شأنها ؛ تأتي الأيديولوجية الشيوعية — ذاتها — في مقدمتها ، وهي أعظمها شأنًا . وقد توثبت الأيام — على طول المدى — أن هذه الأيديولوجية ، قد تصلح بديلا من العقيدة الدينية لاتقنع به النفس . إلا أنها تقدم — في المدى القصير — للنفوس المهجورة القلقة ؛ إشباعاً لإحدى احتياجات الإنسان الدينية العميقة ، بفضل تقديمها له هدفا يسمو على أغراض الإنسان الشخصية الحقيرة^(١) .

فكان أن أصبحت رسالة تحويل العالم إلى الشيوعية — والحالة هذه — أعظم بهجة من رسالة إبقائه ميدانا صالحا لتحقيق حق المرء في إجتناء الريح ، أو حقه في الاضراب . إن « روسيا المقدسة »^(٢) أصبحت نداءً أعظم استثارة للحرب من نداء « أمريكا السعيدة » .

وثمة نقطة قوية أخرى في الأسلوب الروسى هي أن موقع روسيا الجغرافى ؛ جعل اعتناق الروس « وهم العزلة » أمراً مستحيلا . إذ ليس لروسيا « حدود طبيعية » . بالإضافة إلى أن الماركسية — كما يبشر بها الكرملين^(٣) — تجد هوى قويا عند جمهرة فلاحي العالم : من الصين إلى بيرو ، ومن المكسيك إلى أفريقيا الاستوائية . ذلك لأن روسيا بحالتها الاجتماعية والاقتصادية ؛ أقرب كثيراً من الولايات المتحدة لقلوب ثلاثة

(١) اقتبس الأستاذ المؤلف في الأصل — تعبيراً عن رأيه — الآيات ٢٤ — ٢٦ من الإصحاح الحادى عشر من « إنجيل لوقا » وتذكر « متى خرج الروح النجس من الإنسان ، يجتاز في أماكن ليس فيها ماء يطلب الراحة . وإذا لا يجد ؛ يقول أرجع إلى بيتى الذى خرجت منه . فيأتى ويجده مكنوساً مزيناً . ثم يذهب ؛ ويأخذ سبعة أرواح آخر أشراً منه فتدخل وتسكن هناك . فتصير أواخر ذلك الإنسان أشراً من أوائله » . (المترجم)

(٢) لقب كان يطلق على روسيا القيصرية . (المترجم)

(٣) تعنى كلمة كرملين بالروسية ، قلعة . لكن أصبح يراد بها مقر الحكم بموسكو حيث يجتمع السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتى ، ومجلس الوزراء وغيرهما من هيئات الدولة الرئيسية . (المترجم)

أرباع الجنس البشرى الكسيرة ؛ تلك التى تتنافس الدولتان المتنازعتان على حطّط ودّها . وإن فى وسع روسيا أن تتباهى - وتتبدّى للعيان فى هذا صداقة - بأنها قد أنقذت نفسها بجهدها ، وأن فى وسعها بالمثل . إنقاذ بروليتارية العالم ؛ باحتذاءها مثلها هذا .

هذا ؛ وإن ثمة جزءاً من هذه البروليتاريا ، يُقيم داخل الولايات المتحدة نفسها . ولا تُخفى طائفة من الدوائر الأمريكية المعادية للشيوعية خشيتها من أن يجد إغراء الشيوعية هدى فى نفوس أفراد هذه البروليتاريا الأمريكية ؛ بل تنقلب خشية هذه الدوائر فى بعض الأحيان إلى نوع من المستريا .

٣ - أما أسلوب أوروبا الغربية فى تناول مشكلة الصراع الطبقي - وهو أسلوب نراه أكثر ما يكون وضوحاً فى بريطانيا والدول الاسكندنافية - فإنه يختلف عن الأسلوبين الأمريكى والروسى ، من ناحية أنه أقل منهما تزمّتاً . لقد انضح للطبقة المتوسطة فى الغرب أنه يستحيل عليها - من الناحية العملية - أن تحذو حذو الطبقة المتوسطة فى أمريكا الشمالية ، فى بذلها عن طوعية للطبقة العاملة ، جماع مسراتها ممثلة فى مستوى معيشتها ، ووفرة من الفرص لإشباع طموحها الشخصى . سيما وأن أقطار الغرب كانت بسبيل فقدانها السلطان والثراء لتستأثر بهما الدولتان الماردتان^(١) اللتان قامتا على أطراف العالم الغربى .

وأكثر من ذلك إمعاناً فى الاستحالة العملية ؛ أن يُقدّم للطبقة العاملة فى الصناعة - فى غرب أوروبا - النظام الشيوعى بجذافيره .

وعلى هذا ؛ فإن الأسلوب السائد فى بريطانيا ودول سكندنأوا هو محاولة لإيجاد أسلوب وسط ، عن طريق تجربة الجمع بين النشاط الفردى

(١) أى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . (المترجم)

والتنظيم الفردي والتنظيم الحكومي الدقيق بما يحقق العدالة الاجتماعية . وبات يطلق على تلك السياسة اسم « الاشتراكية » . وهو تعبير كان موضع تمجيد المعجبين به من البريطانيين ، بينما كان موضع إزدراء نقّاده من الأمريكيين .

أما النظام البريطاني المعروف بـ « دولة الرفاهية » فقد شُيّد لبنة لبنة . وتعاونت في بنائه - عن طريق التشريع - جميع الأحزاب السياسية ، عن أرضى واختيار .

٤ - الأعباء المتوقعة للعدالة الاجتماعية

يستحيل أن تتوافر للإنسان حياة اجتماعية دون أن يُكفل له قسط من الحرية الشخصية ، ومن العدالة الاجتماعية معاً .

والحرية الشخصية ، شرط لا غنى عنه للإنجازات البشرية ، أيا ما يكون نوعها ، خيراً كان أم شراً . على حين أن العدالة الاجتماعية هي القاعده الأساسية ، التي تحكم التعامل بين البشر . ولإذ تدفع الحرية الشخصية الطليقا بأضعف الناس إلى أسوأ منزلة ، لن يتأتى تطبيق العدالة الاجتماعية على علائها ، بدون كبت الحرية التي بدونها تنفث طاقة الإبداع من الطبيعة البشرية .

ومن ثم ؛ تقع جميع النظم الاجتماعية المعروفة في موضع بين هذين الطرفين النظريين المطلقين . ويطالعنا - من قبيل المثال - عنصر الحرية الشخصية والعدالة الاجتماعية ممزجين بنسب مختلفة في دستورى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى السارين في الوقت الحاضر . ولقد اصطلح في أنحاء العالم الآخذ بأسباب الحضارة الغربية في منتصف القرن العشرين على تسمية هذا المزيج - أيا ما تكون نسبته - بـ « الديمقراطية » . إذ غدا هذا الاصطلاح المقتبس من لغة السياسة عند اليونان - حيث كان يُستخدم في معنى التحقير - غدا شعاراً يلتزم به كل سياسى يحترم نفسه .

وباستعماله على هذا النحو ؛ أصبح اصطلاح « الديمقراطية » مجرد صثار

من الدخان لإخفاء الصراع الحقيقي بين المثليين الأعلى : الحرية والمساواة ، والمبدأ الوحيد الذي اكتُشف للتوفيق بين هذين المثليين المتعارضين ، هو مبدأ وسط بينهما وهو « الإخاء » . وإذا كان خلاص الإنسان اجتماعيا يعتمد على أماله في تحويل هذا المبدأ السامى من شيء نظرى إلى عالم الحقيقة ، فسيُتضح للإنسان أن حلق السياسيين وتفننهم لم يحمله بعيداً . ذلك لأن تحقيق مبدأ الإخاء ، ما برح بعيداً عن تناول البشر ؛ طالما وثقوا بقوتهم وحدها ولم يعتمدوا على سواها . « إن أخوة الإنسان منبعث من أبوة الرب » .

وإذ أصبحت الحرية الشخصية والعدالة الاجتماعية تأرجحان في كفتي الميزان ؛ فقد ألقت التكنولوجيا بثقلها في كفة العدالة الاجتماعية ، وهى خصم الحرية الشخصية :

ويمكن تصوير هذا الاستنتاج ودعمه ؛ بالتطلع إلى حالة مجتمع آتية ، وقد تبدت للعيان فعلاً ؛ وإن لم تصبح قريبة المال بعد :

فلنفترض - تيسيراً للمناقشة - أن أسلوباً تكنولوجياً جباراً ، قد أنجز بالفعل الأعمال الضخمة التالية من منجزاته . فإن التكنولوجيا حين تضع القنبلة الذرية في يد الإنسان ، تضطره حتماً إلى إبطال الحرب . ثم إنها تعاون - حتماً - على خفض معدل الوفيات إلى أدنى حد لم تصل إليه البشرية من قبل ؛ وذلك بفضل توزيعها منافع الطب الوقائى على جميع الطبقات والأجناس ، بلا أدنى تمييز .

ولنفترض كذلك - كما كان محتملاً فعلاً - أن هذه التحسينات السمحة في الظروف المادية للحياة ؛ قد سارت بسرعة كبيرة عجزت التغيرات الاجتماعية عن مجاراتها ؛ فلنتصور أن ثلاثة أرباع البشر من الفلاحين لا يزالون محتفظين بنمط حياتهم المأثور عنهم ، ألا وهو تكاثر نسلهم بنسبة تفوق مقومات معيشتهم . ويقضى هذا الافتراض - بدوره - أن نتصور أنهم بتكاثر أعدادهم لا بد مستهلكون كل المقومات الإضافية للمعيشة التى

وضعها العلم بين أيديهم ، وذلك بقيام « نظام عالمي » يجلب معه ثمار السلام ؛
وفى طليعتها : الأمن والصحة ، وتطبيق العلم لإنتاج الطعام .

ولستنا بمغالين في تصور هذه النذُر المشئومة ، فهي ليست سوى
إنعكاساً في قابل الأيام لانتجاهات تجرى منذ أمد طويل . وتؤيد وجهة نظرنا
هذه ؛ دراسة أحوال الصينيين . إذ ما برح تكاثر سكان الصين يستوعب زيادة
وسائل المعيشة التي ترتبت على زراعة محاصيل غذائية لم تعرفها البلاد ،
وقد جلبت من الأمريكيتين خلال القرن السادس عشر ؛ كما كانت نتيجة
لما نعمت به البلاد سلام في عصر الإمبراطورية المانشوكية في القرن السابع
عشر . فإنه بفضل توطئ الذرة في الصين حوالي عام ١٥٥٠ ميلادية
والبطاطا حوالي عام ١٥٩٠ م والفول السوداني بعد ذلك ببضعة أعوام ؛
تزايد السكان من ٦٣ر٥٩٩ر٥٤١ نسمة وفقاً لتعداد ١٥٧٨ م إلى الرقم
التقديري ١٠٨ر٣٠٠ر٠٠٠ عام ١٦٦١ . ثم ارتفع عدد السكان بعد ذلك
إلى ١٤٣ر٤١١ر٥٥٩ عام ١٧٤١ وإلى ثلاثمئة مليون في منتصف القرن
التاسع عشر فلم يَسْتَمِتْ مليون في منتصف القرن العشرين . ولا تُبْدى هذه
الأرقام مجرد زيادة عادية ، لكنها تعبّر عن زيادة متواصلة تمت وفقاً
للتوالي هندسية ، رغباً عما حلّ بالبلاد من أرزاء دورية مثل الطاعون
والأوبئة والجاعات والمعارك الحربية والقتل والموت المفاجئ .

ونفس الشيء حدث في الهند وإندونيسيا وغيرها من الأقطار .

فإذا كان هذا قد حدث بالأمس ، فما هي احتمالات الغد ؟

إن الخصب والأزدهار المترين على التطبيق العلمي ، قد أنتجا بالفعل
وفرة ما برحت تفتّد تشاؤم مالتس^(١) حتى اليوم . إلا أن مساحة الأرض
محدودة ، وهذا أمر لا يمكن التغلب عليه . ويترتب عليه وضع حد

(١) عالم اقتصادي إنجليزي قرر بأن السكان يتزايدون وفقاً لتوالي هندسية ، بينما تزايد
الموارد الطبيعية وفقاً لتوالي حسابية . (المترجم)

للزيادة المطردة في إنتاج الموارد الغذائية للبشر . ويبدو من المحتمل ، أن تصل الأرض إلى حدها الأقصى في إنتاج الطعام قبل أن يبتذ الفلاحون عاداتهم في الإقبال على التكاثر .

وإذ نتنبأ بتحقيق آراء مالتس بعد انقضاء عصره ؛ فأحرى بنا التنبؤ كذلك بقيام نوع من السلطة العالمية تأخذ على عاتقها أن تكفل الاحتياجات المادية الأساسية لسكان الأرض جميعاً ، خلال فترة « المجاعة الكبرى »^(١) التي سيواجهها العالم . ولن يصبح الأطفال وقتئذ مسألة خاصة تتعلق بالزوجات والأزواج وحدهم ، بل تغدو من اختصاص سلطة عامة لا أحد لسلطانها العام .

وحرى بالذكر ؛ أن أبعد ما بلغته الحكومات حتى الآن في تطفلها على هذا الحرم المقدس من الحياة الخاصة ؛ هو منحها مكافآت سلبية أو إيجابية^(٢) لأرباب الأسر الكبيرة الحجم . وذلك إذا كانت السلطات الحكومية حريصة على توفير القوة البشرية للعمل أو لتكون وقوداً للحرب . وما كان لها أن تتصور أن تحرم على رعاياها تقييد حجم عائلاتهم ، بأكثر من إقدامها على إرغامهم على التكاثر . وحقاً ؛ ما برحت حرية الإنسان في الإنجاب - أو الامتناع عنه - قضية مسلماً بها دون جدال ؛ حتى أنه - في وقت متأخر نسبياً عام ١٩٤١ - لم يخطر على بال الرئيس روزفلت أن يرفع عدد الحريات البشرية الأصلية التي أعلنها في ميثاق الأطلسي ، من أربعة إلى خمسة ، بتسجيله - صراحة - حق الأبوين المقدس في تحديد حجم عائلتهما . ويبدو الآن كما لو أن المستقبل سيظهر ما كان في إغفال روزفلت لهذه المسألة من منطق غير مقصود . إذ قد بدا - أخيراً - أن الحرية

(١) وهي الفترة التي يتوقع المؤلف مجابهة العالم لها بفعل زيادة السكان زيادة تفوق موارد الطعام . (المترجم)

(٢) الإعفاء من الضرائب هو قاعدة المكافآت السلبية . أما المكافآت الإيجابية فلها تتمثل في زيادة المرتبات ومنح المكافآت النقدية أو العينية . (المترجم)

الجديدة التى نادى بها وهى « التحرر من العوز » لن يمكن كفالتها للبشر إلا إذا نزعنا منهم « حرية الإنجاب » .

أما كيف يتحقق هذا ؛ فشكلة تثير طائفة من الأسئلة البالغة الدقة :

إذا جاء الوقت الذى يصبح فيه — حقاً — إنباب الأطفال مسألة تتولاها بالتنظيم سلطة خارجية ، فكيف ينتظر أن تستقبل أغلبية البشر من الفلاحين هذا القيد على حريتهم الشخصية ؟

ومن الناحية الأخرى ؛ يرى ما هو موقف أقلية البشر التى حررتها التكنولوجيا الصناعية فعلا من إفسار عادة لم تكن قط موضع نقاش ، عادة الفلاحين فى التكاثر ؟

يرجح نشوب جدال مرير بين هذين القطاعين من الجنس البشرى ؛ فإن لكل جانب ما يشكوه من إنباب الآخر . إذ يستنكر العمال الصناعيون أن يكونوا مسئولين — أدبياً — عن إعاشة جماهير الفلاحين الذين لا يقف تكاليفها عند حد . أما الفلاحون فيستملكونهم الأذى لما يتهددهم من فقد حريتهم التقليدية فى تكثير نوعهم ؛ بحجة أن ذلك هو وحده البديل من الموت جوعاً . إنهم سيثبتون ببدل هذه التضحية وقتما تزداد الهوة — على الأرجح — إتساعاً عما كانت عليه ، بين مستوى حياتهم الهزيل ، ومستوى حياة العمال الصناعيين ؛ فى البلاد الغربية ، أو البلاد الآخذة بأسباب الحضارة الغربية .

والحق إن الاتساع المطرد لهذه الهوة ؛ هو إحدى النتائج التى يجب توقعها وذلك إذا صدقت توقعاتنا عن أنه فى الوقت الذى يصل فيه إنتاج العالم من الأغذية أقصى مداه ، ما فقى الفلاحون المتكاثرين يستهلكون الموارد الإضافية من الغذاء لإعاشة أفواهم المتزايدة ، فى حين يستخدم العمال الصناعيون هذه الموارد فى رفع مستوى معيشتهم .

وفي هذه الحالة ؛ لن يرى الفلاحون داعياً — قبل أن يُطلب إليهم التخلي عن أقدس حقوق الإنسان — أن تُطالب الأقلية المتخمة ، بالتخلي عن نصيب أكبر من فائض مواردهم التي يسيل لها لعاب الفلاحين . إلا أن هذا المطلب لا بد سيصطدم بالصفوة من أهل الغرب ، إذ يعدونه أمراً سخيفاً مجافياً للعقل .

فما هو الداعي لتحميل الصفوة الغربية (أو ذات الصبغة الغربية ، وهي التي تدين برضاها إلى حصافتها وبعد نظرها) ؛ وزر صدوف أهل الريف عن كبج جماعهم الجنسي ؟

يبدو هذا الطلب أشد مجافاة للعقل ، إذا أُخذ في الاعتبار أن التضحية بمستويات المعيشة في المغرب لن يستبعد طيف المجاعة العالمية ، لكنه سيؤخره فترة طفيفة من الزمن تؤدي التضحية خلالها إلى النزول بأعلى الطبقات مستوى ، إلى مستوى الأقوام المتخلفين .

إن ردّ فعل — يمثل هذه القسوة — لن يعين على التوصل لحل المشكلة . وحققا ؛ نستطيع أن نستشف منذ الآن ، بأن ردّ الفعل الغالب عند الإنسان في الغرب — إن حدثت مثل هذه المجاعة الغذائية التي تبدأنا بمحوها — لن يتمشى وهذه الخطوط الثقيلة الوقع . إذ تولّف التقديرات الحصرية للمصلحة الذاتية المستنيرة ، والنزعة الإنسانية في التخفيف من آلام البشر ، والشعور بالتزام أدبي قد يكون هو التراث الروحي الباقي من عقيدة مسيحية تُبذت ، يؤلف هذا كله مزيجاً من الدوافع التي تُأهم — بالفعل — طائفة من الجهود الدولية لرفع مستوى الحياة في البلاد الآسيوية والإفريقية . وإن من شأن هذه الدوافع الكريمة أن يُدفع الإنسان في الغرب إلى أن يؤثر أداء دور السامري الصالح على دور الكاهن أو اللاوي (١) .

(١) السامري الصالح : لقب يطلق على الإنسان الخير . والتشبيه مقتبس من إنجيل لوقا — الإصحاح العاشر آيات ٣٠ - ٣٧ . وتذكر أن لوصفاً اعتدوا على أحد الأفراد .

فإن حدث أن قام هذا الجدل حينئذ ؛ يحتمل أن ينتقل من مجال الاقتصاد والسياسية إلى مجال الدين ، تبعاً لاعتبارات كثيرة .

إن إصرار أهل الريف على تكثير نسلهم إلى أقصى حد تتيحه لهم موارد من الغذاء ؛ ونتيجة اجتماعية لعامل ديني لا يمكن تعديله ، من غير إحداث تغيير في موقف أهل الريف من الدين ونظرتهم إليه .

إن نظرة أهل الريف للدين (تلك النظرة التي جعلت عادة الفلاحين في التكاثر على مثل هذا الصمود للجدال) قد لا تكون خالية من المنطق في أصولها ، فقد كانت بقية من ظروف مجتمع بدائي .

وقد قضت التكنولوجيا الآلية على البيئة الاجتماعية والاقتصادية التي أضيفت معنى اقتصادياً واجتماعياً على تمجيد الإخصاب العائلي . بيد أن التشبُّث بتلك العقيدة بعد أن فقدت كل معنى لها ؛ يعتبر نتيجة البطء النسبي لخطى النفس في مجال الإدراك اللاشعوري ، إن قورن ذلك بسرعة خطى العقل والإرادة .

وهكذا ؛ تصعب رؤية حل للمشكلة العالمية المتصلة بتزايد السكان ، زيادة تفوق موارد الطعام^(١) .

على أن أهل الريف ليسوا وحدهم طرفاً في هذا الموقف الذي من شأنه أن يحدث تحولاً في قلوب البشر ؛ إذا قُدِّر للبشر أن يجدوا مخرجاً سعيداً من هذه الكارثة التي تنتظرهم . وإذا كان الإنسان « لا يعيش بالخبز وحده » ؛ فأحرى بالأقلية الغربية التي تعيش في رغد من العيش ، أن تقتبس شيئاً من المزاج الروحي لشعور أهل الريف .

= وتركوه بين حي وميت . فر به كاهن فلم يعره اهتماماً ، كما مر به أحد اللاويين (رجال الدين اليهود) فلم يحفل بشأنه . ثم عطف عليه سامري فضمه جراحاته وأركبه دابته وأتى به إلى فندق وأوصى به صاحبه غيراً ، وأبدى استعداداً لدفع جميع نفقات إقامته بالفندق .

(المترجم)

(١) جوهر فكرة الاقتصادى الإنجليزى « مالتس » كما بينا فيما سبق . (المترجم)

إن إنسان الغرب قد عرّض نفسه لخطر خسارته ذاته ؛ حين كرّس جهوده (وقد وفّق فيها توفيقاً ملحوظاً) لزيادة رخائه المادى . فإن قُبِضَ له الخلاص ؛ فلن يجده إلا فى مشاركة نتائج جهوده المادية مع غالبية الجنس البشرى التى كانت أقل من أهل الغرب توفيقاً . إن أمام « اللأدرى »^(١) الذى يخطط لتقييد النسل ؛ أن يتعلم الشئ الكثير من ذلك الفلاح الطليق من قيود الجنس المؤمن بالخرافات ، بقدر ما يتعلم هذا الفلاح ممن يخطط ويرسم وفقاً للأساليب العملية البحتة .

أما عن الدور الذى يُقدّر الأديان العالمية التاريخية السامية أن تؤديه فى تبصير الفريقين جميعاً وفى التقريب بينهما فى تفاهم متبادل ، فأمر لا يمكن التكهن به حتى اليوم .

٥ - هل يمكن كفالة السعادة الدائمة

لو تصورنا مجتمعاً دولياً تخلص فيه البشر قبل كل شئ من الحرب ومن صراع الطبقات ، ثم مضى يحل مشكلة السكان ؛ عندئذ نستطيع أن نستنتج أن المشكلة التالية للبشرية تتبلور فى الدور الذى يؤديه الفراغ فى حياة مجتمع قائم على التنظيم الآلى .

والواقع ؛ قام الفراغ بالفعل ، بدور فى التاريخ ذى أهمية جوهرية .

فإذا كانت الحاجة أم الحضارة ، فالفراغ مرضعها . وإن من المظاهر المميزة للحضارة ؛ الشوط الذى قطعه هذا الأسلوب الجديد للحياة فى تحقيق إمكانياته . لكن ؛ لم تكن تستمتع بالفراغ سوى قلة ناهية من بين طبقة متميزة بنعمة الفراغ ، وإليها يُعزى فضل تلقيح الحضارات بهذه الظاهرة . وإن جميع الإنجازات العظيمة التى حققتها البشرية فى الفنون

(١) للأأدرية : مذهب ينكر المعرفة على الإنسان ، إلا فيما يتصل بالمسائل المادية

للاموسة . (المترجم)

والعلوم ، كانت ثمرة لهذا الفراغ الذى تمتعت به تلك الأقلية المبدعة ،^(١) وأحسن استخدامهما فيما ينفع الناس .

لكن الثورة الصناعية قد قلبت - رأساً على عقب - العلاقة القائمة بين الحياة والفراغ .

وكان التغير السيكولوجى أهم هذه التغيرات :

ذلك لأن استخدام الآلة قد ولد فى ذهن العامل الصناعى ، توتراً بين مشاعره تجاه عمله - من ناحية - ومشاعره تجاه فراغه ، من الناحية الأخرى . وهذا ما لم تتعرض له - قبل الثورة الصناعية - الأغلبية من أهل الريف ، ولا الأقلية المتميزة . ويُعزى هذا ؛ إلى أن دورة الفصول فى المجتمع الزراعى (التى تقوم للفلاح بدور التقويم) قد أتاحت كذلك للأقلية المتمتعة بالفراغ ، توزيع وقتها بين مجالس القضاء وبين الخروج للحرب ، أو توزيعه بين حضور جلسات البرلمان ، والصيد والقنص وصيد الأسماك . وهكذا ؛ سلم أهل الفلاحة وحكامهم بأن العمل والفراغ مرحلتان للسكون والحركة^(١) يتعاقبان فى رتابة ، تعاقب الليل والنهار والصيف والشتاء . وكل مرحلة ، راحة من الأخرى .

بيد أن هذا التكافل ، وهذا التزاوج بين العمل والفراغ - فى العهد السابق للثورة الصناعية - قد تعطل فعلهما ، وقتما استحالت العامل إلى مجرد شيء ملحق بالآلة التى تستطيع أن تعمل ليل نهار على مدار السنة ؛ ووجد العامل نفسه مسوقاً إلى كفاح دائم حتى يمنع الآلة وضاحها من أن يسخره للعمل حتى النفس الأخير ؛ الأمر الذى ملأ عقله بالعداء لحياة الكد التى آمن أسلافه من الفلاحين بأنها أمر طبيعى .

(١) استخدم الأستاذ المؤلف - كما مر بنا فى موضع سابق من هذه الدراسة - كلمتين صينيتين للتعبير عن حالتى السكون والحركة الدافئة ، وهما : إلين واليانج على التوالى .
(المترجم)

وهذا الموقف الجديد للعامل إزاء العمل ؛ أدّى إلى موقف جديد له ،
إزاء الفراغ ؛ لأنه إذا كان العمل - بطبيعته - شراً ، فلا بد أن يكون
للفراغ في ذاته - قيمة مطلقة ؛

وكان ردّ الفعل للطبيعة البشرية ضد العمل الرتيب في المصنع
والمكتب ؛ قد قطع بالفعل - قبل أن ينتصف القرن العشرين - شوطاً
بعيداً ؛ جعل للتحرر من ضغط العمل المفرط ، قيمة أعظم من قيمة المال
الذى يستطيع العامل أن يكسبه بالعمل إلى أقصى حدود طاقته ؛ بيد أنه
في الوقت نفسه ؛ كان التقدم التكنولوجى - دون ضابط حتى اليوم -
يقدمّ لضحاياهم من البشر دعاية عملية ساخرة ؛ ففي الوقت الذى يتهدهم
فيه بالشغل - حتى النفس الأخير - كان يتهدهم أيضاً بالبطالة ؛ ولهذا ؛
فإن كثيراً من القيود التى فرضتها نقابات العمال لكبح جماح الآلة في زحفها
المميت - وإن كانت قيوداً يعوزها التنظيم الكفء - قد خدمت غاية
العمال البعيدة القائمة على إستخلاص فضلة من العمالة ، ظاهر أنها قد انتزعت
من أيدي البشر ؛ جملة (١) .

وكان من الميسور - في ظل تلك الظروف - التنبؤ باستعادة نوع
من الفردوس على الأرض (٢) : تسوده « العمالة الكاملة » ، ويوزع فيه
على كل فرد - وبكل حرص - قدر مُعيّن من العمل لا يشغل من
وقت العامل سوى قسط ضئيل من يومه . وهنا يتّهبأ له قدر من الفراغ
يكاد يعادل ما كانت تتمتع به الطبقة الممتازة - طبقة الأغنياء المتعطلين -
التي انتهى أمرها منذ زمن ، والتي تعلّم أجداد هذا العامل إستهجان
أفعالها ؛ وفي مثل هذه الظروف ؛ تنضح - بلا ريب - أهمية الاستفادة
من وقت الفراغ ، بأكثر مما كانت عليه من قبل ؛

(١) إن الفكرة القائلة باستفحال سيطرة الآلات ، إلى أن يأتى اليوم الذى تستغنى فيه
عن مساعدتها من البشر ، قد صاغها صمويل بتلر في كتابه Erewon الذى نشره عام ١٨٧٠ .

(٢) أى استعادة الفردوس الذى تمتع به آدم وحواء من قبل . (المترجم)

(١٥ - ج ٤)

فكيف تستخدم البشرية أوقات الفراغ التي ينتظرها العالم جميعاً ؟

لقد سبق للسير ألفرد أوينج Sir Alfred Euwing أن أثار هذا السؤال - الذى يُثير القلق - فى خطاب ألقاه يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩٣٢ بالجمعية البريطانية لتقدم العلوم ، بمناسبة انتخابه رئيساً :

« قد يتصور البعض مدينة فاضلة^(١) يتحقق فيها توازن كامل بين العمل وثماره ، بين نشر العمال والأجور وتوزيع جميع ما تنتجه الآلات توزيعاً عادلاً ؛ بيد أنه مع فرض تحقق هذا ، يبقى أمامنا السؤالان التاليان : كيف ينفق الإنسان وقت الفراغ الذى كسبه حين ألقى - تقريباً - جميع أعبائه على عبد آلى لا يكل ؟

هل له أن يأمل فى أن يحقق من الارتقاء ! الروحانى ما يؤمله للانتفاع بالفراغ انتفاعاً مُجدياً ؟

إن الرب يمنح بركته ذلك الذى يكافح فى سبيل هذا الارتقاء الروحانى ويبلغه ؛ وإنه لن يحده إلا إذا سعى إليه . إننى لا أعتقد أن البشرية مقدرة لها الضمور والتوقف عن النمو عن طريق تنمية ما هو - قبل كل شيء - أعظم عطايا الله لها ، ألا وهى : تفنن المبتكر المبدع . إن الإمبراطورية الرومانية قد عجزت عن تحقيق ذلك المستقبل الذى نحاول الآن أن نستشفه عن بُعد ، نتيجة للقصور السعة التى أتاحها للوجود البشرى . ورغم ذلك ؛ فقد أحس مؤلف كتاب عنوانه (فخامة الأسلوب) كُتب فى تاريخ غير محدد خلال فترة ازدهار الإمبراطورية الرومانية ، بأن زوال حدة التوتر الناشئ عن تشييد الدولة العالمية الهلينية ، أدت إلى فساد السجاياء الإنسانية » :

« إن الإمبراطور الرومانى الذى يقضى فيه جميع الناس أيامهم

— هذا قلة مختارة من البشر — هو أحد الأمراض الخبيثة التي تُصيب الحياة الروحية في نفوس أهل الجيل الحاضر ، وإن مناط هدفنا الوحيد — في عملنا وتجددنا على السواء — هو الحصول على الشهرة والتمتع بمباهج الحياة ، إنه لا يعيننا قط أن نفوز بالركاز الروحي الحقيقي الذي لا يجده المرء إلا حين « يضع قلبه » فيما يقوم به من عمل ، ويفوز بتقدير يستحقه حقاً .

وهذه الآراء التي اهتدى إليها هذا الناقد الهليني ، قد أبدتها في مستهل العصر الحديث من التاريخ الغربي ، أحد زوّاد الروحي العلمي الجديد . ونجد الفقرة التالية في كتاب « تقدم المعرفة » الذي نشره فرنسيس باكون عام ١٦٠٥ ميلادية :

« ذلك لأنه ؛ لوحظ حقاً أن الفنون التي تزدهر في الأوقات التي تترعرع فيها الفضيلة هي فنون الحرب . أما فنون المعرفة فتزدهر وقتما تتوقف الفضيلة عن النمو . وتروج فنون المتعة حين تتداعى قواعد الفضيلة . ومن ثم ؛ أشك في أن يكون هذا العصر مشرفاً على دورة الهبوط . وإلى فنون المتع ، أضيف إقبال الناس على المساخر . ذلك لأن خداع الحواس هو إحدى الحواس » .

إن ممارسة « المساخر » ؛ تستغرق قدراً كبيراً من استخدام وقت الفراغ في عصر الإسلكي والتلفزيون ؛ وواضح أن الإرتفاع بالطبقة العاملة إلى المستوى المادى للطبقة الوسطى قد صاحبه تدنى الحياة الروحية عند جانب كبير من أهل الطبقة الوسطى :

وهكذا ؛ سرعان ما أُلقي ضيوف « سيرس »^(١) أنفسهم أسرى حظيرة « سيرس » .

(١) سيرس : تذكر الأوديسية لهوميروس أنها كانت تغرى البحارة بضيافتها ثم تحيلهم إلى خنازير . وقد استضافت رفقاء عوليس . (المترجم)

ولكن هل يظلون هناك إلى ما لا نهاية ؟

هل هذا مصير يُسلم به الجنس البشرى لنفسه ؟

وهل يرتضى الجنس البشرى - حقاً - أن يحيا أبداً في سعادة دائمة ،
في عالم جديد نبيل لا تغيير فيه ، إلا من رتبة الفراغ الغث إلى رتبة
العمل الآلى ؟

إن مثل هذا التنبؤ لا يلتقى بالآ - بالتأكيد - للأقلية المبدعة التى ظلت
« عصب العالم »^(١) فى جميع عصور التاريخ . فإن التشخيص القاتم الذى
قام به مؤلف « فخامة الأسلوب » فى العصر الهلنستى المتأخر ؛ قد أغفل
عنصراً خطيراً غاية الخطورة ، عند فحص الحالة التى كانت تحت بصره ،
إذ يبدو أنه لم يلتقى بالآ إلى شهداء المسيحيين .

ويظهر - وهذا هو الواقع - أن ثمة بوناً شاسعاً يفصل بين التعطل
التكنولوجى المنتظر ، وتوقع إستعادة الإزدهار الإقتصادى^(٢) : أو لعل
القارئ يلتقى هذا السؤال الشاك :

كيف تسير هذه الأمور ؟

والآن ونحن فى منتصف القرن العشرين بعد ميلاد المسيح ، يتعذر
علينا أن نجيب على هذا السؤال :

على أن ثمة ما ينبئ بأن مثل هذا الأمل ليس مجرد فكرة مرجوة ؛
فإن من بين الحيل التى تلجأ إليها الحياة لاستبقاء نفسها فى الوجود ؛
هو أنها تعوض عجزها - أو فائضها - فى قطاع ، بتجميع فائض -
أو لإحداث عجز - فى قطاع آخر ؛ ومن ثم ؛ عسانا نتوقع مثل ذلك فى

(١) فى الأصل : ملح الأرض . (المترجم)

(٢) فى الأصل توقع حلول عيد العنصرة مرة أخرى . وهو عيد الحصاد عند اليهود .
وكانوا يحتفلون به عند انتهاء عملية الحصاد التى تتم بدورها بعد مرور خمسين يوماً من اليوم
الثانى من عيد النصح . (المترجم)

محيط إجتماعى يوجد به عجز فى الحرية وفائض من القيود فى محيطى الاقتصاد والسياسة ؛ وهنا يتجلى - فى محيط الدين - تأثير قانون الطبيعة هذا ؛ فى التحريض على طلب الحرية ، وفى التخفيف من سيطرة القيود ، ولا مشاحة فى أن هذا هو ما حدث بالفعل فى عصر الإمبراطورية الرومانية .

ومن الدروس التى تُستفاد من عصور اليونان ؛ أن ثمة فى الحياة - دائما - حداً أدنى من طاقة الوجدان ، لا يقبل الكبت ويصرّ دائما على أن يعبر عن نفسه فى هذا الاتجاه أو ذاك . لكن يبدو ؛ أنه لا يقل صدقا عن ذلك ، أن ثمة حداً أقصى للقدر من طاقة الوجدان التى تجدها الحياة تحت تصرفها .

ويستتبع هذا ؛ أن الحياة إذا احتاجت إلى طاقة تُفرز بها نشاطها فى أحد المجالات ، فليس لها إلا أن تستمد هذه الطاقة الإضافية مما تقتصده من طاقات فى مجالات أخرى « والتطبيق الآلى ، هو وسيلة الحياة لتوفير الطاقة ، ومن قبيل المثال ؛ أن الحياة إذ تجعل من نبض القلب وحركة الرئة فى انقباضها وانبساطهما عملا آليا ؛ هذه الحياة قد فكت إسرار الفكر والإرادة البشرية ليُستخدما فى غايات أخرى غير مجرد الاحتفاظ المتصل بالحياة ، من لحظة إلى أخرى . وإذا تصور المرء أنه محتاج دوما إلى أعمال الفكر وإلى العمل الإرادى ليعت فى رثته كل نفس وفى قلبه كل نبضة ؛ لما توفرت له قط أية فضلة من طاقة ذهنية أو إرادية يذخرها ، لالشيء إلا لجرد الحفاظ على حياته . وبعبارة أدق ؛ ما كان ليتيسر لأى كائن شبه بشرى ، التطور إلى إنسان كامل .

ولعل هذه المشابهة بين التأثير الإبدعى لتوفير الطاقة فى الجسم الإنسانى . تقودنا إلى فكرة تتصل بكيانه الاجتماعى . وهى أن العقيدة الديلية عرضة للأحمال طالما صرفه الإنسان فكره وإرادته إلى الشئون الاقتصادية (وهذا

هو حال الغرب منذ نشوب الثورة الصناعية) ، أو انهماك في الموضوعات السياسية (وهذا هو حال الغرب منذ بحث عبادة الدولة الهلينية^(١) .

وعلى العكس من ذلك ؛ لعلنا نستنتج أيضاً أن القيود الشديدة التي تُفرض اليوم على الحياة الاقتصادية والسياسية للمجتمع الغربي ، قينة بأن تُحرر نفوس أهل الغرب حتى يحققوا غاية الإنسان الحققة ؛ ألا وهي تمجيد الله والاستمتاع برضائه تعالى .

إن بلوغ هذا المطمح الروحي الحميل ، أمر مستطاع على الأقل . ولعل أهل الجيل الحاضر البائس - من رجال الغرب ونسائه - تصلهم بارقة من الضياء الرقيق .

(١) يقصد الأستاذ المؤلف بأن عصر النهضة الأوروبية قد صاحبه إبتعاث لفكرة اليونانية التي تمجد الدولة الإقليمية . وهي فكرة يعزو إليها الأستاذ المؤلف اضطراب أحوال أوروبا الغربية السياسية والاقتصادية ، مما ينذر بانهيار الحضارة الغربية . (المترجم)

الباب الثالث عشر

خاتمة

الفصل الرابع والأربعون

كيف قدّر لهذا الكتاب أن يكتب

لم يدرس الناس التاريخ ؟

أُيجب كاتب هذه الدراسة شخصياً بأن المؤرخ يستجيب - في دراسة التاريخ - إلى نداء الله له بتتبع خلقه ، بالسعى لمعرفة تعالى ، والمؤرخ هنا - شأنه شأن كل امرئ - سعيد بأن تكون له في الحياة غاية يسعى إليها .

وللمؤرخ زاوية رؤيا واحدة من بين زوايا الرؤيا التي لا تعد ولا تحصى ؛ وإن أخص ما تتميز به مساهمة المؤرخ في التراث الإنساني هو أنه يقدم لنا صورة لإبداع الخالق في حركته الدائبة ، داخل إطار هو - وفقاً لتجربتنا البشرية عنه - ذو ستة أبعاد .

فإن زاوية الرؤيا للمؤرخ ؛ تُرينا الكون المادى ، يتحرك منحرفاً عن المركز ، في إطار ذى أربعة أبعاد من المكان في الزمان . كما تُرينا الحياة على كوكبنا تتحرك حركة دائرية في إطار ذى خمسة أبعاد من الحياة الزمان في المكان ، وتُرينا نفوس البشر ، وقد ارتفعت إلى البعد السادس بنفحة من الروح القدس ، وإتيا لتتحرك - وهي تمارس ما قدّر لها من التحرر الروحي - إما صوب خالقها ، أو بمنأى عنه .

فإن كنا على حق إذ نرى في التاريخ صورة لإبداع الخالق في حركته الدائبة ؛ فإننا لن نعجب إذا وجدنا أن القوة الفعلية لتأثير التاريخ في العقول البشرية التي تتأمل - فرضاً - درجة قابليتها الداخلية لتأثير التاريخ ، وفقاً للظروف التاريخية لمن يتلقاها ، إذ لا مناص من أن تقوم نزعة حبه

الاستطلاع ، بتعزيز القابلية لاستيعاب التاريخ . ولكن حب الاستطلاع لن يثور إلا إذا بدت للعيان عملية التغير الاجتماعى . واضحة وضوحاً ساطعاً قوياً .

ومصادقاً لذلك ؛ لم يكن أهالى الريف يوماً ما ، أصحاب عقلية تاريخية . لأن الوسط الاجتماعى الذى يعيشون فيه ، لا يحدّثهم عن التاريخ ، ولكنه يحدّثهم عن الطبيعة . وهذا ما تنبئ عنه أعيادهم ؛ فما كانت أعيادهم الرابع من يولييه ^(١) ، ولا يوم جاي فوكس Guy Fawks ^(٢) ولا يوم إعلان الهدنة ^(٣) . ولكن أعيادهم كانت أياماً لم يُسجّلها التاريخ ؛ هى أيام السنة الزراعية التى تتعاقب فى كل عام .

بل إن الأقلية التى يُحدّثها وسطها الاجتماعى عن التاريخ ، لا يكون تعرّضها لإشعاع من الوسط الاجتماعى التاريخى ، كافياً - فى حد ذاته - لإلهام المؤرخ وتكوينه . إذ بدون هذا التطلع المثير الخلاق ؛ تبقى أعظم ما نعرف من هياكل التاريخ تأثيراً فى النفس ، خرساء لا تحدث أثراً ؛ لأن العيون التى تنظر إليها لا ترى فيها شيئاً .

وهذه الحقيقة القائمة على أن شرارة الإبداع لن تشتعل إلا بفعل استجابة وتحدّ ، وعاشها ذهن الفيلسوف الرحالة الغربى الحديث فولنى Volney ؛ وقبما زار العالم الإسلامى بين عامي ١٧٨٣ - ٨٥ . وكان فولنى قد قدّم من بلاد دخلت إلى مجرى تاريخ الحضارات فى زمنٍ حديث لا يمتد إلى أبعد من حرب هانيبال . فى حين كانت البلاد التى زارها ، مسرحاً للتاريخ طوال ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة قبل ظهور غالة (فرنسا) . وكانت وقت زيارته حافلة - بما يتفق وذلك التاريخ العريق -

(١) ٤ يولييه : عيد استقلال الولايات المتحدة الأمريكية . (المترجم)

(٢) يوم جاي فوكس : هو يوم ٥ نوفمبر . وفيه حاول أحد المتآمرين نسف البرلمان الإنجليزى . (المترجم)

(٣) إعلان هدنة الحرب العالمية الأولى فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ . (المترجم)

بآثار الماضي الماثلة للأنظار ، وعلى الرغم من ذلك ؛ كان الجيل من الناس الذى يعيش فى الشرق الأوسط فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادى ، يقبع - غير حافل - بين هذه الأطلال^(١) الرائعة ، لحضارات بائدة ، لا يتحرك للبحث عن كنه هذه النصب ؛ فى حين دفع هذا التساؤل نفسه ، فولئى من وطنه - فرنسا - إلى مصر . ثم جاءت فى أعقابها ، هذه الجماعة من العلماء الفرنسيين النابهين الذين انتهزوا الفرصة التى هبأتها لهم حملة نابليون بونابرت بعد ذلك بخمسة عشر عاماً ، ولقد كان نابليون يعلم أنه « يعزف لحنا » يستجيب له أفراد جيشه جميعاً - حتى جهرته من غير المتعلمين - حين ذكروهم قبل نشوب القتال فى معركة امبابية الحاسمة بأن أربعين قرناً من التاريخ تنظر إليهم من فوق الأهرام . ولعلنا على ثقة من أن مراد بك قائد المالك فى المعركة ، لم يفكر قط فى إضاعة لحظة من وقته سدى لبوجه عبارة مماثلة تلهب حاسة رفاقه الحاليين من حُب الاستطلاع .

ولقد ذهب فى الآفاق صيت العلماء الفرنسيين الذين جاءوا إلى مصر مع نابليون ، بفضل كشف فذ ، ألقى مزيداً من الضوء على قضايا التاريخ^(٢) ؛ قدموه للمجتمع الغربى الحديث النهم إلى التطلع لغزو المجهول . فكان أن بُعثت إلى الوجود فى العالم القديم منذ ذلك التاريخ ، ما لا يقل على إحدى عشرة حضارة بائدة عفى عليها الزمن . هى الحضارات المصرية - البابلية - السومرية - المينوية - الحيثية ؛ بالإضافة إلى الثقافة السندية وثقافة شانج ؛ ويضاف إليها الحضارات : المايانية والياكوتية والمكسيكية والأندليانية ، فى العالم الجديد .

وصفوة القول ؛ لن يُقيّض للمرء أن يصبح مؤرخاً دون أن يحركه

(١) أنت فولئى بعد عودته من رحلته فى البلاد الإسلامية كتاباً أسماه « الأطلال »

(المترجم)

(٢) يقصد المؤلف : حجر رشيد . (المترجم)

حب الاستطلاع : بيد أن هذا - في حد ذاته - لا يكفي : فإن حب الاستطلاع إذا لم يوجه نحو غاية معينة ، لا يثير إلا مجرد إحاطة علمية شاملة لا هدف لها ، ومن ثم ؛ يتبلور دائماً حب الاستطلاع عند أى من كبار المؤرخين ، في بذل الجهد للرد على طائفة من الأسئلة ذات مغزى عملي بالنسبة لحيله ، وهى أسئلة تمكن صياغتها في عبارة عامة هى « كيف ترتب هذا على ذاك » ؟

حتى إذا استقصينا الأعمال العقلية التى كتبها كبار المؤرخين ، وجدنا أن ثمة - فى معظم الحالات - حادثة خطيرة مثيرة قد استثارت عند أولئك المؤرخين إستجابة اتخذت شكل محاولة التشخيص التاريخي لتلك الأحداث ، وقد يكون هذا الحدث مما شاهدوه هم أنفسهم ، أو شاركوا فيه بدور فعال ؛ كما فعل توكيدبيديس فى الحرب الأثيلية البلوبونيزية الكبرى وكلاريندون Clarendon ^(١) فى « الثورة الكبرى » ^(٢) . أو قد يكون حدثاً طواه الماضى ، لكن ما تزال إنعكاساته تثير استجابة لدى عقل المؤرخ الحساس ، مثال ذلك ؛ ما أثاره انحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها من تحدٍ دفع جييون إلى كتابة مؤلفه ، وقتما كان يتأمل أطلال الكايتبول بعد ذلك بعدة قرون ، وقد يكون الحافز الخلاق حدثاً مدوياً يبعث على الرضا ، كما هو ظاهر فى مثال الحرب الفارسية التى جابهت هيرودوتس بتحدٍ عقلي .

بيد أنه - فى أكثر الحالات - تكون كوارث التاريخ الكبرى - بتحدٍها نزعة التفاؤل الطبيعية فى الإنسان - هى التى تستدعى من المؤرخ أهدع جهوده .

(١) كلاريندون (١٦٠٩ - ٢٤) : سياسى ومؤرخ لعب دوراً هاماً فى عهدى الملكين شارل الأول والثانى . وكان من أنصار الملكية . وحاول تصحيح موقف الملك تجاه البرلمان إلا أن شارل الأول آثر سلوك سبيله الخاص للقائم على تجدي سلطة البرلمان . فلما انتزعت الملكية من سلطانها ذهب كلاريندون مع شارل الثانى إلى المنفى . ولما عاد إلى عرشه عين كلاريندون وزيراً للمالية . (المترجم)

(٢) الثورة الكبرى : تطلق على فترة حكم كروميل وابنه (أى إعدام شارل الأول حتى عودة شارل الثانى . (المترجم)

إن مؤرخاً - كالمؤلف - ولد عام ١٨٨٩ وكان ولا يزال على قيد الحياة عام ١٩٥٥ ؛ قد شهد - حقاً - كثيراً من التغيرات وسمع أصداً هذا السؤال البدائي يلح عليه مدوياً :
كيف ترتب هذا على ذلك ؟

كيف حدث أولاً وقبل كل شيء أن عاش المؤلف ليشهد آمال الجيل السابق له - وواضح أنها معقولة - وقد خابت وتبددت في قسوة وغلظة ؟
لقد بدا واضحاً لدى دوائر الطبقة الوسطى المقدرة للحرية في البلاد الديمقراطية الغربية التي تنتمي إلى جيل ولد حوالى عام ١٨٦٠ ميلادية (قبل أن يصل القرن التاسع عشر إلى ختامه) أن الحضارة الغربية إذ تسير قدماً ، غدت تحمل التقدم البشرى إلى نقطة تجدد بعدها - مباشرة - الفردوس الأرضى .

فكيف حدث أن تبدد أمل هذا الجيل على هذا النحو المفجع ؟
وأى خطأ جرى على وجه التحديد ؟

وكيف حدث أن تغير المصور السياسى للعالم بحيث ضاعت معالمه بسبب الحرب والشر الذى جلبه معه القرن الجديد فى ركابه ؛ فهبط معه عدد الدول الكبرى من ثمان تبادلاً للعلاقات ، إلى دولتين متنازعتين تقعان خارج أوروبا الغربية ؟

ويمكن إضافة قائمة أخرى من هذه الأسئلة إلى ما لانهاية . وقد انبثت عليها موضوعات تطلب حشداً لا يقل عنها من التحقيقات التاريخية . وإذا كانت مرحلة « عصر الاضطرابات » تعتبر - من ناحية التعريف - نعيم المؤرخين ، فلقد ولد المؤلف - لحسن طالع - فى هذا العصر . فأصبح مسرراً فى الواقع بإشباع رغبته فى كشف اللثام عن الأحاجى التاريخية التى ألقتها إليه الأحداث الجارية .

غير أن حسن طالعه كمؤلف ، لا ينتهى هنا . فقد وُلِدَ في الوقت المناسب ليتلقى ثقافة هيلينية دسمة تحدّرت مما يعرف بعصر النهضة الغربية الحديثة . وكان قد أتمّ في صيف ١٩١١ خمسة عشر عاماً في دراسة اللاتينية واثني عشر عاماً في دراسة اليونانية ، فكان لهذا التثقيف العريق ، أثره الناجع في إكسابه مناعة ضد داء النعرة الثقافية القومية : إذ يشقّ على رجل الغرب الذي تلقى ثقافة هيلينية ؛ أن يقع بسهولة في خطأ اعتبار عالم المسيحية الغربية أفضل مجتمع يمكن أن يظهر في الوجود . كما أن ثقافته الهلينية ؛ لا تجعله يعالج المسائل التاريخية التي يضعها أمامه — من وسطه الاجتماعي الغربي — دون الرجوع إلى هيلاس^(١) التي وجد فيها وطنه الروحي .

ومن قبيل المثال ؛ عبّزه عن تقصّي أسباب خيبة آمال الجيل الماضي المقدّر للحرية ، إن لم يتذكرك كيف تبددت أوهام أفلاطون في الديمقراطية الأثينية في عصر بركليس ، وما كان له أن يعيش تجربة إندلاع حرب ١٩١٤ ؛ دون أن يدرك أن نشوب الحرب في عام ٣٤١ ق . م ، قد حملت نفس التجربة لتوكيديديس ؛ وما إن كشفت له تجربته الخاصة مغزى كلمات توكيديديس وعباراته التي لم تكن — قبل ذلك — تعنى له سوى القليل — أولاً شيء البتة — حتى أدرك أن كتاباً ألف في عالم آخر منذ أكثر من ألفين وثلاثمئة سنة ، قد يكون معيناً لتجارب توشك — في عالم القارئ — أن تحتاج الجيل الذي ينتمي إليه .

وهكذا ؛ وجد معنى في القول بأن التاريخين : ١٩١٤ م و ٤٣١ ق . م يعاصر — فلسفياً — أحدهما الآخر .

وسرى أن ثمة — في الوسط الاجتماعي الذي عاش فيه الكاتب — عاملين لا يتصل أى منهما بشخصه وخده ، وكان لهما أثر حاسم في تناوله « دراسة للتاريخ A Study of History » :

(١) هيلاس : اليونان القديمة . (المترجم)

العامل الأول — التاريخ الحالى لعالمه الغربى ،

العامل الثانى — ثقافته الهلينية .

وبالتفاعل المستمر بين هذين العاملين ، غدت نظرة المؤلف للتاريخ نظرة
من دوجة :

وهكذا ؛ كلما حملت إليه إحدى الأحداث المفجعة السؤال التقليدى
الذى يعرض للمورخ « كيف ترتب هذا على ذلك » ، ألقي نفسه وقد حوّل
صيغة السؤال إلى « كيف ترتب هذا على ذلك فى كل من التاريخين
الغربى والهلينى » ؟

وبالتالى ؛ غدا ينظر إلى التاريخ كمقارنة فى نطاق حدّين .

ولعل المعاصرين فى الشرق الأقصى ، يُقدِّرون فى بحث التاريخ ، وجهة
النظر المزدوجة هذه ويسلمون بها ، نظراً للدور الذى كانت تلعبه اللغة
والآداب القديمة لحضارة سالفه فى مجال التربية التقليدية — حتى ذلك الوقت —
على نحو لا يقل شأواً عن الدور الذى قامت به الثقافة اليونانية القديمة فى
الثقافة الغربية الحديثة . وإن مؤلفاً من مريدى كونفوشيوس ؛ ليجد نفسه —
كما فعل مؤلف هذه الدراسة — عاجزاً عن تفسير حدّث من الأحداث
الجارية ، دون أن يذكره بحدّث ماضٍ مماثل ، له لدية قيمة أعظم . بل
ربما كانت حقيقته أوضح من الأحداث التى جرت بعد ذلك ، والتى حفزته
إلى أعمال الفكر فى تأثيرها الذى يتماثل مع حكمة صينية قديمة .

والفارق الأساسى بين تفكير عالم صينى ذى ثقافة كنفوشيوسية فى عصر
« تشينج Ching » المتأخر ، وعالم إنجليزى معاصر له صاحب ثقافة هلينية فى
أواخر العهد الفيكتورى ؛ الفارق الأساسى بينهما هو أن الباحث الصينى فى
شئون البشر ، قد يظل مكتفياً بإجراء مقارناته التاريخية فى نطاق حدّين اثنين
فقط . على حين أن يقنع ذلك الباحث الإنجليزى من أواخر العصر الفيكتورى ،

بالبقاء في إطار هذا اللون من التفكير ، ولا يرتاح حتى يتوسع مجاله الثقافي إلى مدى أرحب .

ولقد يبدو للباحث الصيني الذي تلقى ثقافته التقليدية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، أن الفكرة القائلة بعدم وجود حضارة تستحق تفكيره الجدي - عدا الحضارة الصينية وحضارة الشرق الأقصى التي خلفتها هذه الفكرة - إلا بدعاً . ولن نخطر مثل هذه الفكرة على بال أي باحث غربي من أهل ذلك الجيل .

ذلك لأن المجتمع الغربي الذي ينتمى إليه الباحث الغربي ؛ قد اتصل اتصالاً قوياً خلال القرون الأربعة الماضية بما لا يقل عن ثمان مجتمعات أخرى من نوعه . ومن ثم ؛ استحال على العقل الأوروبي - استحالة مضاعفة - أن يتجاهل أهمية الحضارات الأخرى عدا حضارته ؛ أو ينكر قيمة الحضارة الهلينية . فلقد مضى هؤلاء الغربيون الذين لم يهدأ لهم - خلال القرن الماضي - بال في البحث والتقصي ، والذين وفقوا في غزو المحيط لأول مرة بعد أن اقتحمه كولومبوس وفاسكو دي جاما ؛ مضوا ينقبون عن ماض غني عليه الزمن .

وإن مؤرخاً غربياً يعيش في هذا الجيل الذي امتلك هذا الأفق التاريخي الرحب وتحمله ثقافته اليونانية على إجراء مقارناته التاريخية في إطار حدين اثنين ؛ هذا المؤرخ الغربي لن يقنع إلا إذا راح يجمع - بقصد الدراسة المقارنة - أكبر عدد يستطيع جمعه ، من الظواهر المتصلة بأنواع المجتمعات المماثلة التي لم يكن المجتمعان الهليني والغربي سوى مجتمعين اثنين منها :

حتى إذا وُفق في مضاعفة حدود مقارناته - أكثر من عشر مرات - لم يعد في وسعه أن يتجاهل الموضوع الرئيسي الذي أوشكت أن تثيره مقارنته الأصلية التي قامت على أساس حدين اثنين . فإن أشد أحداث تاريخ الحضارة الهلينية إنذاراً بالشوم ؛ قد جرى عام ٤٣١ ق . م ، باندلاع الحرب الأثينية البلوبونيزية العظمى ؛ فكانت نذيراً بانحلال المجتمع الهليني .

وإذا كان ثمة ما يُنبئ عن جدوى الوسيلة التي جرى عليها الكاتب لعقد مقارنات بين تاريخي المجتمعين الهليني والغربي ؛ فلن يكون المجتمع الغربي بمنجى عن احتمال التردى في نفس المصير الذي لقيه المجتمع الهليني . وعندما وجد الكاتب - وقما انتقل إلى دراساته الأوسع مدى - أن أغلبية واضحة من الحضارات التي أمكنه تجميعها ، قد أصابها الفناء فعلا ؛ بدا أن لا مناص له من أن يستنتج أن الفناء هو بالفعل احتمال يواجه أية حضارة ، بما في ذلك الحضارة التي ينتمي إليها :

فما هو « باب الفناء » هذا الذي اختفت وراءه حضارات عديدة ازدهرت وقتاً ما ؟

هذا السؤال دفع الكاتب إلى دراسة لإنهيار الحضارات وتحللها ، ومن ثم ، انتقل إلى دراسات تكميلية عن نشوء الحضارات وارتقاءها . وعلى هذا النحو ؛ جرت كتابة هذا الكتاب « دراسة للتاريخ » :

جداول تفسيرية

وردت الجداول الأربعة التالية - كما هي - في مؤلف الأستاذ توينبي في صورته المطولة ، وتحتوى على طائفة من الأسماء والوقائع لم يرد لها ذكر في المختصر الذى نشره المستر سومرفيل Somervell . إذ قد اضطر بطبيعة عمله إلى اطراح عدد كبير من التفسيرات التاريخية الواردة في المؤلف الأصلي . كما أنه اقتضب قدرأ كبيراً من الإيضاحات التفصيلية ، التى ما كان ليتأتى إستبقاؤها إلا باختزالها .

وللجداول فائدة إجمال طائفة من النتائج التى انتهى إليها بحث الأستاذ المؤلف .

المجلد الأول العالمية

أسماء	فترة النفوذ العالمي	الدولة العالمية	مصر الاضطرابات	المختارات
المؤسسون من نفس البلاد (من أور -) المجددون رجال حدود (موريون)	حوالي ٢٢٩٨ - ١٩٥٥ ق.م	أمبراطورية سومر وأكاد دول الجبل الأربع	حوالي ٢٢٩٨ - ٢١٧٧ ق.م	السومرية
هل المؤسسون من نفس البلاد (١) (كلدانيون) مثلا . خلفاءهم من البرابرة (أخمينيون) وأجانب (سلوقيون)	١١٠ - ٥٢٩ ق.م	الأمبراطورية البابلية المتحدة	١١٠ ق.م -	البابلية
هل المؤسسون من البلاد (٢) من ماجادا مثلا . المؤسسون من ماجادا	٢٢٢ - ١٨٥ ق.م ٣٩٠ - حوالي ٤٧٥ ق.م	الأمبراطورية المورية أمبراطورية جوربنا	٢٢٢ ق.م -	السامية
المؤسسون رجال حدود (من تسين) . خلفاءهم من البلاد (أسرة شان السابقة واللاحقة)	٢٢١ ق.م - ١٧٢ ق.م	أمبراطورية تسين وغان	٢٢١ ق.م - ١٣٤ ق.م	الصينية
المؤسسون رجال حدود (رومانيون - المجددون رجال حدود من إيليريا	٣١ ق.م - ٢٧٨ ق.م	الأمبراطورية الرومانية	٢١ ق.م - ٤٢١ ق.م	الهلينية
رجال حدود (من طيبة) » » »	حوالي ٢٠٧٠ - ١٦٦٠ ق.م حوالي ١٥٨٠ - ١١٧٥ ق.م	الأمبراطورية الوسطى الأمبراطورية الحديثة	حوالي ٢٤٢٤ - ٢٠٧٠ ق.م ٢٠ ق.م	المصرية
رجال حدود (من مومكور)	١٤٧٨ ق.م - ١٨٨١ ق.م	الأمبراطورية المسكونية	١٠٧٥ ق.م - ١٤٧٨ ق.م	السيحية الأرثوذكسية (قروية)
رجال حدود (من كوانتو)	١٥٩٧ - ١٨٦٨ ق.م	ديكتاتورية هيسباني وشرقية تركوجارا	١١٨٥ - ١٥٩٧ ق.م	الشرقية القيسري (ف) اليان (ع)
رجال حدود (من فرنسا)	١٧٩٧ - ١٨١٤ ق.م	الامبراطورية نابليون	١٣٧٨ - ١٧٩٧ ق.م	الفرنسية (عالمية القرون) الامبراطورية (عالمية)

رجال حدود (من فرنسا)	١٥٢٦ - ١٩١٨ م	ملكية هابسبورج النمساوية	١١٢٨ - ١٥٢٦ م	الغربية (دورا ضد هجوم المايان)
رجال حدود (من كوزكو) - المستكشفون دخلاء (من أسبانيا)	١٤٣٠ - ١٥٢٣ م	أمير إلمورية الإنكا (إلهات الأربع)	١٤٣٠ - م	الأنديانية
رجال حدود (من أدان)	حوالي ٥٢٥ - ٣٣٢ ق.م	الأميرة إلمورية الأخمينية	حوالي ٩٣٧ - ٤٢٥ ق.م	السورية
رجال حدود (من أجزيرة الميرية)	حوالي ٦٤٠ - ٩٦٩ م	الملكة إلمورية	حوالي ٨٧٨ - ١٢٨٠ م	التشرقية القديمة (الكيان الأصلي)
برابرة دخلاء (منول)	١٢٨٠ - ١٣٥١ ق.م	الأميرة إلمورية	١٥٢١ - م	الأمريكية الوسطى
دخلاء (المانشو)	١٦٤٤ - ١٨٥٣ م	دولة المانشو	٩٧٧ - ١٣٧٢ م	الشيعة الأرثوذكسية (الكيان الأصلي)
رواد - رجال الحدود البرابرة (أزتك)	١٥٢١ - ١٨٢١ م	إسبانيا الجديدة	١١٧٥ - ١٥٧٢ م	الهندية
الموسون دخلاء (أسبانيا)	١٣٧٢ - ١٧٦٨ م	الأميرة إلمورية المانية	١٧٥٠ - م	البحرية (في كريت)
دخلاء (شيانيون)	حوالي ١٥٧٢ - ١٧٠٧ م	السلطان المنول	٣٠٠ ميلادية	المايانية
دخلاء (بريطانيون)	١٨١٨ - ١٩٤٧ م	البريطاني		
لا يوجد دليل	حوالي ١٧٥٠ - ١٤٠٠ ق.م	أميرة إلمورية مينور البحرية		
لا يوجد دليل	٣٠٠ - ٩٦٠ م	دولة المانية		

- (١) قد يُنتج الكلدانيون في المقبرة البابلية إما تحت بند التوسمين من نفس البلاد أو تحت بند التوسمين رجال حدود.
- (٢) قد ينظر إلى ماجادا Magadha إما كجزء من داخلية العالم الساساني قبل العصر المينوري أو إبانته ، أو تعتبر الحد الشرق العالم الساساني خلال تلك المصير.
- (٣) تاريخ تنوب أول الحرب بين الجر والكمونيين وهم أسلاف المايان في الإمبراطورية الرومانية الشرقية.
- (٤) تاريخ استيلاء المعاة من تالينج Traiping على نالنج.

الجدول الثاني

الفلسفات

الفلسفة	الحنسارة
Atonism (عقيدة)	المصرية
Viracòchaism	الانديانية
Confucianism	الصينية
moism	الموية (٢)
Taoism	التاوية (٣)
Zervanism (عقيدة)	الزرقانية
Hlnayanism Buddhism	البوذية الهينايانية
gainism	الجانية
Cartesianism	الديكارتية
Hegelianism	الهيغلية
Platonism	الأفلاطونية
Stoicism	الرواقية
Epicureanism	الأيبيقورية
Pyrrhonism	البيرونية (الشك)
Astrology	التنجيم
	البابلية

(١) الفيراكوتشية : نسبة إلى فيركوتشا ملك الإنكا Inco في أمريكا اللاتينية . وقد حاول فرض عقيدة دينه على رعيته ففشل . (المترجم)

(٢) نسبة إلى الفيلسوف الصينى مو تز Mo Tzu .

(٣) I تعنى كلمة تار ، الطبيعة إبان قيامها بدورها . ويترجمها بمفص الكتاب الغربيين بـ روح الكون ، لكنها - كما ذكره - لى أحد الأساتذة الصينيين فى بكين فى أبريل ١٩٦٥ - تقترط بفكرة للروح إبان نشاط تلقائى . (المترجم)

الجدول الثالث الأديان العليا

مصدر الإلهام	الدين الأعلى	الحضارة
أصلية	عبادة تموز	السريرية
هل هي دخيلة ؟ - هل أصلها سوري ؟	عبادة أوزيريس	المصرية
دخيلة (من مصدر هندي - هيليني - سوري)	بوذية المهايانا	الصينية
أصلية ، لكنها غاكاة للمهايانا	التاوية المتحدة	
أصلية	الهندوكية	الهندية
أصيل	الإسلام	السورية
دخيلة (أصلها سوري)	المسيحية	الغليلية
دخيلة (أصلها سوري)	المثيرة	
دخيلة (أصلها سوري)	المانوية Manichaeism	
دخيلة (أصلها سندي)	المهايانية	
دخيلة (أصلها مصري)	عبادة إيزيس	
دخيلة (أصلها حثي)	عبادة سيبل	
أصلية (فلسفة)	الأفلاطونية الجديدة	
دخيلة (أصلها سوري)	اليهودية	البابلية
دخيلة (أصلها سوري)	الزرادشتية	
دخيلة (أصلها إيراني)	البهائية	الغربية
دخيلة (أصلها إيراني)	الأحادية	
دخيلة (أصلها إيراني)	الشيعية الإمامية	المسيحية الأرثوذكسية (الكيان الأصلي)
شبه دخيلة (ذات صبغة إيرانية)	اليدر الدينية	
أصلية	الطائفية	المسيحية الأرثوذكسية (في روسيا)
دخيلة (أصلها غربي)	البروتستانتية الإحيائية	
دخيلة (أصلها غربي)	الكاثوليكية	الشرق الأقصى (الكيان الرئيسي)
شبه دخيلة (ذات صبغة غربية)	التايبينج T'ai'p'ing	
شبه دخيلة (من الكيان الأصل لحضارة الشرق الأقصى)	جودو	الشرق الأقصى (في اليابان)
أصلية (من جودو)	جودو شينشو	
أصلية	النيتشرية Nichirenism	
شبه دخيلة (من الكيان الأصل لحضارة الشرق الأقصى)	زن Zen	
شبه دخيلة (صبغة إسلامية)	للكابيرية والميخية	الهندية
شبه دخيلة (صبغة غربية)	براهمو ساماج	

عصابات الحرب من المتبريرين

ج ش = جنوب شرق

ش ش = شمال شرقی

ج غ = جنوب غربي

ش غ = شمال غربی

الحضارة	الدولة العالمية	الحلود	المصري برون	الشعر	الديانة
السورية	إمبراطور سومر وأكداد	ش ش	الجاتا Outaeans البدو الأوراسيون (والأرياس) الكاسيون	الملاحم الساندركيتية	جمع آلهة الغنط
البابلية	الإمبراطورية البابلية الجديدة	ش غ ش ش	الجاتيون البدو الأوراسيون (والأسقوذيون) الميديون والفرس	الملاحم الساندركيتية (مهذبة)	جمع الآلهة الحيثية الزرادشتية
السندية	إمبراطورية الموريا إمبراطورية الجوبتا	ش غ	الساكاس Sakas		
الصينية	إمبراطورية تسين وهان	ش غ ش غ	المون الجوركا البدو الأوراسيون		
الميلينية	الإمبراطورية الرومانية	ش غ	كلت الجزيرة تيموتون القارة	الملاحم الإبريدية الملاحم التيونوتية	المسيحية الغربية القديسة جمع الآلهة البروتونية القارية أو لام الأرية
المصرية	الأولة الوسطى الولة الحديثة	ش ش ج ش ج غ ش ش ش غ شرق	البدو الأوراسيون العرب البربر النوبيون الهكسوس الأتحيون الليبيون العمريثيون والأراميون	الشعر الجاهل الملاحم المومرية	الإسلام عبادة ست جمع الآلهة الأوغينية عبادة ياهوي
المسيحية الأرثوذكسية (ق روسيا)	الإمبراطورية المسكوفية	ج ش	البدو الأوراسيون		لاية البدوية الهياكلية

(تابع الجدول الرابع)

الغصارة	الدول العالمية	البلدود	المستعبر برون	الشعر	النباتية
الشرق الأقصى الغربية	شوجونية توكر جاوا في أوروبا	ش ش ش غ شال ش ش	الأينو كلت الجزيرة السكندنافيون سكسون القارة الوند البيتيانيون البدو الأوراسيون (الخمر) اليوسيون	الملاحم الإيرلندية الساجا الإيسلندية	مسيحية الغرب الأقصى مجمع الآلهة السكندنافية
الاندليانية	في أمريكا الشمالية إمبراطورية الإنكا	غرب شرق جنوب	الهنود الحمر الأمازونيون الأروكانيون Araucaniens	أشعار البطولة لليو-سلان المسلمين	البوذية ومولوية ثم الإسلام نزعة اندفاعية بعيدة عن العنف
السورية	الإمبراطورية الإغريقية	ش غ	المقدونيون البارثيون الساكاسيون الفرنجة	أشعار رومانسية في الأسكندرية	
الخلافة العربية		ش ش ش غ	الساكاسيون الفرنجة رجال حدود الدولة الألمانية الشرقية	الملاحم الإيرانية الملاحم الفرنسية الملاحم البيزنطية اليونانية	الكاثوليكية المسيحية الأرثوذكسية
الشرقية القصوى	عصر اضطرابات إمبراطورية المانشو	ش غ ش ش ش ش ش ش ش ش ش ش ش غ	التربر العرب البدو الأوراسيون (الخمر) البدو الأوراسيون البدو الأوراسيون البدو الأوراسيون (المغول) البدو الأوراسيون (المغول) البدو الأوراسيون (كالموك زوتيجسار) التشيتشيك Chichinecs	الشعبة الإسماعيلية الشعبة الإسماعيلية اليهودية المانيشية Manichaeism النسطورية لامية المهايانا البوذية	
أمريكا الوسطى	نباتية الملك في إسبانيا الجديدة	شال			

(تابع) الجدول الرابع

المختارة	الدول العالمية	الحدود	المختبر بران	الشعر	الديانة
المسيحية الأرثوذكسية الكثوليك (الأسقف)	الإمبراطورية العثمانية	ش غ	الصر ب	الأشعبار الثنائية المسيحيين الأرثوذكس اليوسلاف	
			الألبانيون يونان الروماني	الشعر البطولي الألباني شعر يوناني الروماني وأشعار القصص	الطريقة البكتاشية
		ش ش	اللاط الأكراد		
الهندية	الحكم المغول	ج ش جنوب ش غ	المر ب العرب الأزبك الأفغان		الرهابية النجديّة مهدية كردفان
الينوية	الحكم البريطاني إمبراطورية مينوس البحرية	شمال	الأخيون Achaeons	ملاحم هوميروس الشعرية	مجمع الآفة الأوليمبية عبادة ياعوى
الإيرانية	مصر اضطرابات	شرق ش ش	العبرانيون والأراميون الأثريك الأفغان		
الحيثية		ش ش ش غ ج غ ش غ	الجابجا Gasgas الفرجيون الأخيون الباسثرايون Basthrawal		
داوة الأوراسية	القطع الأسقودي الملكي	شرق ش غ	السارمائيون الفارناجيون Varangians	ملاحم هوميروس الشعرية	مجمع الآفة الأوليمبية
	قطع الخزر	شرق ش غ	البشتنجيون Pechenegs	الأشعار الثنائية الخماسية الروسية	المسيحية الأرثوذكسية
	قطع الذهبى	ش غ ش ش	القوزاق قرغيز القازاق	أشعار قرغيز القازاق الثنائية	

سياق الاستدلال

الباب الأول

المقدمة

الفصل الأول : وحدة الدراسة التاريخية

إن وحدات الدراسة التاريخية الواضحة المعالم ؛ ليست هى الأمم أو العصور ، لكنها المجتمعات . ويبدى فحص التاريخ الإنجليزى - قصلاً - قصلاً - عدم قابليته للفهم كشئ فى حد ذاته ؛ لكنه لا يفهم إلا جزءاً من كل أكبر . ويشغل هذا الكل أجزاءً (من قبيل المثال : إنجلترا وفرنسا وهولندا) ؛ تخضع لعوامل مثيرة مطابقة ، أو تحديات . لكن تختلف طرائق رد فعلها عليها .

وتفسيراً لهذا رأى ؛ أورد المؤلف مثالا من التاريخ الهليني .

أما « الكل » أو « المجتمع » الذى تنتمى إليه إنجلترا ، فقد اصطلح المؤلف على تسميته بالمسيحية الغربية . ولقد حدد امتداده المكافئ فى أوقات مختلفة ، كما عين أصوله الزمانية . فوجد أنه يرجع إلى زمن أبعد ، لكنه ليس أقدم كثيراً من تميز أجزائه بعضها عن بعض . ويكشف إرتياد أصوله عن وجود مجتمع آخر - غدا الآن ميتاً - هو المجتمع اليونانى الرومانى (أو الهليني) الذى يتصل به المجتمع الغربى بصلة البنوة .

وواضح كذلك ؛ أن ثمة عدداً من المجتمعات القائمة الأخرى هى المجتمعات . المسيحية الأرثوذكسية - الإسلامية - الهندية - الشرقية . القصوى ، يضاف إليها مخلفات المجتمعات المتحجرة الغير المعينة الشخصية فى هذه المرحلة ، مثل اليهود والبارسين .

الفصل الثاني : الدراسة المقارنة للحضارات

يهدف هذا الفصل إلى التحقق من شخصية جميع المجتمعات - أوبالأخرى الحضارات - وتعيينها وتسميتها .

ومناطق طريقة البحث الأولى ؛ تناول الحضارات القائمة التي تحققت شخصيتها بالفعل ، وفحص أرومتها والنظر فيما إذا كان في وسعنا العثور ، على حضارات إندرست في الوقت الحاضر ، تتصل بها الحضارات القائمة بصلة البنوة ؛ على غرار ما وجد من انتساب المسيحية الغربية إلى الحضارة الهلينية .

ومجمل أمارات هذه البنوة :

(أ) دولة عالمية (مثل الإمبراطورية الرومانية) .

(ب) فترة فراغ تظهر فيها :

١ - عقيدة دينية .

٢ - هجرات البرابرة خلال عصر بطولة .

ويعتبر ظهور العقيدة الدينية والهجرات ، نتيجتين على التوالي ، للبروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية ، لحضارة تموت .

وبالسير على هدى هذه القرائن ، نجد :

أن المجتمع المسيحي الأرثوذكسي ، يتصل بصلة البنوة - مثل المجتمع الغربي - إلى المجتمع الهليني .

وإذا تتبعنا المجتمع الإسلامي إلى أصوله ؛ نجد أنه ذاته ، حصيلة اندماج مجتمعين كانا في الأصل متميزين هما : الإيراني والعربي ؛ وباقتفاء أثر هذين المجتمعين ؛ نجد - خلف ألف سنة من المداخلة الهلينية - مجتمعاً مندرسا ، يدعى « المجتمع السوري » .

ونجد وراء مجتمع الشرق الأقصى : مجتمعا صينيا ،
وتعتبر المجتمعات المنحجرة بقايا واحد أو أكثر من المجتمعات البائدة .
ونجد المجتمع المينوى وراء المجتمع الهليني . بيد أننا نلاحظ أن المجتمع
الهليني — عكس المجتمعات التي تتصل بصلة البنية إلى مجتمعات أخرى —
لم يعتنق عقيدة دينية كشفتها البروليتاريا الداخلية للمجتمع المينوى . ومن
ثم ؛ لعل المجتمع الهليني ، لا ينحدر تماما عن المجتمع المينوى .

وراء المجتمع السندی : نجد المجتمع السومري .
وبالإضافة إلى المجتمع السندی ، نجد مجتمعين آخرين هما الحيثي والبابلي ،
يعتبران عقين للمجتمع السومري .
ليس للمجتمع المصري سلف ينتسب هو إليه ، كما أن ليس له خليفة .
وفي وسعنا أن نحقق في العالم الجديد ، ذاتية أربعة مجتمعات : الأندياني
واليا كوتي والمكسيكي والماياي .

ومن ثم ؛ يصبح مجموع ما لدينا تسعة عشر نوعا للحضارات . ولوقسمنا
المجتمع المسيحي الأرثوذكسي إلى : أرثوذكسي بيزنطي (في الأناضول
والبلقان) وأرثوذكسي رومي ؛ وقسمنا مجتمع الشرق الأقصى إلى صيني
ويا باني / كوري ، يصبح لدينا واحد وعشرون مجتمعا

الفصل الثالث — قابلية الحضارات للمقارنة

١ — الحضارات والمجتمعات البدائية :

تشترك الحضارات على أية حال في نقطة واحدة ، مدارها أنها نوع
آخر ، غير نوع المجتمعات البدائية .

وهذه المجتمعات : أكثر عدداً بكثير من الحضارات لكنها — أفرادا —
أصغر من أفراد الحضارات بكثير .

٢ - خطأ فكرة وحدة الحضارة :

ناقض المؤلف الفكرة التي وصفها بالضللال ، القائلة بأن ثمة حضارة واحدة هي الحضارة الغربية ؛ ولقَظَها . كما ناقش نظرية إستطارة الحضارة القائلة بأن مصر هي أصل جميع الحضارات ، ولم يقبلها .

٣ - الدفاع عن فكرة قابلية الحضارات للمقارنة :

تعتبر الحضارات - نسبيا - ظاهرة حديثة للغاية في التاريخ البشري . فإن أقدمها لم ينشأ أبعد من ستة آلاف سنة مضت . ولذلك روى معاملتها باعتبار أنها تنتمي لنوع واحد ، يعاصر بعضه بعضا من الناحية الفلسفية . ويقر المؤلف أن القول بأن التاريخ لا يعيد نفسه ، لا يحول دون الإجراء المقترح ، وهو التفاضل بأن الحضارات متعاصرة . وقد وصف المؤلف هذا القول بأنه نصف الحقيقة .

٤ - التاريخ والعلم والمصنف الخيالي :

هذه هي وسائل ثلاث مختلفة لتقديم موضوعات الفكر وبحثها . ومن بينها ظواهر الحياة البشرية . ويفحص المؤلف الاختلافات بين هذه الأساليب الفنية الثلاثة ويناقش استعمالات العلم والمصنف الخيالي ، في عرض مبحث التاريخ .

الباب الثالث

بدايات الحضارات

الفصل الرابع : المشكلة وكيف لا تحل

١ - استعراض المشكلة :

من بين مجتمعاتنا الحضارية الواحد والعشرين ، ثمة خمسة عشر تتصل بصلة البنية بحضارات سابقة . اكن ستة مجتمعات فقط قد انبعثت مباشرة

من الحياة البدائية . والمجتمعات البدائية هي في حالة سكون في الوقت الحاضر ، لكن من الواضح أنها ما كانت - أصلاً - إلا في حالة تقدم ديناميكي . فإن الحياة الاجتماعية أقدم من الجنس البشري نفسه ، إذ توجد في محيط الحشرات والحيوانات . ولا بد أن شبيه الإنسان قد برز إلى مستوى الإنسان ، ظل حماية المجتمعات البدائية . وهذا تقدم يعتبر أعظم من أى تقدم حققته حضارة من الحضارات . ومع ذلك ، فإن المجتمعات البدائية - كما نعرفها - هي حالة سكون . ومناطق المشكلة هو : لماذا ، وكيف تحطمت « قرصة العادة » البدائية هذه ؟

٢ - الجنس :

إن العامل الذى نبحث عنه ، يجب أن ينحصر إما في صفة خاصة في الكائنات البشرية التى بدأت عملية التحضر ، أو طائفة من مظاهر بيئتها وقت بداية الحضارة ، أو في شئ من التفاعل بين الجنس والبيئة . ولقد بحث المؤلف أول هذين الرأيين المتصل بوجود جنس متفوق تفوقاً فطرياً كالجنس النوردي مثلاً ، وأثبت بطلانه .

٣ - البيئة :

بحث المؤلف الرأى القائل بأن أنواعاً من البيئات توفر الأسباب السهلة الميسرة للحياة ، وتتيح مفتاح أصل الحضارات . وقد أثبت بطلان هذا الرأى :

الفصل الخامس : التحدى والاستجابة

١ - المفتاح الأسطوري :

يُعزى ضلال الرأيين اللذين سبق بحثهما ونبذهما ، إلى تطبيقهما منهاج العلوم المادية أى علمى الحياة والجيولوجيا ، على مشكلة ؛ هي في الواقع معنوية .

ويوحى استعراض الأساطير الكبرى التى أودعها الجنس البشرى حكمته ،
 باحتمال أن الإنسان قد حقق الحضارة - لا نتيجة لمواهب بيولوجية عُلِّيا
 أو بيئة جغرافية - ولكن استجابة لتحدى موقف ذى صعوبة خاصة ،
 استناره الإنسان لبذل جهد لم يقم به من قبل :

٢ - تطبيق الأسطورة على المشكلة :

كان السهب الأفراسى (الصحراء الكبرى والصحراء العربية) قبل
 فجر الحضارة ، أرض رعى عامرة بالمياه : وطالع الجفاف الطويل الأمد
 والمتتالى هذه المراعى ، فجابه سكانها بتحد استجابوا له بطرائق مختلفة :
 تمسك البعض بأرضهم وغيروا عاداتهم ، فابتكروا نمط الحياة البدوية :
 ونقل آخرون مواطنهم صوب الجنوب إلى المناطق الاستوائية ؛ متبعين
 أثر المرعى المرتدة . ومن ثم احتفظوا بطريقة حياتهم البدائية ، التى ما يزالون
 يعيشونها حتى الآن .

وآخرون ولجوا مستنقعات وغابات دلتا النيل ، فجابهوا بذلك التحدى
 الذى تمثله . وعملوا على تجفيفها ، فكان أن أقاموا الحضارة المصرية .
 وانبعثت الحضارة السومرية بنفس الطريقة ومن نفس الأسباب ، فى
 دلتا الدجلة والفرات .

وانبعثت الحضارة الصينية فى وادى النهر الأصفر . ولا تُعرف طبيعة
 التحدى الذى برز إلى الوجود . لكن يبدو من الاستقراء ، أن الظروف
 كانت أبعد من أن نوصف بالسهولة .

وانبعثت الحضارة المايانية من تحدى غابة استوائية وانبعثت الأنديانية
 من تحدى هضبة كثيفة .

وانبعثت الحضارة المينوية من تحدى البحر . وكان مؤسسوها لاجئين
 من شواطئ أفريقيا التى أصيبت بالجفاف . فامتطوا البحر واستقروا فى كريت

وغيرها من جزائر بحر إيجة . ولم يأتوا في بدء عهدهم من البر الأقرب في آسيا وأوروبا .

أما بالنسبة لحالات الحضارة التي تنتسب لغيرها ، فلا بد أن التحدى الذى أبرزها إلى الوجود ، قد جاء فى الأصل — لا من العوامل الجغرافية — ولكن من البيئة البشرية ، أى من الأقليات المسيطرة للمجتمعات التي تتصل بها بصلة الجنس :

وتعريف الأقلية المسيطرة ، أنها طبقة حاكمة تعطلت وظيفتها القيادية ، فانقلبت إلى طاغية . وتستجيب البروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية للحضارة الماهرة لهذا التحدى ، عن طريق الانفصال عنها : ومن ثم تضع أسس حضارة جديدة .

الفصل السادس : فضائل المشقة

يمكن تفسير بدايات الحضارات — وفقا لما ورد فى الفصل السابق — فى الفرض القائل بأن الأحوال الصعبة — أكثر من السهلة — هى التي تولد هذه الأعمال المجيدة .

ويقرب المؤلف هذا الفرض إلى حيز الوقائع ، بفضل التفسيرات التي يحصل عليها من المواقع التي سبق أن ازدهرت الحضارة فى ربوعها ، لكنها أخفقت بعد ذلك . ثم كان أن انكفأت الأرض إلى حالتها الأصلية :

إن ما كان وقتا ما مشهداً للحضاراً المايانية ، هو فى الوقت الحاضر ، غابة استوائية .

وازدهرت الحضارة السندية فى سيلان فى النصف الغربى الممطر من الجزيرة لكنه أصبح الآن قاحلا تماما . وإن ظلت آثار نظام الرى السندى تشهد على ازدهار الحضارة هناك .

وتقوم أطلال بصرى وتدمر فى واحات صغيرة فى الصحراء .

وتدل التماثيل القائمة في جزيرة إيستر - وهي من أقصى الأماكن بعدا في المحيط الهادى - على أنها كانت مركزاً لحضارة بولونيزية .

وتعتبر إنجلترا الجديدة التى قام مستعمروها الأوربيون بدور غالب في تاريخ أمريكا الشمالية ، من أكثر أجزاء القارة كآبة وجديدا .

وقامت المدن اللاتينية في مقاطعة كامبانا الرومانية - وكانت حتى وقت قريب مباءة للعلايا - بدور عظيم في قيام سلطان روما . عكس الدور الضئيل الذى قامت به كابوا التى تتمتع بمركز ممتاز .

كذلك يورد المؤلف صوراً مستخلصة من المؤرخ اليونانى هيرودوتس ومن الأوديسية ومن سفر الخروج .

ولقد لبث أهالى نياسلند - حيث الحياة مبسرة - متوحشين بدائيين حتى وفد إليهم غزاة من أوروبا البعيدة القاسية المناخ .

الفصل السابع : تحدى البيئة

١ - حافز البلاد الشاقة :

يورد المؤلف سلسلة من أزواج البيئات المتجاورة . ونجد البيئة المبتدعة في كل : المنطقة « الأشد وعورة » . ولها كذلك سجل أشد ضياءاً ، كمنشئ لشكل أو آخر من أشكال الحضارة .

ويطالعنا في هذا الشأن :

وادی النهر الأصفر ووادی اليانجتس - آتيكا وبوتنيا - بينزطة وكالخيدون - إسرائيل ، فينيقية وفلسطين - براندنبرج وأرض الراين - اسكتلندا وإنجلترا - الجماعات المختلفة للمستعمرين الأوربيين في أمريكا الشمالية ،

٢ - حافز الأرض الجديدة :

نجد أن الأرض « البكر » تبرز إستجابات أشد حيوية من الأرض التى

سبق اقتحامها بالفعل ، وشغلها مقيمون متحضرون ، فيسروا المعيشة فيها ،
ومن ثم ؛ إذا ما تناولنا كل الحضارات التي تتصل بصلة البنية بحضارات
أخرى ، نجد أنها قد أبرزت أعجب تجلياتها في أماكن خارجة عن المنطقة
التي شغلها الحضارة المنشئة . ويتبدى بصورة خاصة تفوق الاستجابة التي
تستثيرها أرض جديدة ، إن كان الوصول إلى الأرض الجديدة يتطلب
عبور البحر .

ويورد المؤلف أسباب ذلك ؛ كما يورد أسباب ظاهرة إرتقاء الدراما
في الموطن الأصلي ، والملاحم الشعرية في المناطق المستوطنة عبر البحار .

٣ - حافز الضربات :

يورد المؤلف أمثلة مختلفة من التاريخ الهلنستي والغربي لتفسير المراد بالقول
بأن الهزيمة الساحقة الفجائية ، كيفية باستئثار الجانب المهزوم ، لترتيب
نظام داره ، والاستعداد لتحقيق إستجابة منتصرة .

٤ - حافز الضغوط :

تبدى الأمثلة المختلفة أن الشعوب التي تشغل مواقع حدود وتعرض
لعدوان متصل ، تُظهر إستطالة أشد إشراقا من جيرانها أصحاب
المواقع المحمية .

ومصادقا لذلك ؛ كان العثمانيون الواقعيين تحت ضغط حدود
الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، في موضع أفضل من القرمانيين القاطنين
شرقهم . وكانت للنمسا حياة جارية أفضل من حياة بافاريا ، بفضل تعرض
النمسا باستمرار لعدوان الأتراك العثمانيين ؛

ويبحث المؤلف - من وجهة النظر هذه - موقف الجماعات المختلفة في
بريطانيا ومصائرهم خلال الفترة الواقعة بين سقوط روما والفتح النورمندي ،

٥ - حافز النقم :

ما برحت طوائف وشعوب تعاني طوال قرون ، صنوفاً مختلفة من النقم أنزلتها بها طوائف وشعوب كانت لها السيادة عليها . وتستجيب - بصفة عامة ، الشعوب والطوائف التي أصابها النقم ، لتحدى الحرمان من المشاركة في فرص ومزايا معينة ، بإبراز طاقة استثنائية ، وإظهار أهلية غير عادية في الاتجاهات المفتوحة . ومثلها في هذا الشأن ، مثل الأعلى الذي تقوى لديه حاسة السمع ، قوة خارقة .

وكان الرق ، أثقل تلك النقم . بيد أنه انبعث خلال القرنين السابقين للميلاد ، من حشود الأرقاء الذين استُجلبوا إلى إيطاليا من الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ، طبقة من المعتوقين أحرزوا نفوذاً يعمل له حساب . ومن عالم الرق هذا ، ظهرت العقائد الدينية الجديدة للبروليتاريا الداخلية ؛ وكانت المسيحية من بينها :

ويبحث المؤلف - من نفس وجهة النظر - مصائر الجماعات المختلفة للشعوب المسيحية ، التي أخضعها العثمانيون لحكمهم . وبصفة خاصة الفناريون . ويستخدم المؤلف هذا المثال - هو ومثال اليهود - للبرهنة على أن السمات التي توصف بأنها جنسية ، لا تمت في الواقع إلى الجنس بحال . لكن مرجعها التجارب التاريخية التي تمر به الجماعات موضع البحث .

الفصل الثامن : الوسط الذهبي

١ - كاف وكثير جداً :

هل في إمكاننا أن نقرر - بكل بساطة - أنه كلما اشتدت صرامة التحدى ؛ كلما ارتقى مستوى الاستجابة ؟
أو ، هل ثمة تحد ، أشد من أن يستثير استجابة ؟

بال تأكيد ، إن بعض التحديات التي دحرت فريقا أو أكثر ممن واجهتهم ؛ قد استثارت في النهاية ، استجابة منتصرة . مثال ذلك : أن التحدى الذى مثله امتداد نطاق الحضارة الهلينية ، كان قويا للغاية على مقدرة استجابة الكلت ، بينما استجاب له بنجاح له خلفاؤهم التيونون . واستثارت « المداخلة الهلينية » في العالم السورى ، سلسلة من الاستجابات السورية الفاشلة - الزرادشتية ، اليهودية (حركة المكابيين) ، النسطورية المينوفيسيتية ، لكن نجحت الاستجابة ؛ ممثلة في ظهور الإسلام .

٢ - المقارنة في ثلاثة حدود :

وعلى أية حال ؛ لايتأتى التدليل على أن التحديات يمكن أن تتطرف في صرامتها . بمعنى أن التحدى الأقصى ، لن يبرز دائما الاستجابة المثلى . ومصدقا لذلك ، استجاب مهاجرو الفايكنج من النرويج استجابة رائعة لتحدى بيثة ايسلندا الصارمة ، لكنها انهارت أمام تحدى بيثة جرينلند . وكانت بيثة « ماساشوستس » ، تحديا صارما للمستعمرين الأوروبيين ، أقصى من بيثة « دكسى » التي استثارت استجابة طيبة . لكن لابرادور التي أبرزت تحديا أشد قسوة من تحدى ماساشوستس ، لم يستطع المستعمرون الأوروبيين الاستجابة لها .

ويتلو ذلك أمثلة أخرى : فإن حافز الضربات قد يتطرف في صرامته سيما إن طال أمدّه ، مثل تأثير الحرب الهانيبالية على إيطاليا . ويستثير الصينيين تحدى اجتماعى ، قوامه هجرتهم إلى الملايو . لكنهم ينهزمون أمام تحدى اجتماعى أشد صرامة يقابلهم في بلد سكانه من البيض مثل كاليفورنيا .

ويستعرض المؤلف في النهاية درجات مختلفة من التحدى الذى تبرزه الحضارات ، لجيرانها البرابرة .

٣ - حضارتان عقيمتان :

هذا القسم استمرار لمناقشة المثال الأخير الوارد في القسم السابق .
كان ثمة جماعتان من البرابرة يقطنون خلال الفصل الأول من تاريخ
المسيحية الغربية على حدودها ، بلغت استنارتهم درجة جعلتهم يشرعون
في إخراج حضارتين منافستين لحضارتهم الخاصة . إلا أنهما مع ذلك قد
ذبلتا في البرعمة . هاتان الحضارتان هما حضارة الغرب الأقصى التي اعتنقها
مسيحو الكلت (إيرلندا وأيونيا) وحضارة الفايكنج الاسكندنافيين .

ويبحث المؤلف هاتين الحالتين ، ودرس الاحتمالات التي قد تنجم
لو تغلبت على المسيحية الغربية ، هاتان الحضارتان المنافستان لها ، ولم
تستوعبهما الحضارة التي أضاعت من روما ومن أرض الراين .

٤ - ضغط الإسلام على عالمي المسيحية :

كان تأثير ضغط الإسلام على المسيحية الغربية طيباً في مجموعه ،
فإن الثقافة الغربية خلال القرون الوسطى ، تدين بالكثير إلى الأندلس
المسلمة إلا أن الضغط الإسلامي على المسيحية البيزنطية ، كان متناهماً في
شدته واستنارت نزعته ساحقة لإعادة تشييد الإمبراطورية الرومانية تحت
حكم ليو السورى ،

كذلك يتكلم المؤلف عن حالة الحبشة التي يعتبرها « مجتمعاً مسيحياً
متحجراً » قائماً في رباط محاط بالعالم الإسلامى . »

الباب الثالث

استطالات الحضارات

الفصل التاسع: الحضارات المتعطلة

١ - البولونيزيون والأسكيمو والبدو :

قد يبدو أنه ما دامت الحضارة قد ظهرت للوجود ، فإن ارتقاءها يصبح مؤكداً : لكن الأمر ليس كذلك ، وفقاً لما يبدية سجل طائفة من الحضارات التي حققت لها وجوداً ، لكنها أخفقت في اتصال نموها .

وتمثل مصير هذه الحضارات المتعطلة ، في مواجهتها تحد على خط الحد بين درجة من الشدة تستثير استجابة ناجحة ، وبين درجة أعظم شدة تجر إلى الهزيمة :

وتطالعنا ثلاث حالات انبعث فيها التحدى من هذا النوع من البيئة المادية :

وكانت النتيجة في كل حالة ، عملاً فذا حققه المستجيبون الذين استهلكوا كافة طاقاتهم للاستجابة للتحدى ؛ بحيث لم يعد لديهم ما يؤهلهم لمزيد من الارتقاء :

فإن البولونيزيين قد حققوا عملاً فذا قوامه الانتقال بين جزائر المحيط الهادى ، إلا أن المحيط قد هزمهم في النهاية ، فكان أن انكفأوا إلى حياتهم البدائية على جزائرهم العديدة المنعزلة .

وحقق الإسكيمو دورة سنوية حاذقة ؛ تخصصت في الحياة على شواطئ المحيط المتجمد ،

وأنجز البدو كراعة دورة سنوية مماثلة على السهوب شبه الصحراوى .
 وثمة نقاط كثيرة مشتركة بين المحيط بخزائره والصحراء بواحاتها .
 ويحلل المؤلف تطور البداوة خلال فترات الجفاف . ويلاحظ أن الصيادين
 يتطورون إلى زراعيين قبل أن يتخذوا الخطوة التالية المتصلة بصيرورتهم
 بدوا . ويعتبر قبائل وهابيل أنموذجين للزراع والبدوى . وتُعزى دائماً
 لإقتحامات البدو لمناطق الحضارات ؛ إما إلى إزدیاد قسوة الجفاف ، فتدفع
 البدو عن السهوب ؛ أو إلى إنهيار حضارة من الحضارات ، فيخلف الإنهار
 فراغا يجذب إليه البدوى ويجعله مشتركاً فى مرحلة « هجرات » .

٢ - العثمانيون :

تمثل التحدى الذى كان النظام العثمانى استجابة له ، فى نقل جماعة بدوية
 إلى بيئة تضم جماعات مستقرة كان عليها أن تحكمها .
 وحل العثمانيون مشكلتهم بمعاملتهم رعاياهم الجدد على أنهم قطاعان
 وأسراب بشرية وابتكروا مكافئاً بشرياً لكلاّب أغنام البدوى فى شكل رقيق
 « ملكى » يشغل وظائف المديرين والجنود .

ويورد المؤلف أمثلة أخرى للإمبراطوريات البدوية المماثلة ، كالماليك
 مثلاً . إلا أن النظام العثمانى قد فاق النظم الأخرى فى كفايته وزمن بقائه .
 على أنه كابد تلك الصلابة القتالة التى هى سمة البداوة .

٣ - الاسبرطيون :

كانت استجابة الإسبرطيين لتحدى إفراط السكان الذى ألمّ بالعالم
 الهلينى ؛ عبارة عن إبراز عمل قد يشابه فى كثير من النواحي العمل الذى
 أظهره العثمانيون . مع فارق أنه فى الحالة الإسبرطية كانت الطبقة العسكرية
 هى الأرستقراطية الإسبرطية نفسها . لكنهم كانوا كذلك (أرقاء) استعبدتهم
 الواجب الذى فرضوه على أنفسهم ، ومداره إخضاع شعب من مواطنى
 اليونان إخضاعاً دائماً .

٤ - خصائص عامة :

للإسكيمو والبدو والعُمانيين والإسبرطيين خاصيتان مشتركتان :
التخصص والطبقة :

فالنسبة للإسكيمو والبدو ؛ يقوم الكلاب والرنة والحياض والماشية ،
مقام الطبقات المسترقة عند العُمانيين :

ويحطُّ التخصص في جميع هذه المجتمعات من شأن الكائنات البشرية ،
فَيُنزِلُها إلى مرتبة : الإنسان القارب ، والإنسان الحصان ، والإنسان
المحارب . إلا أن التخصص يرفع الأدوات التي يستخدمها إلى مرتبة شبيهة
بمرتبة الإنسان الكامل . والإنسان الكامل ، كان غاية بركليس التي أفصح
عنها في خطاب الرثاء الذي ألقاه . والإنسان الكامل هذا ، هو الذي في
وسعه تحقيق الإرتقاء الحضارى .

وتشابه هذه الجماعات المتعطلة مجتمعات النحل والنمل التي ما برحت
في حالة سكون قبل فجر الحياة البشرية على الأرض . وتشابه كذلك
المجتمعات التي ترسمها (المدن الفاضلة) .

ويعلو ذلك كله ؛ مناقشة موضوع « المدن الفاضلة » . ومن رأى
المؤلف أن المدن الفاضلة بصفة عامة ؛ نتاج الحضارات في مرحلة تحللها .
وهي محاولات ترنو إلى السعى لوقف الانهيار ، عن طريق وقف تطور
المجتمع عند الحد الذي هو فيه وقت رسم البرنامج

الفصل العاشر : طبيعة إرتقاء الحضارات

١ - الدروب الخداعة :

يحدث الارتقاء وقتما تُصبح الاستجابة لتحد معين ، لا ناجحة في نفسها
فحسب ؛ لكنها تستثير تحدياً إضافياً ، يُقابل بالاستجابة ناجحة »

فكيف يثنأى قياس مثل هذا الارتقاء ؟

هل يُقاس وفقا لسيطرة متزايدة على بيئة المجتمع الخارجية ؟

إن ثمة نوعين من مثل هذه السيطرة المتزايدة :

سيطرة متزايدة على البيئة البشرية التى تتخذ عادة شكل غزو الشعوب المجاورة ؛

وسيطرة متزايدة على البيئة المادية ، تُعبّر عن نفسها بتحسينات فى الأسلوب التكنولوجى المادى .

ويورد المؤلف أمثلة لبيان أى من هاتين الظاهرتين — سواء التوسع السياسى والحربى أو تحسین الأسلوب الفنى — لا يعتبر قاعدة مناسبة لقياس الارتقاء الحقيقى . فإن التوسع الحربى التكنولوجى عادة هو نتيجة نزعة حربية تعتبر بدورها قرينة للتدهور . ولا تُبدى التحسينات التكنولوجية سواء أكانت زراعية أو صناعية ، سوى ارتباطاً قليلاً — أو لا شئاً البتة — بينها وبين الارتقاء الصحيح . وحقا فقد يرتقى تماماً الأسلوب الفنى وفقاً لكون التحضر الفعلى فى مرحلة انحطاط . والعكس بالعكس :

٢ — التقدم صوب تقرير المصير :

يُظهر المؤلف أن قوام التقدم الحقيقى ، عملية يعرفها بكلمة (التسمى) ويعنى بها التئلب على الحواجز المادية . وتعمل عملية « التسمى » على إطلاق طاقات المجتمع من عقاها لتسجيب للتحديات التى تغدو — منذ الآن وصاعداً — داخلية أكثر منها خارجية ، روحانية أعظم منها مادية .

ويُفسّر المؤلف هذا التسمى بأمثلة من التاريخين الهلبنى والغربى الحديث :

الفصل الحادى عشر : تحليل الارتقاء

١ - المجتمع والفرد :

ثمة وجهتا نظر تقليديان شائعان تتصلان بعلاقة المجتمع بالفرد :
تجعل إحداهما من المجتمع مجرد حشد من ذرات هى الأفراد ،
وتعتبر الأخرى المجتمع كائناً حياً ؛ وما الأفراد إلا أجزاء منه ،
لا يُدرّكون إلا « أعضاء » أو « خلايا » فى المجتمع الذى ينتسبون إليه ،
ويُبدى المؤلف عدم رضائه عن كلا الرأيين . وعنده أن المجتمع عبارة
عن نظام للعلاقات بين الأفراد . ولا يتأتى للكائنات البشرية أن تحقق وجودها
الحقيقى ، إلا بتفاعلها مع رفاقها ، وهنا يكون المجتمع ميداناً للعمل لعدد
من الكائنات البشرية .

يبد أن الأفراد هم « مصدر الفعل » ، ذلك لأن جميع أسباب الارتقاء
تنبعث عن أفراد مبدعين أو أقليات صغيرة من الأفراد . ويتكون عملهم
من جزئين :

تحقيق إلهامهم أو كشفهم ، مهما يكن من أمره .
وهداية المجتمع الذى ينتمون إليه ، إلى سبيل الحياة الجديد هذا .
ويتأتى - من الناحية النظرية - حدوث هذه الهداية بطريق أو بآخر ،
إما بتعريض الجمع للتجربة الواقعية التى حوّلت الأفراد المبدعين .
وإما تقليد الناس لمظاهر الهداية الخارجية . وبعبارة أخرى ، الهداية
بفضل المحاكاة .

ويُعتبر الطريق الأخير - من الناحية العملية - هو مجال الاختيار الوحيد
المفتوح للجميع ، ما خلا أقلية بسيطة من الجنس البشرى . فإن
المحاكاة طريق مختصر ، لكنه طريق فى وسع عامة الناس جميعاً سلوكه فى
إثراءهم .

٢ - الانسحاب والعودة :

قد يمكن وصف فعل الفرد المبدع بأنه حركة مزدوجة قوامها الانسحاب والعودة :

الانسحاب بغية الاستنارة .

والعودة ، رجاء إثارة رفقائه :

ويوضح المؤلف رأيه من مثال أفلاطون عن (الكهف) ، وقياس القديس بولس عن البذرة ، ومن قصة الإنجيل ، ومن غيرها من المصادر . ثم يوضح المؤلف الفعل العملي في حياة الرواد العظام : القديس بولس - القديس بندكت - القديس جريجورى الكبير - البوذا - الرسول محمد - ماكيافيللى - دانتي .

٣ - الانسحاب والعودة : الأقليات المبدعة :

إن الانسحاب الذى تعقبه عودة ، هو كذلك سمة « شبه المجتمعات » التى تؤلف الأجزاء الأساسية فى المجتمعات بمعناها الأضليل . وتتقدم الفترة التى تبذل فيها مثل هذه المجتمعات الشبيهة ، مشاركتها فى ارتقاء المجتمعات التى تنتمى إليها ؛ فترة ترند فيها بجلاء عن الحياة العامة لمجتمعها .

ومن قبيل المثال : أثينا فى الفصل الثانى من إرتقاء المجتمع الهلنى ، وإيطاليا فى الفصل الثانى من إرتقاء المجتمع الغربى ، وإنجلترا فى فصله الثالث ، ويقرر المؤلف إحتمال قيام روسيا بتأدية دور مماثل فى الفصل الرابع من إرتقاء المجتمع الغربى .

الفصل الثانى عشر : التمايز من خلال الإرتقاء

يتضمن الإرتقاء بجلاء - وفقاً لوضعه فى الفصل السابق - تمايزاً بين أجزاء مجتمع فى مرحلة النمو . فإن بعض الأجزاء ستبرز استجابة ناجحة فى

كل مرحلة ، وسينجح بعضها في تتبع خطاها بفضل المحاكاة . وسيفشل بعضها في تحقيق الإصالة أو المحاكاة على السواء ؛ ومن ثم تهاوى .

وسيكون ثمة كذلك تمايز متزايد بين تواريخ المجتمعات . وواضح أن للمجتمعات سمات غالبية مختلفة . إذ يتفوق بعضها في الفن والبعض في الدين ، والآخر في الابتكارات الصناعية : بيد أنه لن تغفل المشاهدة الجوهرية في غايات الحضارات ؛ فإن لكل حبة مصيرها ، لكن جمع البذور من نوع واحد ، يذرهما « باذر » واحد على أمل إجتناء نفس المحصول .

الباب الرابع

لإنهيارات الحضارات

الفصل الثالث عشر : طبيعة المشكلة

من الواحد والعشرين حضارة (ومن ضمنها الحضارات المتعطلة الوازدة في القائمة) تحققتنا من وفاة ست عشرة منها وأن تسعا من العشر الباقية — أى ما خلا الحضارة الغربية — يبدو عليها مظاهر الانهيار بالفعل .

ويمكن إجمال طبيعة الانهيار ، في ثلاث نقاط :

إخفاق الطاقة الإبداعية في الأقلية المبدعة . وتحول هذه الأقلية منذ الآن فصاعدا إلى مجرد أقلية مسيطرة .

وردّ الأغلبية على تحكم الأقلية بسحبها ولاءها والعدول عن شكاكاتها .

ويتلو ذلك ضياع الوحدة الاجتماعية ، في المجتمع في مجموعه .

وسيكون علينا كشف عوامل مثل هذه الانهيارات .

الفصل الرابع عشر : حلول حتمية

تصر بعض المذاهب الفكرية على نسبة لإنهيارات الحضارات إلى عوامل خارج نطاق سلطة البشر :

١ - نادى الكتاب الوثنيون والمسيحيون على السواء إبان انحطاط الحضارة الهلينية بأن إضمحلال مجتمعاتهم ، مرده « تهافت كوني » : على أن علماء الطبيعة المحدثين قد أبعدوا عصر « التهافت الكوني » إلى مستقبل قصي ، لا يسهل تصويره وهذا يعنى إنتفاء تأثيره كلية على الحضارات سواء في الحاضر أو في الماضي .

٢ - اعتنق شبنجلر وغيره فكرة أن المجتمعات هي كائنات لها صفات التحول الطبيعي من الشباب والنضوج إلى الاضمحلال ، مثلها في ذلك مثل المخلوقات الحية :

لكن المجتمع ليس كائناً من هذا النوع .

٣ - نادى آخرون بوجود شيء حتمي من شأنه تعويق سير الوراثة الأمر الذي يؤثر تأثيراً سيئاً على الحضارة وعلى الطبيعة البشرية ، وأنه بعد إنتضاء فترة من التحضر لا يتيسر إنعاش الجنس إلا بفضل سكب (دم جديد همجي) .

ويناقش المؤلف هذا الرأي ويدحضه .

٤ - تتبى نظرية أكواري التاريخ كما أبداه أفلاطون في كتابه (تايابوس) وكما وردت في الأنشودة الرابعة لفرجيل وفي غيرها . ولقد يكون هذا منشأ الفكرة في كشف الكلدانيين الخاصة بنظامنا الشمسي . بيد أن النظرية الحديثة الواسعة النطاق المتصلة بعلم الفلك ، قد جردت هذه النظرية من أناسها الفلكي . ولا يوجد دليل على صحة النظرية ، بل يوجد الكثير ضدها :

الفصل الخامس عشر : فقدان السيطرة على البيئة

إن الحججة الخاصة بهذا الفصل ، هي المناقض لحجة الفقرة الأولى من الفصل العاشر حيث أُبدى أن حدوث زيادة في السيطرة على البيئة المادية - بقياسها التحسن في الأسلوب التكنولوجي - وحدثت زيادة في السيطرة على البيئة البشرية - بقياسها على أساس التوسع الجغرافي أو الغزو العسكرى - ليست هي مقاييس الارتقاء أو عوامله .

هنا يُظهر المؤلف أن إضمحلال الأساليب التكنولوجي والتقلص الجغرافي بفعل الغزو العسكرى الخارجى ، ليست مقاييس الانهيارات وعواملها .

١ - البيئة المادية :

يورد المؤلف عدّة أمثلة لإظهار أن إضمحلال العمل الفنى الفذ ، ما برح نتيجة - لاسبيا - لانهيار الحضارة : ومصادقا لذلك ، كان التخلّي عن الطرق الرومانية ، وهجر نظام الرى فى العراق ؛ نتيجة - لاسبيا - لانهيار كل من الحضارتين اللتين دأبتا على الاحتفاظ بهما من قبل . وأظهر المؤلف أن تفشى الملاريا الذى يقال إنه يحدث لانهيارات الحضارات ، يعتبر نتيجة لها ، لاسبيا .

٢ - البيئة البشرية :

يناقش المؤلف هنا نظرية جييون التى تغزو « لانهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » إلى البربرية والدين (أى إلى المسيحية) ، ونجده ينقضها . فإن مظاهر البروليتاريتين الخارجية والداخلية للمجتمع الهليني ؛ كانت نتائج لانهيار المجتمع الهليني التى كانت قد اتخذت بدورها مكانها فعلا .

وعيب المؤلف على جييون أنه لا يعود لبدء حديثه إلى أزمة أقدم مما اختار . وأنه ليخطئ إذ يجعل العصر الأنطونى « عصرأ ذهبياً » بينما هو فى الحقيقة « صيف هندى » (أى صيف كاذب) .

ويستعرض المؤلف أمثلة مختلفة للعدوان الموفق ضد الحضارات ثم يُبدي أن العدوان الناجح ، يَحدث - في كل حالة - بعد الإنهيار .

٣ - قضية سلبية :

يستثير عادة العدوان ضد مجتمع ما يزال في غمار عملية الارتقاء ، هذا المجتمع ليبدل جهدا أعظم : وحتى إن كان المجتمع قد أصبح في طور الانحطاط ، فإن العدوان عليه قد يثبت فيه روح النشاط ويمنحه فترة حياة إضافية : (يضيف الملخص حاشية تفسر المعنى المستخدم في هذه الدراسة المقصود بكلمة « الإنهيار ») :

الفصل السادس عشر : إخفاق تقرير المصير

١ - آلية المحاكاة :

المحاكاة ؛ هي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بفضلها الأغلبية العاطلة عن الإبداع : اقتفاء أثر الرعاء المُبدعين ، والمحاكاة نوع من « التدريب » ، أى تقليد آلى وسطحي للأصالة الملهمة . ويمجر هذا « الطريق الأقصر » إلى الارتقاء - الذى لا مناص من سلوكه - إلى أخطار واضحة ؛ إذ قد يصبح القادة متأثرين بالروح الآلية التي تأصلت في رفاقهم ؛ فتتولد عن ذلك حضارة متعطلة . أو قد يستبدل القادة - متبرمين - مزمار الزمار ذى الثوب المخطط الذى يستخدمه فى الاستهواء ، بسوط القسر والضغط ،

هنا ؛ تتطور الأقلية المبدعة إلى أقلية « مسيطرة » ، ويغدو « المريدون » « بروتاريًا » نافرة مبعدة .

وعندما يقع هذا ، يلج المجتمع طريقا يقوده إلى التحلل . وعندئذ يفقد القدرة على تقرير المصير .

وتنمى الفقرات التالية الطرائق التى يتم بها ذلك .

٢ - نبيذ جديد في أوعية قديمة :

يجب - من الناحية المثالية - على كل طاقة اجتماعية جديدة تطلقها الأقليات المبدعة ، أن توجد نظاماً جديدة تستطيع بواسطتها أن تؤدى رسالتها ؛ ولكنها تُنجز عملها في الواقع ، باستخدام النظم القديمة في غير ما خصصت له ؛ أكثر مما تنجزه باستخدام النظم الجديدة . بيد أن كثيراً ما تدل النظم القديمة على عدم صلاحيتها وعلى رعونتها . ويستتبع ذلك ظهور إحدى نتيجتين : إما تفكك النظم ؛ أى اندلاع ثورة .

ولما بقاء النظم ، وما يستتبع ذلك من انحراف القوى الجديدة ؛ التي عن طريقها تُنجز عملها .

وقد تُعرّف الثورة بأنها فعل بطيء للمحاكاة ، يتحول بفعل ذلك إلى انفجار . فهي إذن مظهر عنيف شاذ لإخفاق نزعة المحاكاة . ويستمر الارتقاء ؛ إذا حدث وتحقق الاتفاق بين النظم والقوى ؛ وإن لم يتم الاتفاق بين النظم والقوى . وإن تمّ الاتفاق وحدثت الثورة ، يصبح الارتقاء مخفوفاً بالخطر ، وإن تولّد عنه الطابع المتسم بالعنف والشذوذ ، تسهل ملاحظة وجود الانهيار .

ويُلحق المؤلف آراءه السالفة الذكر ، بسلسلة من أمثلة عن ضغط القوى الجديدة على النظم القديمة . وتتألف المجموعة الأولى من ضغوط للقوتين الجديدتين الكبيرتين اللتين تسميان في المجتمع الغربي الحديث ، تأثير الصناعة (أى الاتجاه صوب الصناعة الآلية) على الحرب ، وبالأحرى لزيادة حدة الحرب منذ الثورة الفرنسية ،

وتأثير الديمقراطية والصناعية على نظام الدولة الإقليمية ؛ ويوضح ذلك استفحال العصبيّة القومية ، وإخفاق حركة التجارة الحرة ؛ وتأثير الصناعة على نظام الملكية الخاصة ، ويوضحه قيام الرأسمالية والشيوعية ؛ وتأثير

الديمقراطية على التربية والعلمية ، ويصوره قيام الصحافة الصفراء والدبكتاتوريات الفاشية . وتأثير الأهلية الإيطالية على حكومات البلاد الواقعة وراء جبال الألب ، ويوضحه (فيما خلا إنجلترا) انبعاث ملكيات استبدادية . وتأثير الثورة الصولونية على المدن الهلينية ، ويوضحه ظواهر ، الطغيان والحرب بين الطبقات وبسط السلطة على الغير . وتأثير العصبية الإقليمية على الكنيسة المسيحية الغربية ، وتوضحه الثورة البروتستانية وحق الملوك الإلهي وحجب الروح الوطنية للمسيحية . وتأثير الشعور بالوحدة على الدين ، ويوضحه انبعاث التعصب الديني والاضطهاد وتأثير على النظام الطبقي ، ويوضحه ما ظهر في الحضارة الهندية . وتأثير الحضارة على مبدأ تقسيم العمل ، ويوضحه تفشي النزعة الباطنية في الزعماء الذين يصبحون « إيثاريين » ، وتصيبهم الرخاوة ، وتصبح جماهيرهم مسترخية بالمثل .

ويصور المؤلف التأثير الأخير من حالات الأقليات التي أصابها النقمه ، مثال اليهود . كما تصورها انحرافات الروح الرياضية الحديثة .

ويتهى المؤلف أخيراً إلى بحث تأثير الحضارة على نزعة المحاكاة . وهذا ما يبدو في توقف المجتمعات البدائية عن التوجه صوب تقاليد القبيلة ، وإنصرافها إلى محاكاة الرواد . وغالباً ما لا يكون الرواد المختارين للمحاكاة زعماء مبدعين ، ولكن مستغلين تجاريين ، أو قادة جماهير .

٣ - آفة الإبداع : عبادة الذات الفانية :

يُظهر التاريخ ؛ أن الجماعة التي تستجيب بنجاح إلى تحدٍّ واحد ، نادراً ما تستجيب بنجاح إلى التحدي التالي .

ويعرض المؤلف أمثلة مختلفة ، يظهر فيها إتفاق هذه الظاهرة مع قضايا أساسية مسلم بها في معطيات اليونانية والمصرية على السواء .

فإن أولئك الذين يُقضى لهم التوفيق ذات مرة ، نزاعون في الفرصة

التالية إلى « الاستلقاء على مجاذيفهم » . ومصادقا لذلك ، نجد اليهود بعد ما استجابوا للتحديات الواردة في العهد القديم ، ينهزمون أمام التحدى الذى أبرزه العهد الجديد . ونجد أثينا أيام بركليس ، تتضاءل إلى أثينا إبان عصر القديس بولص . ونجد فى عصر الإحياء أن المراكز التى استجابت للنهضة تدل على قصورها ، فكان أن استأثرت بالزعامة بيد مونت التى لم يكن لها دور فى أمجاد إيطاليا القديمة .

ولقد كانت كارولينا الجنوبية وفرجينيا ، ولايتين رئيسيتين للولايات المتحدة الأمريكية إبان الربعين الأول والثانى من القرن التاسع عشر ، لكنها أخفقتا بعد الحرب الأهلية ، فى استعادة مركزهما ، بالمقارنة بكارولينا الشمالية التى كانت مغمورة من قبل .

٤ - آفة الإبداع : عبادة النظام الفانى :

دلّت عبادة نظام المدينة فى المراحل الأخيرة للتاريخ الهلنى ، على أنه شَرَك تردى فيه اليونانيون : بينما نجا منه الرومان .

ولقد تسبب قيام « شبح » للإمبراطورية الرومانية ، فى انهيار مجتمع المسيحية الأرثوذكسية .

ويسوق المؤلف كذلك تفسيرات للتأثيرات المعوقة لعبادة الملوك ، والمجالس النيابية والطوائف الحاكمة ، سواء أكانت بيروقراطية أو نظام قساوسة .

٥ - آفة الإبداع : عبادة أسلوب فنى :

تُبْدَى التفسيرات الخاصة بالتطور البيولوجى أن « الأسلوب الفنى » الكامل أو التكيف المكتمل لبيئة ما ، غالبا ما يدل على أنه طريق تطورى مغلق ، وأن الكائنات الأكثر « تجريبية » تبرهن على طاقتها الحيوية . مثال ذلك أن البرمائيات ، إذا ما قورنت بالأسماك تعتبر أنجح ، وأن أسلاف

الإنسان الشبيهة بالفأر إذا ما قورنت بمعاصمها ، الزواحف الهائلة ، تعتبر هى أيضاً أنجح .

ونجد فى المجال الصناعى ، أن نجاح جماعة معينة فى المراحل الأولى لأسلوب فنى جديد (مثال ذلك اختراع الدولاب البخارى) ؛ يجعل تلك الجماعة أبطأ من غيرها فى استخدام المراحل اللاحقة .

ويُظهر استعراض قصير لتاريخ فن الحرب من أيام داود وجالوت الوقت الحاضر ، أن المخترعين والمتفيعين من إبتكار واحد ، يشجعون فى كل مرحلة فى « الاستلقاء على مجاذيفهم » . ويدعون الابتكار التالى لأعدائهم .

٦ - انتحارية النزعة الحربية :

قدمت الفقرات الثلاث السابقة ، تفسيرات لعبارة « استلقاء المرء على مجاذيفه » التى تعتبر الطريقة السلبية للإستسلام إلى آفة الإبداع . وإننا ننقل الآن إلى الشكل الإيجابى . للانحراف الذى عبرت عنه صيغة يونانية تعنى : التخمة ، السلوك الأحمق ، الدمار . وتعتبر النزعة الحربية مثالا واضحا . ولم يكن السبب الذى دعا الآشوريين إلى استجلاب الخراب على أنفسهم ، كونهم - مثل المتصربين الذين استعرضناهم فى نهاية الفصل السابق - قد تركوا حراهم يعلوها الصدا . فإنهم من الوجهة العسكرية كانوا دائماً أكفاء مبرزين فى فنهم . إن الدمار قد حل بهم ، لأن عدوانهم قد استفد طاقاتهم ، كما أن عدوانهم جعل جيرانهم لا يطيقون احتمالهم . ويعتبر الآشوريون مثالا للمقاطعة الحربية على الحدود التى توجه سلاحها ضد المقاطعات الداخلية لمجتمعها .

ويبحث المؤلف كذلك ، الحالات المماثلة للفرنجية الاستراسيين ولتيمورلنك كما يذكر غير ذلك من الأمثلة .

٧ - مسكرة النصر :

يوضح المؤلف فى المجال الغير الحربى ، مبحثا مشابها لذلك المبحث

الوارد في الفقرة السابقة ، بإيراد مثال بابوية هيلدبراند ؛ وهي نظام فشل بعد ما رفع مركزه ومركز المسيحية من الأعماق إلى القمة ؛ ويعزى فشله إلى انتشائه بنجاحه الذاتي . فكان أن حاول استخدام الأسلحة السياسية في صورة غير شرعية ، جريا وراء غايات جاوزت الحد ؛

ويبحث المؤلف من هذه الزاوية الخلاف الذي ثار حول تدخل الأمراء في إقامة رجال الدين في مناصبهم .

الباب الخامس

تحلل احضارات

الفصل السابع عشر : طبيعة التحلل

١ - عرض عام :

هل التحلل ضروري ، ونتيجة لإنهيار لا محيص عنها ؟
يظهر التاريخ المصري وتاريخ الشرق الأقصى ، أن ثمة بديلا أطلقنا عليه اسم :

التحجّر ، وإلى التحجّر يعزى ما آلت إليه الحضارة الهلينية . وقد يكون التحجّر عُنُقِي الحضارة الغربية .

إن ميزان التحلل البارز ؛ هو انقسام الجسم الاجتماعي إلى كسور ثلاثة : أقلية مُسيطرَة .

وبروليتاريا داخلية .

وهنا يلخص المؤلف ما سبق قوله شأن هذه الكسور ، ويشير إلى منهاج الفصول التالية ؛

٢ - الإشفاق ورجعى الميلاد :

تجهر فلسفة كارل ماركس المهمة ، بأنه سيتلو الحرب الطبقيّة - بعد ديكتاتورية البروليتاريا - نظام للمجتمع جديد .
وبصرف النظر عن التطبيق الخاص لفكرة كارل ماركس ، فإن هذا هو ما يحدث فعلا وقما يتردّى مجتمع ، فى إشفاق سبقت لنا ملاحظته ذى ثلاثة مظاهر . وينجز كل كسر عملا لإنعاش متميزا :
تُنجز الأقلية المسيطرة ، دولة عالمية .
وتُحقّق البروليتاريا الداخلية ، عقدة دينية عالمية .
وتُنشئ البروليتاريا الخارجية عمليات حربية بوبرية .

الفصل الثامن عشر - الإشفاق فى الجسم الاجتماعى

١ - الأقليات المسيطرة :

على الرغم من أن الحربين والمستغلين ، هم - كما هو معروف - من بين الأنواع المميزة فى الأقليات المسيطرة ، فإن ثمة كذلك أنواعاً أخرى أكثر نبلا : المشترعون ورجال الإدارة ، وهم ينددون عن الدولة العالمية ، وثمة الباحثون الفلاسفة الذين يَتَّبِعُونَ المجتمعات إبان إضمحلها ، المذاهب الفلسفية المميزة .

وتطالعنا فى هذا الصدد ، السلسلة الطويلة من الفلاسفة الهلنيين من سقراط إلى أفلاطون .

ويورد المؤلف أمثلة من مخف الحضارات الأخرى .

٢ - البروليتاريا الداخلية :

يُبْدَى تاريخ المجتمع الهلنى ، وجود بروليتاريا داخلية تكوّنت من ثلاثة مصادر :

مواطنو الدول الهلنيزية الذين ترمتهم من ميراثهم ، الثورات السياسية والاقتصادية وجلبت عليهم الحرب .

والشعوب التي أخضعت .

وضحايا مجارة الرق .

ويشارك جميعهم في كونهم بروليتاريين من ناحية شعورهم وأنهم « في » مجتمع ، لكنهم ليسوا من هذا المجتمع . وكان العنف هو أول ردود الفعل التي أظهروها .

لكن تلا ذلك إنبعث ردود فعل « ودیعة » تُوِّجت بكشف « العقائد الدينية العليا » مثل المسيحية . ولقد إنبعثت المسيحية — مثلما انبعثت الميثرية وغيرها من العقائد المنافسة لها في العالم الهليني — في مجتمع أو آخر من المجتمعات « المتحضرة » الأخرى التي أخضعتها الجيوش الهلينية .

ثم يبحث المؤلف البروليتاريات للمجتمعات الأخرى ، ويلاحظ ظواهر مشابهة بمعنى : تشابه أصول اليهودية والزرادشتية في البروليتاريات الداخلية للمجتمع البابلي ، مع أصول المسيحية والميثرية في المجتمع الهليني ؛ وإن اختلف فيما بعد تطور تلك العقائد الدينية لأسباب يذكرها المؤلف .

ولقد كان تحول الفلسفة البوذية البدائية إلى العقيدة الماهايانية ، مما زود البروليتاريا الداخلية الصينية بدين « أعلى »

٣ — البروليتاريا الداخلية للعالم الغربي :

يتيسر لإيراد شواهد وفيرة عن وجود بروليتاريا داخلية في المجتمع الغربي ؛ يدل عليها — إلى جانب أشياء أخرى — وجود طبقة مثقفة عبئت من البروليتاريا ، وأصبحت وسيطا للأقلية المسيطرة .

على أن البروليتاريا الداخلية للمجتمع الغربي الحديث ، ما برحت — مع ذلك — تنبئ عن عظم ملحوظ بالنسبة لإنجاب « أديان عليا » جديدة ؛ ويفسر سبب ذلك ، بالحياة المستمرة للكنيسة المسيحية التي خرجت منها الحضارة المسيحية الغربية .

٤ - البروليتاريات الخارجية :

١ ما دامت الحضارة في طور إرتقائها ، يتألق تأثيرها الثقافي صوب جيرانها البدائيين ، وتنفذ إلى مسافات شاسعة ؛ يغدو هؤلاء الجيران البدائيون ، جزءاً من « الأغلبية العاطلة عن الإبداع » التي تتبع قيادة الأقلية المبدعة . ولكن عندما تنهار الحضارة ؛ يبطل فعل فتوتونها ، فيصبح البرابرة معادين لها . ويقوم خط حدود قد ينتقل موعلاً في الابتعاد ، لكنه يستقر في النهاية في مكان واحد . فإذا ما وصلت الحال هذه المرحلة ، يغدو الوقت في جانب البرابرة .

ويستخدم المؤلف التاريخ الهليني لتعزيز رأيه : ويشير إلى ما ترتب عن ضغط حضارة معادية ؛ من تحليل العقائد الدينية البدائية للبروليتاريا الخارجية - وهي عقائد تقوم في الأصل على فكرة الخصوبة - إلى أديان من نوع عصابة الحرب الأوليمبية الإلهية .

ويعتبر شعر الملاحم ، أبرز إنتاج البروليتاريات الخارجية .

٥ - البروليتاريات الخارجية للعالم الغربي :

يستعرض المؤلف تواريخ البروليتاريات الخارجية للعالم الغربي ، ويوضح ردود فعلها العنيفة والودعة . ويرد لإختفاء البربرية من النوع التاريخي من العالم الغربي تقريباً ، إلى الكفاية المادية الساحقة للجمتمع الغربي . ومع ذلك فإن بربرية أفضع قسوة ، قد انتشرت في المراكز القديمة للمسيحية الغربية نفسها .

٦ - مصار الإلهام الوطنية والأجنبية :

تواجه الأقليات المسيطرة والبروليتاريات الخارجية عراقيل مختلفة وقما تستقى إلهامها من مصدر أجنبي عنها . مثال ذلك الدول العالمية التي تؤسسها

أقليات مسيطرة أجنبية (مثل الهند أيام خضوعها للبريطانيين) ، وهذه الدول أقل توفيقاً في اجتذاب رعاياها إليها ؛ عكس الدول العالمية الوطنية مثل الإمبراطورية الرومانية . وتستثير عصابات الحرب البربرية مقاومة أشد عناداً وأعظم حماساً ، إن كانت نزعتها البربرية — مثل الهكسوس في مصر أو المغول في الصين — مصطبغة بتأثير حضارة أجنبية :

ومن الناحية الأخرى تدين بصفة عامة الأديان العليا — التي تُنَجِّبها البروليتاريات الداخلية — بجاذبيتها ، إلى إلهام أجنبي المصدر ، وتبرهن على هذه الحقيقة ، جميع « الأديان العليا » تقريباً .

وتُبْدَى الحقيقة القائلة بعدم إمكان استيعاب تاريخ « الدين الأعلى » إلا بدراسة حضارتين : الحضارة التي استمد منها إلهامه والحضارة التي تأصلت فيها جذوره ؛ تَبْدَى أن الفرض الذي قامت على أساسه هذه الدراسة — (أى الفرض القائل بأن الحضارات إن أخذت بمفردها هي ميادين واضحة للدراسة) — فرض ينهار عند هذه النقطة .

الفصل التاسع عشر — الانشقاق داخل الروح

١ — طرائق بديلة في السلوك والشعور والحياة :

عندما يبدأ مجتمع في التحلل ، يحل محل الطرائق المختلفة للسلوك والشعور والحياة — ويتميز بها الأفراد خلال مرحلة الارتقاء — مجالات إختيار أخرى ، إحسدهما (المذكورة أولاً في كل زوج) سلبى ، والآخر (الأخير) إيجابى .

ويعتبر « التراخى » و « ضبط النفس » مجالى الاختيار البديلين للإبداعية . ويعتبر « الشرود » و « الاستشهاد » مجالى الاختيار اللبديين لاتباع « المحاكاة » . وإن الشعور بالانسياق والشعور بالخطيئة ، هما مجالالا الاختيار البديلين للابتداع الحيوى الذى يصاحب الارتقاء . وإن الشعور بالابتذال والشعور

بالاتحاد ، هما مجالالا الاختيار البديلين للشعور به « أناقة الأسلوب » الذى يُعتبر بدوره الصفة الذاتية المقابلة للعملية الموضوعية للمايز ، وهى عملية تصاحب الارتقاء .

ويوجد على سطح الحياة ، زوجان بديلان من التغيرات على الحركة المتجهة نحو تحويل ميدان الحركة من الكون إلى الإنسان . ويضم ذلك بين ثناياه عملية سبق أن وصفناها بـ « الأثرة » .

ويعجز الزوج الأول من البديلين - أى السلفية والمستقبلية - عن إنجاز هذا التحول ، ومن ثم يولدان العنف .

أما عن الزوج الثانى - أى الاعتزال والتجلى - فإنه يوفق فى إنجاز التحويل . ويتسم بالدعة :

وتسعى السلفية إلى « إرجاع الساعة إلى الوراء » . أما المستقبلية ، فإنها محاولة لسلوك طريق قصير لتحقيق عالم على الأرض يستحيل تحقيقه عمليا . أما الاعتزال - وهو الارتقاء الروحى للسلفية - فإنه هجران عالم الحياة . أما التجلى - وهو الارتقاء الروحى للمستقبلية - فإنه فعل تقوم به النفس التى تُنجب « الأديان العليا » .

ويورد المؤلف أمثلة لجميع طرائق الحياة الأربع ويبين علاقات بعضها ببعض الآخر .

وأخيراً ، يظهر المؤلف أن بعضاً من طرائق الشعور هذه ، هو - أساساً - مظهر مميز للنفوس فى الأقاليات المسيطرة .

ويعترف المؤلف التراخى وضبط النفس ويورد الأمثلة .

ويعرف المؤلف الشرود والاستشهاد ويورد أمثلة .

٤ - الشعور بالانسياق والشعور بالخطيئة :

يقود الشعور بالانسياق إلى إحساس بأن العالم بأسره تحكمه « المصادفة

أو الضرورة « ويدل المؤلف على تماثل الكلمتين . ويفسر مجال الإيمان المتسع الأرجاء ، ويبدأ أن طائفة من العقائد الدينية القائلة بالجبر — مثل مذهب كالفين — تنسم بتوليدها طاقة وجراة أخاذتين . ويبحث المؤلف تلك الحقيقة التي تبدو غريبة لأول وهلة .

وبينما يعمل الشعور بالانسياق عادة مُسكِّنا ، فإن الشعور بالخطيئة ينبغي أن يعمل حافزا .

ويبحث المؤلف مذهبي « الكارما » و « الخطيئة الأصلية » (التي تجمع بين فكرتي الخطيئة والحتمية) . وفي المثال التقليدي للاعتقاد بأن الخطيئة هي العلة الحقيقية — وإن لم تكن الظاهرة — للكوارث القومية ، أخذت الكنيسة المسيحية بتعاليم أنبياء اليهود هذه ، وطفقت طوال قرون عدة تقدمها للعالم الهليني الذي كان يعد نفسه — قرونا كثيرة — لقبولها ، دون أن يشعر .

وإنه وإن كان المجتمع الغربي قد ورث التقليد المسيحي ، لكن لعله أصبح ينزع إلى نهذ مسألة الشعور بالخطيئة ، وهو جانب جوهرى من هذا التقليد .

٥ — الشعور بالابتذال :

يعتبر هذا بديلا للشعور بـ « أناقة الأسلوب » الذي هو سمة الحضارة . في سياق ارتقائها . ويتبدى في طرائق مختلفة :

(أ) السوقية والبربرية في طرائق السلوك — فإن الأقلية المسيطرة تُظهر نفسها مكبّة على « الاتجاه البروليتارى » متخذة سوقية البروليتاريا الداخلية ، وبربرية البروليتاريا الخارجية ؛ إلى أن يحدث في المرحلة النهائية للتحلل ، أن تُصبح طريقة حياة الأقلية المسيطرة ، لا يمكن تمييزها عن طريق حياة البروليتاريين .

(ب) السوقية والبربرية في الفن — هو الثمن الذي يؤدي في العادة للاستفادة الواسعة الخارقة للعادة ، لفن حضارة متحللة .

(ح) اللغات العامة — يقود إمتزاج الشعوب إلى البلبلة والمنافسة المتبادلة بين اللغات ؛ وينتشر كلغات . ويسبب انتشارها ، حدوث إنحطاط يقابل درجة إنتشارها . ويورد المؤلف أمثلة وتفسيرات عدة .

(د) التركيب في الأديان — يميز في هذا الشأن ثلاث حركات هي :

١ - إندماج المدارس الفلسفية .

٢ - إندماج العقائد الدينية المنفصلة (مثال ذلك تخفيف مذاق دين إسرائيل بمزجه بالعقائد المجاورة . وهي حركة عارضها الأنبياء العبرانيون معارضة قبض لها النجاح في النهاية) .

٣ - إمتزاج أو التركيب بين المذاهب الفلسفية والعقائد الدينية وبعضها بعضا .

ولما كانت المذاهب الفلسفية ، نتاج أقليات مهيمنة ، والأديان العليا هي نتاج البروليتاريات الداخلية ؛ فإن التفاعل هنا شبيه بما ورد في الفقرة (أ) . ويظهر هنا — مثلما ظهر هناك — أنه رغمًا عن أن البروليتاريين يتحركون بعض الشيء نحو الأقلية المسيطرة ، يتحرك الأقلية المسيطرة مقداراً أكبر كثيراً نحو موقف البروليتاريا الداخلية . ومن قبل المثال : أن الدين المسيحي يستخدم أداة الفلسفة الهلينية في تأويلاته اللاهوتية . بيد إن هذا يعتبر ترخصاً صغيراً ، إن قورن بالتحول الذي طرأ على الفلسفة اليونانية في غضون الفترة بين عصرى أفلاطون ويوليان .

(هـ) الأمير يعين الدين — هذا البحث جاء إستطرادا لبحث موضوع

الإمبراطور الفيلسوف يوليان الذي أشير إليه في الموضوع السابق

فهل في وسع الأقليات المسيطرة أن تعالج ضعفها الروحاني ، باستخدام السلطة السياسية لفرض الدين أو الفلسفة التي تختارها ؟

مناطق الإجابة ؛ أن الأقليات المسيطرة تفشل في هذا السبيل ، ما خلا حالات استثنائية . فإن الدين الذي ينشد تأييد القوة ، يصيب نفسه بهذا العمل بضرر بالغ ؛ والاستثناء الوحيد الملفت للنظر ، إنتشار الإسلام . ولكن يدل تعمق البحث هنا أيضاً على معنى الاستثناء في حالة إنتشار الإسلام من هذه القاعدة .

ولعل الصيغة المضادة وهي « دين الشعب دين الأمير » أقرب للحق ؛ فإن حدث أن اعتنق الحاكم — سواء بدافع الاستخفاف أو الإيمان — عقيدة أتباعه الدينية ، فإن الإجراء يقود إلى توطيد ملكه .

٦ — الشعور بالاتحاد :

هذا هو « مضاد » إيجابي الطابع للشعور بالابتدال السلبي الطابع . ويعبر الشعور بالاتحاد عن نفسه في صورة مادية ، في إيجاد الدول العالمية . ويلهم الشعور بالاتحاد ، إدراكاً يسود كل شيء وإدراكاً بوجود إله حاضر في كل مكان محيط بكل شيء متسلط على العالم .

ويبحث المؤلف هذه الآراء ويفسرها .

ويعرض المؤلف في سياق موضوع الكائن الإلهي الكلي الوجود ، إلى سيرة « يهوى » إله العبرانيين « الغيور » ، منذ بداية ظهوره جنيئاً في بركان من براكين سيناء ، إلى إرتفاع شأنه في نهاية المطاف ، واعتباره الحامل التاريخي لفكرة — صافية متدرجة — عن « الإله الواحد الحق » الذي تعبده الكنيسة المسيحية .

ويقدم المؤلف تفسيراً لانتصار « يهوى » على جميع منافسيه ،

٧ - السلفية :

هى محاولة للفرار من حاضر لا يمكن احتماله ، عن طريق إعادة تشييد مرحلة سابقة من تاريخ حياة مجتمع متحلل .

ويقدم المؤلف أمثلة قديمة وحديثة . وتشتمل الحديثة على إحياء النزعة القوطية ؛ والإحياء الاصطناعى للغات إنقرضت كلياً أو جزئياً لأسباب تتصل بإحياء الروح القومية .

ونخلص المؤلف إلى القول بأن الحركات التى تنزع صوب السلفية ، هى فى الغالب إما عقيمة أو تستحيل إلى نقيضها ، أى إلى « مستقبلية » .

٨ - المستقبلية :

هى محاولة للفرار من الحاضر ، بالقفز إلى ظلمة مستقبل مجهول . وتقتضى نحو الروابط التقليدية مع الماضى ، فهى فى الواقع نزعة ثورية . وتعبّر عن نفسها فى الفن ، فى نزعة تحطيم المقدسات .

٩ - التسامى الذاتى للمستقبلية :

إذا كانت السلفية تتردى فى هوة المستقبلية ، فإن المستقبلية قد تصعد إلى قمم التجلى . وبعبارة أخرى ؛ تنبذُ المستقبلية المحاولة اليائسة للعثور على مجتمعا المثالى فى المجال الدنيوى ، وقد تنشده فى الحياة الروحية ؛ دون أن يعوّقها الزمان والمكان .

ويبحث المؤلف فى هذا الشأن ، تاريخ اليهود بعد الأسر البابلى . وقد عثرت المستقبلية على ذاتها فى سلسلة من المحاولات الانتحارية لإيجاد إمبراطورية يهودية على الأرض . محاولات بدأت منذ أيام زروبابل حتى باركوباك ، وانتهت أخيراً باعتراف فكرة التجلى التى تقوم عليها العقيدة الدينية المسيحية .

١٠ - الاعتزال والتجلى :

يعنى الاعتزال ، إتخاذ موقف يجد أصلب وأسمى تعبير عنه ، فى تعاليم البوذا : إن نتيجتها المنطقية هى الانتحار . ذلك لأن الاعتزال العام ممكن للإله وحده . أما الدين المسيحى فإنه ينادى بإله نبيذ مختارا إعترالا كان منه الواضح أنه يستطيع أن يستمتع به لو شاء . وهذا الإله « يحب للعالم كثيرا » :

١١ - جدّة المولد :

إن التجلى - من طرائف الحياة الأربع التى بحثت هنا - يُعتبر الطريقة الوحيدة التى تُهَيِّئ طريقا ، صلا لسالكيه . ويتم بفضل نقله ميدان الفعل من الكون الأكبر (أى الله) إلى الكون الأصغر (أى الإنسان) . ويصدق هذا بالمثل على الاعتزال . مع فارق أنه بينما الاعتزال لا يعتبر إلا حركة إنسحاب فحسب ، فإن التجلى حركة انسحاب وعودة ، هى جدّة المولد :

لكن جدّة المولد هنا لا تعنى إعادة ميلاد مثال آخر لنوع قديم ، لكنه يعنى ميلاد مجتمع من نوع جديد .

الفصل العشرون - العلاقة بين المجتمعات المتحللة والأفراد

١ - العبقرى المبدع مخلصا :

يتزعم أفراد مبدعون فى مرحلة الارتقاء ، إستجابات ناجحة لتحديات متعاقبة ، ويظهرون فى مرحلة المتحللة مخلصين للمجتمع المتحلل أو مخلصين منه :

٢ - المخلص المتشوق حساما :

هم مؤسسو الدول العالمية ومعاضدوها ، لكن جميع أعمال السيف فانية ،

٣- المخلص صاحب آلة الزمان :

هم أصحاب نزعتي السلفية والمستقبلية : ويلجأون إلى السيف كذلك :
ويلاقون مصير ممتشق السيف .

٤- الفيلسوف في قناع ملك :

هو علاج أفلاطون المشهور . وبصبيته الإخفاق من جراء التناقض بين
إعترال الفيلسوف ، وطرائق القهر التي يستخدمها الزعماء للسياسيون .

٥- الإله المتجسد في إنسان :

يبين المؤلف كيف تختلق المحاولات الناقصة ، وينتصر يسوع الناصري
وحده على الموت :

الفصل الحادى والعشرون - إيقاع التحلل

يمضى التحلل قدماً ، لا بصورة متجانسة - ولكن بفعل تعاقب -
كسرات ونهضات .
ومن قبيل المثال :

يعتبر إنشاء الدولة العالمية ، نهضة بعد الكسرة التي حدثت في عصر
اضطرابات : ويعتبر تفكك الدولة العالمية كسرة نهائية . ولما كان يوجد عادة
نهضة تعقبها كسرة في سياق عصر اضطرابات ، كذلك توجد كسرة تعقبها
نهضة في تاريخ دولة عالمية . فيبدو أن الإيقاع المألوف هو : كسرة - نهضة -
كسرة - نهضة - كسرة - نهضة - كسرة ، أى ثلاث دقات ونصف دقة .
ويصور هذا النمط في تواريخ مختلف المجتمعات المدرسة ، ثم يطبق
على تاريخ مجتمع المسيحية الغربية من زاوية تحقيق مرحلة النمو التي بلغها
هذا المجتمع :

الفصل الثانى والعشرون - توحيد المقاييس

إذا كان التمايز هو ممة الارتقاء ، فإن توحيد المقاييس هو علامة التحلل ؛
ويختتم المؤلف بحثه بالإشارة إلى المشكلات التى يترك بحثها للأجزاء الآتية
من الدراسة .

الباب السادس

الدول العالمية

الفصل الثالث والعشرون - غايات أم ذرائع

يلخص المؤلف نهج الكتاب حتى النقطة الحالية ، ثم يورد الدوافع التى
تدعوه إلى المضى فى البحث - فى أجزاء متتابعة - فى موضوع الدول
العالمية ، والأديان العالمية ، وعصابات الحرب من المتبريرين ؛
فهل يُنظر إلى الدول العالمية على أنها المراحل النهائية للحضارات ، أم
على أنها مقدمات لمراحل ارتقاء تالية ؟

الفصل الرابع والعشرون - سراب الجلود

لا يرحب مواطنو الدول العالمية - فى معظم الأحيان - بإقامتها فحسب ،
ولكنهم يؤمنون بخلود هذه الدول : ويظنون عاكفين على اعتقادهم هذا ،
ليس فقط حين يتضح أن الدول العالمية تُشرف على الانهيار ، بل يستمر
إعتقادهم حتى بعد زوالها . ويترتب على هذا ، عودة نظام الدولة العالمية
إلى الظهور كـ « شبح » للدولة العالمية الأصيلية : ويظالمننا - من قبيل المثال -
ظهور الدولة الرومانية المقدسة فى المجتمع الذى تبنته المسيحية ، شبحاً
للإمبراطورية الرومانية فى العالم اليونانى - الرومانى ؛

وقد نجد تفسيراً لذلك في الحقيقة للقائلة بأن الدولة العالمية تقف داعية للتجمع بعد فترة من الاضطرابات :

الفصل الخامس والعشرون - وهكذا تكلف لغيرك

تُبنى نظم الدولة العالمية بالفشل - على طول المدى - في الاحتفاظ ببقائها . لكنها - في الوقت نفسه - تخدم أغراض نظم أخرى ، وبصفة خاصة ما اتصل منها بالأديان العليا للبروليتاريات الداخلية .

١ - قدرة الدول على التوصيل :

تتيح الدول العالمية - بفضل فرضها النظام والتجانس - وسيلة للتوصيل الجيد ، ليس فقط من الناحية الجغرافية بين الأجزاء التي كانت فيما مضى دولا إقليمية منفصلة ولكن - من الناحية الاجتماعية - بين طبقات المجتمع المختلفة .

٢ - سيكولوجية السلام :

إن التسامح الذي يراه حكام الدول العالمية أمرا لازما للمحافظة على كيانهم ، يشجع على انتشار الأديان العليا . وهذا ما تصوره الفكرة الشائعة (التي عبر عنها ملتون في أنشودته عن عيد الميلاد) القائلة بأن الإمبراطورية الرومانية قد أرسلتها العناية الإلهية لصالح الكنيسة المسيحية ؛ على أن مثل هذا التسامح ليس عالميا أو مطلقا . وفضلا عن ذلك فإن هذا التسامح نفسه - في صورة نزعة مناهضة للعسكرية - سيثبت أنه في صالح المعتدين الدخلاء ؛ سواء أكانوا برابرة ؛ أو أصحاب حضارات مجاورة .

٣ - صلاحية النظم الإمبراطورية للعمل :

(١) المواصلات :

تخدم الطرق البرية والمسالك البحرية وصيانتها بانتظام . الناس

خدماتها لأغراض الحكومة : مثال ذلك أن القديس بولص قد استخدم الطرق الرومانية في أداء رسالته .

فهل ستستفيد الأديان العليا في الوقت الحاضر من نظام المواصلات العالمى الواسع النطاق الذى يهيئه الأسلوب التكنولوجى الحديث ؟

إن تم ذلك ؛ فإن الأديان العليا ستجابه مشكلات يمكن توضيحها من خلال استعراض تاريخ البعثات المسيحية التبشيرية فى العوالم الغير المسيحية فى عصور سابقة .

(ب) الحاميات العسكرية والمستعمرات :

تخدم غايات الحضارة مثلما تخدم غايات الحكومة . بل إنها تساهم كذلك فى التجويل البروليتارى الذى يميز المجتمعات المتحللة .

ومن الواضح أن عصابات الحرب من المتبررين هم أكثر المستفيدين من ذلك : ولكن الديانات العليا ، تستفيد هى الأخرى . ويسوق المؤلف أمثلة لتعزيز رأيه من إنتشار الإسلام . كما انتشرت عبادة ميترا ، من حامية إلى أخرى على طول حدود الإمبراطورية الرومانية . وانتشرت المسيحية من مستعمرة إلى أخرى : ومن قبيل المثال ، أهمية مستعمرى كورنث وليون — وكلتاها أنشأتها الحكومة الرومانية — فى تاريخ الكنيسة المسيحية فى عصورها الأولى .

(ج) الأقاليم :

يستخرج المؤلف سياسات متناقضة من تاريخ الدولة العالمية الصينية ، كما يستخلص من إنتشار العقيدة المسيحية ، أمثلة لحدوى استخدام الديانات العليا للتنظيم الإقليمى .

(د) الأمصار :

تؤثر عوامل مختلفة فى تحديد موقعها : وقد ثبت أن العاصمة الأصلية

التي أقامها الغزاة الذين أنشأوا الدولة العالمية ، غير صالحة دوماً للغاية من إنشائها .

ويسوق المؤلف عرضاً للعواصم وانتقالاتها . وتظل بعض العواصم التي فقدت أهميتها السياسية ، محتفظة بذكرها كمراكز للديانات .

(هـ) اللغات الرسمية والكتابات الخطية :

يبين المؤلف المشكلات التي تواجه حكام الدول العالمية في اختيار اللغات الرسمية ، ومختلف الحلول التي يوفقون إليها . ويذكر أن تداول بعض اللغات — مثل الآرامية واللاتينية — قد جاوز كثيراً في الزمان والمكان ، اتساعاً أبعد مدى ، من حدود الإمبراطوريات التي انتشرت فيها أولاً .

(و) القانون :

هنا كذلك يختلف حكام الدول العالمية كثيراً — أحدهما عن الآخر — في المدى الذي ذهبوا إليه في فرض نظمهم الخاصة على رعاياهم . وقد طبقت أنظمة قانونية لدول ، على طوائف لم تشرع لها هذه الأنظمة . مثال ذلك : استخدام المسلمين القانون الروماني ، وانتفاع الكنيسة المسيحية به ، واقتباس مؤلفي شريعة موسى من قوانين حمورابي .

(ز) التقويم والموازين والمقاييس والنقود :

يبين المؤلف مشكلات تعيين التقويم ، والارتباط الشديد بين التقاويم والدين . ويذكر أن الطرائق المستخدمة في الوقت الحاضر لحساب الزمن ، ما يزال بعضها من مخلفات الرومان أو السومريين . ثم يقرر أن الثورة الفرنسية قد فشلت في الاستغناء عنها .

ويوضح المؤلف بالنسبة للموازين والمقاييس ، المعركة بين النظام العشري والاثني عشري . ويبين — بالنسبة للنقود — أهميتها وأساسها في المدن اليونانية ،

ثم انتشارها بفضل دخول هذه المدن في نطاق الإمبراطوريتين اللبديّة والأكيميّة . ثم يتناول ، بالبحث النقود الورقية في العالم الصيني :

(ح) الجيوش القائمة :

يعتبر المؤلف الجيش الروماني ، مصدر إلهام للكنيسة المسيحية :

(ط) الإدارة الحكومية :

يوضح المؤلف مشكلات الإدارة الحكومية ، بعقد مقارنة بين سياسة كل من أغسطس وبطرس الأكبر ، والحكم البريطاني في الهند . ثم يوضح طابع الإدارة الحكومية في كل من الصين ، والهند تحت الحكم البريطاني : ثم يذكر مدى تأثير الإدارة الرومانية الحكومية في إعداد ثلاثة من كبار مؤسسي المسيحية الغربية .

(ي) المواطنة :

يعتبر توسيع حقوق المواطنين ميزة يُضيفها حكام الدول العالمية على رعاياهم . وتعاون على خلق جو من المساواة ، تزدهر في ظلّه الأديان العليا :

الباب السابع

الأديان العليا

الفصل السادس والعشرون - أفكار بديلة للعلاقات

بين الأديان العالمية والحضارات

١ - الأديان باعتبارها سرطانات :

طالما أن العقائد الدينية تنمو في الكيانات الاجتماعية المتداعية للدول

العالمية ، فطبيعى أن ينظر إليها كسرطانات ، سواء من جانب المعارضين لها من المعاصرين ، أو من جانب مدرسة من المؤرخين المحدثين : ويسوق المؤلف أدلة على خطأ هذا الرأى . ومن رأيه أن الأديان تميل إلى إنعاش الشعور بالواجب الاجتماعى فى مريدتها أكثر من اتجاهها إلى حطمه :

٢ - الأديان باعتبارها يفعات :

إن لكل من حضارات الجليل الثالث التى ما تزال قائمة فى الوقت الحاضر ، عقيدة دينية تعتبر قوام تلك الحضارة : وعن طريق الدين ، تتصل الحضارة بصلة النسب ، بحضارة أخرى من حضارات الجليل الثانى : ويحلل المؤلف ما تدين به الحضارة الغربية الحديثة للعقيدة المسيحية ، وعلى العكس من ذلك ؛ تنتسب حضارات الجليل الثانى إلى الحضارات السابقة عليها ، بروابط أخرى : ويرى المؤلف أن هذه الحقيقة توحى بإعادة النظر فى الخطة التى سلّم بها فى سياق التاريخ ، حتى الآن .

٣ - الأديان باعتبارها أنواعا سامية من المجتمع :

(١) تصنيف جديد :

يقرر المؤلف قيام الحضارات وسقوطها ، بدورات عجلة دولاب ، تدفع عربة الدين إلى الأمام : ويعرض المؤلف خطوات التقدم الدينى ماثلة فى أسماء : إبراهيم وموسى والأنبياء العبرانيين والمسيح : ويعتبر كل منهم - على التوالى - ثمرة لتحلل المجتمعات : السومرية والمصرية والبابلية والهلينزية :

فهل يتيح توحيد عالم اليوم ، الأمل فى تقدم أسمى ؟

فإن كان الأمر كذلك ، تعين على الأديان العليا أن تتعلم دروسا صعبة ،

(ب) مغزى ماضى الأديان :

يسلم المؤلف بأن تاريخ الأديان العليا - حتى اليوم - يلوح أنه لا يهيئها للدور الذى يرسمه المؤلف فى دراسته .

(ج) الصراع بين القلب والعقل :

إن ضغط العلم الحديث على الدين ، لم يكن الصراع الأول من نوعه ، فإن الصراع بين المسيحية الأولى والفلسفة الهلينية ، قد انتهى بإيجاد حل وسط يوفق بينهما ، وارتضى الفلاسفة بمقتضاه « حقيقة » الوحي المسيحى ، على شريطة أن يُسَرَّبِل ذلك الوحي نفسه بلغة للفلسفة . ولقد أصبحت هذه السرايل الهلينية البالية - منذ أمد طويل - مصدرا للحيرة ، بتحميلها الكنيسة المسيحية وزر إخفاق عدد من القضايا الغير الدينية التى لا تتصل بالمسيحية بسبب .

ويبين المؤلف أن الدين يجب أن يسلم للعلم فى جميع ميادين المعرفة الثقافية التى يستطيع العلم أن يُقيم لنفسه فيها مجالا . وعنده أن الدين والعلم يُعْنِيَان بضررين مختلفين من الحقيقة وأن دراسة اللاشعور فى علم النفس الحديث ، تلقى ضوءاً عميقاً على طبيعة الاختلاف .

(د) بشائر مستقبل الأديان :

إن السمة المميزة للأديان ، إجماعها على الإيمان بإله واحد حق ، وهذا ما يفرقها عن جميع أنواع المجتمعات الأخرى . ويفصح المؤلف عن نتائج هذا الاختلاف .

الفصل السابع والعشرون - دور الحضارات فى حياة الأديان

١ - الحضارات باعتبارها إفتتاحيات :

يبحث المؤلف معجم الاصطلاحات التكنولوجية التى استعارتها الكنيسة المسيحية من الحضارة الهلينية ، ثم حولتها إلى إستعمالات جديدة .

ويعتبر ذلك مثالا لما يدعو به بظاهرة « الأثرية » (أى التسامى) .
ومن رأيه أن الحضارة الهلنسية قد أدت دور الافتتاحية للعقيدة المسيحية .

٢ - الحضارات باعتبارها نكوصا :

يبين المؤلف ما ينلو ذلك من انحطاط لهذه المصطلحات التكنولوجية
عندما يستخدمها المجتمع الغربى فى مجالاته الدينىة ؛ هذا المجتمع الذى إنبعث
عن الكنيسة المسيحية ، ثم تحرر من سلطانها .

الفصل الثامن والعشرون - نشر الدعوة الدينية فى العالم

إن خروج الحضارة المنتمية إلى دين على هذا الدين ، يرجع إلى
خطوات خاطئة ارتكبتها العقيدة الدينية : هذه الخطوات نتيجة حتمية
لتضمين روح الدين فى نظام كهنوتى يهدف إلى بث الدعوة إلى العقيدة
الدينية فى أنحاء العالم .

ويسجل المؤلف أربعة نماذج للخطوة الخاطئة :

(أ) سيطرة سياسية نهى سببا معقولا للمساس بالسلطات الدينىة ،
بحسبانه تدخلا فى قيامها على أداء واجباتها المنوطة بها :

(ب) النجاح الاقتصادى الذى لا بد وأن يلزم أداء الواجبات الاقتصادية
« بحرارة » كما لو كانت تؤدى للخالق ، لا للإنسان :

(ج) تحويل الكنيسة مجموع ذاتها إلى إله يُعبد .

فهل يعجز الدين عن الوعد بـ « عصر ذهبي » يترأى فى نهاية المطاف ؟
ربما يتيسر ذلك فى « العالم الآخر » . لكنه لن يقع فى عالمنا هذا . فإن
الخطيئة الأزلية تقف عقبة كأداء . و « هذا العالم » لإقليم فى ملكوت الرب ،
لكنه إقليم متمدن ، ومن طبيعة الأشياء أن يبقى كذلك :

الباب الثامن

عصور البطولة

الفصل التاسع والعشرون - سياق المسألة

١ - حاجز اجتماعي :

عصر البطولة ؛ نتيجة اجتماعية وسيكلوجية لتبلور الثغور - أو التخوم الحربية - القائمة بين الدولة العالمية لحضارة متحللة ، والمتبربرين القاطنين وراء هذه التخوم . ويُمثِّل بحاجز أو سد مقام على واد ، فيوجد - بذلك - خزاناً عليه .

ويورد المؤلف في هذا المبحث وفي غيره من مباحث الفصل التالية ، ما يتضمنه هذا التشبيه .

٢ - تراكم الضغط :

يتزايد الضغط على الثغور - أو السد - كلما تعلم المتبربرون القاطنون خلف التخوم ، الأساليب التكنولوجية الحربية للحضارة التي يقفون لإزائها بالمرصاد . ويجد حراس الحضارة أنفسهم مضطرين إلى استخدام المتبربرين أنفسهم . ثم ينتقل هؤلاء الجنود المرتقة على سادتهم ، ويوجهون ضربتهم إلى قلب الإمبراطورية :

٣ - الاجتياح ونتائجه :

لا مناص من أن يتطور نجاح البرابرة المنتصرين ، إلى أداة لهزيمتهم : فلأنهم - إجمالاً - غير أكفاء لمجابهة الأزمة التي أوجدوها بأنفسهم : ومع ذلك فإن البرابرة يقومون خلال محنتهم ، ببطولات أسطورية ومُثِّل عليها للسلوك ، مثل تلك التي وردت فيما كتبه هوميروس عن آلهة النعمة ،

وما ورد في فضيلة : « الحلم » عند الأمويين : وينتهي المطاف بعصر البطولة المشوش - فجأة - في صورة مذهلة : ويتلو « عصر مظلم » تعود - في خلاله - قوى القانون والنظام تؤكد وجودها بالتدريج : وهكذا تنهى « فترة الفراغ » لتنبعث حضارة جديدة :

٤ - الخيال والحقيقة :

يشير المؤلف إلى تصنيف « هسيود » الغريب للعصور ، إذ يجعلها وفقا للمعادن : الذهب ، الفضة ، البرونز ، الحديد . وأن ثمة عصرا هو « عصر الأبطال » يتدرج بين عصرى البرونز والحديد :

وه « عصر الأبطال » هو في الواقع عصر البرونز ، ويضفي عليه هوميروس من الخيال ما يجاوز الحقيقة : وعند المؤلف أن فتنة شعر البطولة الذي أنتجته البربرية الظافرة ، هي التي خدعت « هسيود » وشاعر العصر المظلم التالى : ولقد خدع شعر البطولة التالى هذا أيضا ، أتباع الرايخ الثالث الذين مجدوا « الوحوش الشقراء » للبربرية « النوردية » :

على أن البرابرة كانوا حلقة إتصال ارتبطت عن طريقها حضارات الجليل الثانى - التى أنتجت الأديان العليا - بحضارات الجليل الأول :

حاشية - كتيبة الجند من النساء الشيطانات :

يسوق المؤلف تفسيراً لما قامت به النساء الشيطانات من دور بارز في مآسى عصور البطولة : ليس فقط في الأسطورة ، وإنما في الواقع كذلك :

الباب التاسع

الاتصال بين الحضارات في المكان

الفصل الثلاثون - إمتداد ميدان الدراسة

إن الحضارات التى يمكن دراستها دراسة وافية - كل منها على حدة -

فى مراحل نشوئها ونموها واستطالتها وانهارها ؛ إن هذه الحضارات تصبىح
دراستها غير مفهومة فى مرحلة تحليلها النهائى ،

ومن ثم يرى المؤلف ضرورة دراسة إلتصالاتها ، وهى فى هذه المرحلة
الآخيرة : ويذكر أن طائفة من المناطق الجغرافية مثل ؛ سوريا وحوض
نهري سيحون وجيحون ، كانت معالم بارزة فى تاريخ هذه الإلتصالات ،
وليس من قبيل المصادفة ، أن هذه المناطق نفسها والأجزاء المجاورة لها
مباشرة ؛ قد ضمت المواطن التى شهدت مولد الأديان العليا ،

الفصل الحادى والثلاثون

عرض للتلاقى بين الحضارات المعاصرة

١ - منهاج العمل :

نقترح البدء ببحث التلاقى بين الغرب الحديث وجميع الحضارات
المعاصرة له . ويمكن تأريخ بداية العصر الحديث ، من تاريخ المجتمع
الغربى بحدثين :

وقع الحادث الأول مباشرة بعد بداية القرن السادس عشر ،

ووقع الثانى مباشرة بعد بداية القرن السادس عشر ،

والحدث الأول هو إمتلاك ناصية فنون الملاحة فى المحيطات ،

والحدث الثانى هو تفكك غرى وحدة العالم المسيحى . تلك الوحدة
التي أقامتها البابوية وحافظت عليها .

وكان « الإصلاح » البروتستانتى - بالطبع - مرحلة فى عملية طويلة من
التطور بدأت فى القرن الثالث عشر ، ولم تُستكمل حتى القرن السابع عشر ،
يبد أن « الإصلاح » نفسه ؛ قد باغت نفس الجيل الذى شهد رحلات
كولومبوس وجاما .

وبعد هذا ؛ نخطو في التاريخ خطوة إلى الوراء وندرس صلات الغرب في مرحلة تاريخه الوسيط ، مع المجتمعين المنافسين له ، اللذين تلاقى بهما ؛ ثم ندرس بعد ذلك صلات المجتمع الهليني ؛ ونختتم البحث بإلقاء نظرة على صلات أسبق من نفس النوع .

وإذ نعالج موضوع صلات العالم الغربي الحديث ، سنرى أن هذه الفصول من التاريخ - ولو أنها معروفة لنا بالتفصيل حتى الوقت الحاضر - غير مستكملة كلها - أو ربما أكثرها - ولا تزال تحمل علامة استفهام .

٢ - العمليات وفقا للمناهج :

(١) التلاقى بالحضارة الحديثة :

أولا : الغرب الحديث وروسيا :

كابد المواطن الأصيل للمسيحية الأرثوذكسية الروسية ، الشيء الكثير من إغارات وغزوات قامت بها دولة بولندا - ليتوانيا وهي إحدى الدول الغربية الإقليمية ، منذ القرن الرابع عشر وما بعده . ومنيت بخسائر لم تستطع استردادها كلها إلا في عام ١٩٤٥ ميلادية . ولقد تلقى بطرس الأكبر إشعاع الثقافة الغربية باستجابة تتسم بالمسايرة والترحيب . بيد أنه بعد أن مر قرنان على خطط الاقتباس من الغرب طبقا لخطوط وافق عليها الغرب نفسه ، وجد أن نظام بطرس الأكبر - بعد أن وضع موضع التجريب - تبينت أغلاطه وأخطاؤه ، وقتما صدمته محنة الحرب العظمى الأولى : فكان أن اقتلعه ، وحل محله نظام غربي الأصل ، مرتد من المبادئ الغربية ، هو : الشيوعية .

ثانيا : الغرب الحديث والكتلة الرئيسية للمسيحية الأرثوذكسية :

تغلغلت الثقافة الغربية في هذا المجتمع الذي ضُمَّت أجزاءه بعضها إلى بعض تحت حكم دولة عالمية دخيلة عليه هي الإمبراطورية العثمانية . ولقد تغلغلت هذه الثقافة ، بادئة بالطبقات الدنيا إلى العليا ، على عكس ما حدث

في روسيا : وحدث ذلك ابتداء من القرن السابع عشر وما بعده : وكان من المحتمل أن يؤدي ذلك إلى غلبة التأثير الغربي على إمبراطورية الباديشاه بتأثير اليونانيين الفناريين . بيد أن الحركات الوطنية قد تنزلت لسوء الحظ ، فأدت إلى حطيم الإمبراطورية إلى دول إقليمية : وأخفقت روسيا في أن تكفل لنفسها زعامة هذه الشعوب : سواء وفقاً لأسس جامعة أرثوذكسية ، أو جامعة إسلافية : وإن كان قد فُرض على بعضها أخيراً نظام جامعة شيوعية روسية .

ثالثاً : الغرب الحديث والعالم الهندى :

فرض الغرب نفسه هنا في شكل دولة عالمية دخيلة ، حلت محل دولة عالمية دخيلة أخرى ؛ هي الإمبراطورية الإسلامية المغولية التي كان قد أصابها التفكك : ولقد استخدم الحاكم البريطاني صفوة من الهنود ، مثلاً ، استخدم الباديشاه العثماني صفوة من المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين . وجاء الوقت الذي نجحت فيه هذه الصفوة الهندية — في حين عجز الفناريون — في تغليب العنصر الهندى في إدارة الأملاك البريطانية السابقة ، مع الاحتفاظ به سليماً ، ما خلا الاستثناء الضخم المتصل بانفصال باكستان .

وناقش المؤلف النقاط القوية والضعيفة في الإدارة البريطانية الهندية : وأبدى أن مشكلة السكان هي السحابة السوداء التي تخيم في أفق مستقبل الهند :

رابعاً : الغرب الحديث والعالم الإسلامى :

في مطلع العصر الحديث من تاريخ الغرب ، كان المجتمعان الإسلاميان . الشقيقان « الإيراني » و « العربى » يقفان سداً في وجه جميع المسالك البرية التي تصل ممتلكات المجتمعين الغربى والروسى بسائر أنحاء العالم : بيد أنه تلا ذلك مباشرة ، إنقلاب مثير لمصير العالم الإسلامى وفي غير مصلحته : وترتب على ذلك الإنقلاب في ميزان القوى أن عدداً من حكام الدول

الإسلامية قد راحوا يطبقون سياسة بطرس الأكبر القائمة على « مسايرة الغرب » ، بدرجات متفاوتة في التوفيق :

ويضم العالم الإسلامي مواطن ثلاثة من الحضارات الأربع الرئيسية ، ولقد تعززت الثروات الزراعية الطبيعية لهذه المناطق ، بفضل الكشف عن ثرواتها المكنونة من النفط . ونتيجة لذلك ؛ أصبحت المناطق الإسلامية ، بمثابة بستان الكرم لعالم القرن العشرين الذي تتصارع فيه روسيا والغرب .
خامسا : الغرب الحديث واليهود :

لم تتلاءم فكرة « التشتت اليهودي » مع النظام الغربي القائم على دول إقليمية متجانسة . وفي استعراض تاريخي يبدأ ، لا من مستهل العصر الحديث من التاريخ الغربي ، ولكن من بداية المجتمع المسيحي الغربي نفسه ؛ تمكن ملاحظة ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى (أى في تاريخ القوط الغربيين) - استبانت خلالها فائدة اليهود رغما عن كراهية الجاهير لهم ، ولسوء معاملتهم لإياهم ؛ إذ كان المسيحيون الغربيون (كما قال سيسيل رودس عن الرؤساء المتخرجين من من أكسفورد) أطفالا في الشؤون المالية :

المرحلة الثانية - تعلم فيها المسيحيون الغربيون أن يكونوا لأنفسهم يهودا منهم . فكان أن طرد اليهود (ويطالعنا في هذا الصدد طرد اليهود من إنجلترا عام ١٢٩١) :

المرحلة الثالثة - كان فيها المجتمع الغربي قد أصاب من الكفاءة ما جعله يسمح لليهود بالعودة إليه مرة أخرى (مثال ذلك عودتهم إنجلترا عام ١٦٥٥) .
والترحيب ببحرهم في عالم المال والتجارة .

بيد أن العصر الذي اتسم بتحرره والذي تلا ذلك ، لم يثبت أنه آخر القصة :

ويختتم هذا القسم بدراسات للنزعة المناهضة للسامية ، وللصهيونية :
سادساً : الغرب الحديث وحضارتي الشرق الأقصى والحضارات الأمريكية
الأصيلة :

لم يكن لهذه سابق اتصال بالغرب قبل أن يدخل الغرب في مرحلته الحديثة . وقد بدا للعيان أن جميع الحضارات الأمريكية قد زالت من الوجود ، ولو أن هذه الفكرة قد تكون مضللة . ومن عجب أن تسير جنباً إلى جنب ، قصص ضغط الغرب الحديث على الصين واليابان . ففي كلتا الحالتين ، لقيت الثقافة الغربية ترحيباً في شكلها الديني المبكر الحديث . لكن تلا الترحيب ، إعراض عنها . ثم جاء بعد ذلك تأثير الأسلوب التكنولوجي الغربي : ويُعزى - إلى حد كبير - الاختلاف بين تاريخي البلدين ، إلى حقيقة مبناها أن الصين إمبراطورية واسعة مفتوحة الأبواب ، في حين أن اليابان جماعة جزرية محكمة . ولكن المجتمعين في حالة خسوف وقت كتابة هذه السطور . فالصين رزحت تحت السيطرة الشيوعية ووقعت اليابان تحت السيطرة الأمريكية . وكان المجتمعان كلاهما - يواجهان مشكلة تضخم السكان .

سابعاً : خصائص التلاق بين الغرب الحديث والمجتمعات المعاصرة له :

إن الحضارة الغربية الحديثة ، هي حضارة « طبقة متوسطة » . ولقد رحبت المجتمعات الغير الغربية التي نمت طبقها المتوسطة فيها ، بالطابع الغربي الحديث . فلن نغف حاكم حضارة غير غربية لا يضم مجتمعه طبقة متوسطة وطنية أن يصيبغ بلاده بالصبغة الغربية ، فإن عليه أن يصطنع تحقيقاً لغرضه ، طبقة متوسطة في شكل طبقة مثقفة . وهذه الطبقات المثقفة ، تنقلب في النهاية على سادتها .

(ب) التلاقى مع مسيحية الغرب الوسيط :

أولاً : مد الحروب الصليبية وجزرها :

دخلت المسيحية الغربية فى القرون الوسطى ، حُقبَة من التوسع فى القرن الحادى عشر : وتلتها فترة من الأقوال ثم الارتداد على بعض الحدود دون أخرى ، بعد ذلك بقرنين ،

ويحلل المؤلف عوامل هذا الامتداد ، وما تلاه من إرتداد :

ثانياً : الغرب الوسيط والعالم السورى :

كان ثمة أوجه شبه مشتركة بين كثرة الصليبيين وخصومهم المسلمين ، فلقد كان « الفرنج » النورمانيون والسلاجقة الأتراك - كلاهما - فى سالف عهدهما برابرة اعتنقوا حديثا الدين الأسمى للمجتمع الذى انخرطوا فيه والذى سيطروا عليه من عدة وجوه . ولقد أثر إشعاع الحضارة السورية فى المجتمع المسيحى الغربى الأقل تقدما ، وبدا ذلك فى الشعر والعمارة ، وفى الفلسفة والعلوم :

ثالثاً : الغرب الوسيط والمسيحية اليونانية الأرثوذكسية :

قام بين هذين المجتمعين المسيحيين ، نفور أشد مما كان بين أى مجتمع منهما وبين جيرانه المسلمين . ويظهر هذا النفور المتبادل فى اقتباسات من تقرير ليوبتراند الأسقف اللومباردى عن مهمته إلى القسطنطينية ، كما يظهر أيضاً فى الصورة التى رسمتها حنا كومنينيا - فى تاريخها - للصليبيين .

(ج) التلاقى بين حضارات الحيلين الأوليين :

أولاً : التلاقى مع الحضارة الهلينية فى عصر ما بعد الإسكندر :

تلاقت الحضارة الهلينية فى هذه الحقبة مع كل حضارة معاصرة لها فى العالم القديم ، ولكن النتائج التى ترتبت على الإشعاع الهليني الذى أعقب

هذا التلاقى ، لم تثمر ثمرتها ، ولم تستكمل فاعليتها ، إلا بعد انقضاء بضعة قرون من تحلل المجتمع الهليني نفسه ؛ ولقد جاوز إنتشار الثقافة الهلينية فتوحات الجيوش الهلينية كثيراً ، مثال ذلك ، إنتشارها فى العالم الصينى * ويتميز عهد الإسكندر فى التاريخ الهلنى ، بتوسع تمكن مقارنته بشق المحيطات فى تاريخ المسيحية الغربية : بيد أنه بينما كان الغرب - فى طوره الحديث - يحرق نفسه من عقيدته الدينية اليقعة (أى المسيحية) لم يكن لدى الحضارة الهلينية مثل هذه اليقعة ، ومن ثم عظم توقها للدين واشتد .

ثانياً : التلاقى مع الحضارة الهلينية فى عصر ما قبل الإسكندر :

كان ثمة صراع بين ثلاثة متنازعين فى سبيل السيطرة على حوض البحر المتوسط وهم : المجتمع الهلنى فى عصر ما قبل الإسكندر ، والمجتمع السورى ، وبقية متحجرة من المجتمع الحثى تتكون من الأترويين . ولقد تبدى المجتمع السورى على السواء : فى قوة الفينيقيين البحرية ، وفى الإمبراطورية الإخمينية ، فى المراحل التالية من القصة . وقد ثبت أن أهم الفتوحات للثقافة هى صبغ روما بالصبغة الهلينية : وقد تم هذا بطريق غير مباشر ، هو تحول الأترويين أولاً إلى الثقافة الهلينية *

ثالثاً : الشيلم والقمع :

إن النتائج الوحيدة المثمرة للتلاقى بين الحضارات ، هى ما يتم لإنجازه فى ظل السلام . وأورد المؤلف أمثلة لهذا من التلاقى بين الحضارات : للسندية والصينية والمصرية والسومرية .

الفصل الثانى والثلاثون - مأساة التلاقى بين المتعاصرين

١ - ترابط التلاقى :

إن تحدياً من جانب واحد ، يقوده - على الصعيد الحربى - إلى إحداث

تحدد من الجانب الآخر ، ويواصل التحدى الأخير سيره ليصبح عدوانا ،
يثير بدوره دفعا .

ويتتبع المؤلف سلسلة من مظاهر التلاقى بين « الشرق » و « الغرب »
ابتداء من عدوان الإمبراطورية الإخمينية على اليونان ، حتى ردود فعل
الشعوب الغير الغربية خلال القرن العشرين ضد الاستعمار الغربى .

٢ - اختلافات الإستجابات :

ليست الإستجابة الحربية ، بالاستجابة الوحيدة المتاحة : ومصادقا
لذلك ، تعزز روسيا الشيوعية أسلحتها بالحرب الأيديولوجية . وحينما تتعذر
الإستجابة الحربية أو تفشل تجربتها ؛ تُحدث الشعوب المغزوة رد فعل
بوساطة الاحتفاظ بذاتيتها كجماعات . ويتم ذلك عن طريق إستنبات دينها
إستنباتا كثيفا . ويطالعنا المثال التقليدى عن تلك الإستجابة المتمثلة فى
اليهود منذ تشتتهم .

وتتمثل الإستجابة السامية ، فى إيجاد دين أعظم سموأ يأسر إليه آسريه
على طول المدى .

الفصل الثالث والثلاثون - نتائج التلاقى بين المتعاصرين

١ - أعقاب الاعتداءات الفاشلة :

قد يترتب عن النجاح فى صد العدوان ، إشاعة النزعة الحربية فى
المنتصر ، بما يتلو ذلك فى النهاية من نتائج جاثمة .

ومصادقا لذلك ؛ قاد انتصار اليونانيين على المعتدى الإخمينى إلى إنهيار
الحضارة الهلينية فى خلال خمسين سنة .

٢ - فى أعقاب الاعتداءات الناجحة :

(١) تأثيرات تصيب الكيان الاجتماعى :

يتمثل الثمن الاجتماعى الذى يقتضى الحضارة - التى وفقت فى عدوانها -

أدائه ، في تسرب ثقافة ضحايا الغرباء إلى مجرى حياتها ذاته : ويشابه ذلك في تأثيره على ضحايا العدوان ، ولكن مع زيادة في التعقيد : ويطالعا في هذا الشأن أن إدخال المثل والنظم الغربية على المجتمعات الغير الغربية ، غالبا ما يُنتج نتائج محيرة : ذلك لأن ما هو طعام لشخص ، قد يكون سماً لآخر : والواقع أن الفشل هو مصير محاولة إدخال عنصر من عناصر ثقافة أجنبية ، مع إستبعاد بقية العناصر :

(ب) إستجابات النفس :

أولا : تجريد من صفات الإنسانية :

يستسلم المغير إلى الكبرياء المتعجرفة ، فيعتبر الشعوب المغزوة « كلابا خاسرة » . وهكذا يتذكر لمبدأ أخوة الإنسان للإنسان . وعند ما يُعتبر « الكلب الخاسر » كافراً ، فإنه قد يستعيد منزلته البشرية بفضل « الهداية » . وعند ما يُنظر إليه على أنه « متبربر » ، قد يستعيد منزلته البشرية عن طريق اجتيازه إمتحانا . بيد أنه عند ما يُنظر إليه وفقاً للإصطلاح الشائع عند المستعمرين « وطني » . عندئذ يفقد الأمل ، إذ يغادو عاجزاً عن خلع سيده أو هدايته إلى عقيدته .

ثانياً - التزمت والمسايرة :

ويتضمن الاصطلاحان تمييزاً قريب المنال ، بين الأعراض عن طباع الفاتح وقبولها . بيد أن القيام بفحص أشد قربا ، يوحى إلى الذهن بأن التمييز ليس قريب المنال بالدرجة التي تظن في بداية الأمر . ويفسر المؤلف هذه النقطة بدراسة اليابان الحديثة وبدراسة سيرتي غاندى ولينين .

ثالثاً - التبشير :

ويذكر المؤلف أن الانهزام الذاتي للمتمزتين والمسايرين الأصليين ، قد وقف حائلا ضد عمل القديس بولص للفد .

حاشية : آسيا وأوروبا - حقائق وأوهام :

تولد آسيا وأوروبا ، انتمين للسواحل البرية المقابلة التي تواجه الملاحين اليونانيين في رحلاتهم بين بحر إيجه والبحر الأسود ، ولم يسفر إضفاء مغزى سياسى أو ثقافى على الاصطلاحين عن شىء سوى البلبلة إذ تعتبر أوروبا ، شبه قارة من قارة أوراسيا محددة تحديداً سيثاً ،

الباب العاشر

الاتصال بين الحضارات : فى الزمن

الفصل الرابع والثلاثون - عرض لحركات البعث

١ - تقديم - البعث :

يبين المؤلف أصل لفظ « البعث » ، ويشرح المعنى الوارد له فى هذه الدراسة .

٢ - بعث الآراء والنظم السياسية :

بدأت حركة البعث الإيطالية المتأخرة الوسيطة ، مبكرة وكان تأثيرها على المستوى السياسى ، أعظم وأطول مدى من تأثيرها على المستوى الأدبى أو الفنى . ويسوق المؤلف تأييداً لقوله الآراء عن : دول المدن ، الممالك العلمانية ، الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

ويذكر أن التثويج الكنسى يعتبر إحياءاً لأحد طقوس الكتاب المقدس (العهد القديم) .

٣ - بعث النظم القانونية :

يذكر المؤلف مظاهر إحياء القانون الرومانى فى المسيحية الأرثوذكسية الشرقية وفى المسيحية الغربية ؛ ونتائج ذلك على الكنيسة والدولة .

٤ - بعث المذاهب الفلسفية :

يُعتبر إحياء الفلسفة الكنفوشوسية الصينية في مجتمع الشرق الأقصى في الصين، وإحياء فلسفة أرسطو الهلينية في مسيحية القرون الوسطى الغربية ؛ حدثين متماثلين من جملة وجوه . ولقد عاشت المدرسة الفلسفية الكنفوشوسية حتى تغلبت عليها مداخل الميزاج الغربي الحديث في بداية القرن العشرين ؛ أما مدرسة أرسطو الفلسفية ، فقد تزعزعت دعائمها بفعل النهضة الأدبية الهلينية إبان القرن الخامس عشر . ثم تغلبت عليها في نهاية الأمر ، حركة « باكون » العلمية ، إبان القرن السابع عشر .

٥ - بعث اللغات والمصنفات الأدبية :

قام نظام الأسر الحاكمة بدور كبير في تشجيع النهضة في هذا المجال ؛ ومن قبيل المثال ؛ قيام طائفة من الأباطرة الصينيين بجميع المكتبات الضخمة . ولقد كان لحركة البعث الإيطالية المتصلة بإحياء اللغات والآداب الهلينية ؛ سابقة عقيمة تمثلت في حركة الإحياء الكارولنجي التي لها بدورها جذور في حركة بعث حدثت في نورثمبريا .

ولا يتأتى لحركات البعث أن تنجح ؛ ما لم يبلغ المجتمع الذي يسعى إلى بعث شبح حضارة ميتة إلى الوجود ، المرحلة المناسبة من النمو تؤهله للقيام بالتنبؤ ، عن طريق تحضير أرواح الموتى ؛

٦ - بعث الفنون المرئية :

يورد المؤلف عدداً من الأمثلة إلى جانب المثال الغربي الشائع المعروف بـ « النهضة » . ويتتبع المؤلف النهضة الأوروبية في العمارة والنحت والرسم ؛ وكانت النتيجة النهائية في هذه الميادين الثلاثة هي إصابة الأصالة بالعقم .

٧ - بعث النظم والمثُل العليا الدينية :

يناقش المؤلف الازدراء الذي وقفته اليهودية لإزاء خليفتها الظافرة :

العقيدة المسيحية : ثم يبحث موقف الكنيسة المسيحية المتقلقل الغامض تجاه المثل اليهودية العليا المتصلة بالوحدانية ومناهضة التماثيل والصور .

واعتبر المؤلف نزعة « السبئية » وعبادة الكتاب المقدس عند البروتستانت — منذ القرن السادس عشر وما بعده — مثالا واضحا لهضة تتسم بالقوة والشعبية ، تهدف إلى إحياء اليهودية بين ظهراني الخطيرة المسيحية الغربية .

الباب الحادى عشر

القانون والحرية فى التاريخ

الفصل الخامس والثلاثون — المشكلة

١ — معنى القانون :

يُفرّق المؤلف بين « قانون الطبيعة » و « ناموس الله » .

٢ — اعتناق المؤرخين الغربيين لنظرية القانون الإلهى :

لم يعد رأى القائل بأن التاريخ يُفصح عن أعمال عناية إلهية — وهو رأى المعول عليه حتى عصر بوسويه — موضع ثقة . بيد أن المشتغلين بالعلم الذين حلّ قانونهم الطبيعى محل القانون الإلهى فى معظم نواحي البحث ؛ قد ألفوا أنفسهم مكرهين على ترك التاريخ فى حالة لا يحكمها قانون ، حيث يمكن توقع حدوث أى شىء ، من أى شىء آخر . وهذا ما رآه أ . ل . فيشر :

الفصل السادس والثلاثون - انقياد شئون البشر لقانون الطبيعة

١ - عرض للدليل :

(أ) شئون الأفراد الخاصة :

تعتمد شركات التأمين على انتظام قابل للتقدير في الشئون البشرية :

(ب) الشئون الصناعية لمجتمع غربى حديث :

يجد الاقتصاديون أنفسهم قادرين على قياس أطوال موجات الدورات الاقتصادية والتجارة :

(ج) تنافس الدول الإقليمية : توازن القوى :

يشرح المؤلف التواتر المنتظم الظاهر ، لدورتي الحرب والسلام في تاريخ جملة من الحضارات المختلفة :

(د) تحلل الحضارات :

يعرض المؤلف أمثلة على انتظام تعاقب الهزيمة والانتصار ، ويقدم تفسيرات له .

(هـ) نمو الحضارات :

يذكر المؤلف انتهاء الانتظام الذى يمكن تتبعه في مراحل الانحلال والانهيار .

(و) لا درع بقى من القدر :

يسوق المؤلف مزيداً من الأمثلة عن الانتظام الذى به ينتهى اتجاه تعترضه عقبات ، تارة عند نقطة ، وتارة عند نقطة أخرى ؛ إلى الفوز في بعض الأحيان :

٢ - لتفسيرات المحتملة لمریان قوانين الطبيعة في التاريخ :

قد تعزى الانتظامات التي عرفناها ، إما :

إلى أثر قوانين سارية في البيئة غير البشرية للإنسان .

أو إلى أثر قوانين سارية في البيئة غير البشرية للإنسان نفسه ،

ويبحث المؤلف هذين الاحتمالين البديلين ، ويخلص من بحثه إلى القول بأن اعتماد الإنسان على القوانين ذات الطبيعة غير الإنسانية ، يتناقض مع تقدم الإنسان التكنولوجي . ويحدد المؤلف لتعاقب الأجيال البشرية مغزى عظيماً . ويعتبر أن ثلاثة أجيال ، هي المعدل الزمني لبضعة أنواع من التغيرات في العادات الذهنية ،

ثم يستعرض المؤلف قوانين العقل الباطن الذي كان علماء النفس قد اكتشفوه أخيراً وقت كتابة هذه السطور ، باعتبارها مؤثراً في مجرى التاريخ .

٣ - هل قوانين الطبيعة الجارية في التاريخ حاسمة أو يمكن السيطرة عليها ؟

أما بالنسبة للقوانين ذات الطبيعة غير البشرية ؛ يعجز الإنسان عن تغييرها . لكن في استطاعته الانتفاع بها لتحقيق أغراضه . وأما بالنسبة للقوانين التي تؤثر في الطبيعة البشرية نفسها ؛ فأحرى أن تلتزم الإجابة بجانب الحذر . وستتوقف النتيجة على صلات الإنسان - لا على مجرد صلاته مع رفاقه من الناس وشخصه - ولكن على صلاته مع الرب مخلّصه

الفصل السابع والثلاثون

تمرد - الطبيعة البشرية على قوانين الطبيعة

يفسر المؤلف هذا التمرد بعدد من أمثلة التحدى والاستجابة ، فإن الإنسان إذ يجابه التحدى ، فإنه حر - في نطاق معين - في تغيير سير الاتجاه ،

الفصل الثامن والثلاثون - ناموس الله

لا يعيش الإنسان في ظل قانون الطبيعة وحده ، لكنه يعيش كذلك في ظل القانون الإلهي وهو ناموس الحرية الكاملة ،

ويناقش المؤلف الآراء المتباينة عن طبيعة الرب وناموسه ،

الباب الثاني عشر

طوال الحضارة الغربية

الفصل التاسع والثلاثون - الحاجة إلى هذا البحث

تميّز هذا البحث بابتعاد المؤلف عن الرأى الذى اتخذ هاديا والذي التزمه حتى الآن ، طوال هذه الدراسة : ومدار الرأى : النظر إلى جميع الحضارات المعروفة للتاريخ نظرة إجمالية : ويرر هذا الإجراء الحقائق القائلة بأن المجتمع الغربى هو المجتمع الوحيد الباقى الذى لا تظهر عليه بوادر الانحلال جلية ؛ وأنه قد أصبح عالميا فى كثير من النواحي ، وأن طوالعه هى فى الواقع طوالع « عالم يصطبغ بصبغة غربية » .

الفصل الأربعون - قصور الردود الأولية

لم يكن ثمة ما يرر الافتراض القائم على أسس شبه علمية مزيفة - بأنه لما كانت جميع الحضارات الأخرى قد فنيت أو أنها فى طريق الفناء - فإن الغرب مقيّض له كذلك سلوك نفس الطريق ،

ويرى المؤلف أن ردئ الفعل المتسمين بالانفعال - مثل التفاؤل إبان عصر فيكتوريا والتشاؤم الذى بيديه مذهب شينجلر - يعتبران كلاهما دليلين يفتقران إلى الإقناع ،

الفصل الحادى والأربعون - فحوى تاريخ الحضارة

١ - التجارب الغربية مع الحضارات الغير الغربية السابقة :

ترى ما هو الضياء الذى تلقينه دراستنا السابقة عن الانهيارات والانحلالات على مشكلتنا الحاضرة ؟

لقد لاحظنا أن الحرب والنزعة العسكرية ، تعتبران أشد الأسباب تأثيراً فى إنهيار المجتمع ؛ وأن الغرب قد فشل حتى الآن فى مصارعة هذا الداء : على أنه من الناحية الأخرى ؛ قد حقق أسباب نجاح لم يسبق لها مثيل فى اتجاهات أخرى مثل إلغاء الرق وارتقاء الديمقراطية والتعليم .

ويبدى الغرب كذلك انقساماً مشتوماً إلى أقلية مهيمنة وبروليتاريين : داخلية وخارجية . على أنه لا يعزب عن البال تحقيق أسباب نجاح ملحوظة فيما يتصل بمسيرة مشكلات تباين البروليتاريات الداخلية فى العالم الذى يصطبغ بالصبغة الغربية :

٢ - تجارب غربية فريدة :

إن سيطرة الإنسان على الطبيعة غير البشرية ، وسرعة التغير الاجتماعى المتزايدة ، لانظير لهما فى تواريخ الحضارات السابقة . ويسوق المؤلف منهاج الفصول التالية .

الفصل الثانى والأربعون

التكنولوجيا والحرب والحكومة

١ - احتمالات حرب عالمية ثالثة :

يناقش المؤلف السمات الأساسية للولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى ، وموقف بقية الجنس البشرى تجاه كل منهما .

٢ - نحو نظام عالمي للمستقبل :

يقارن المؤلف بين مصائر الجنس البشري ومصائر طوف « هايردال المدعو كوتتيكي » وهو يقترب من الصخور . ويرى أن لا مناص من أن يكون نظام عالم المستقبل شيئاً مختلفاً تماماً عن منظمة الأمم المتحدة الحاضرة . ويناقش المؤلف وضع الأمة الأمريكية وهل تتوفر فيها المؤهلات اللازمة لتولى الزعامة .

الفصل الثالث والأربعون - التكنولوجيا والصراع الطبقي والعمالة

١ - طبيعة المشكلة :

قادت انتصارات التكنولوجيا الحديثة إلى طلب لم يسبق له مثيل على « التحرر من الحاجة » . ولكن ، هل البشرية على استعداد لأن تؤدي الثمن اللازم لإجابة هذا الطلب ؟

٢ - تأثير استخدام الآلات على المشروع الخاص :

أدت التكنولوجيا الحديثة إلى شيوع نظام آلات التشغيل أو تجنيد ، لا العمال اليدويين فحسب ؛ ولكن كذلك مخدوميهم (التأميم : : الخ) من موظفي الإدارة الحكومية (الوثائق الرسمية) ، وكذلك تجنيد السياسيين (النظام الحزبي) . ولقد تطلبت الهيئات التي تمثل مقاومة العمال (مثل اتحادات النقابات العمالية) مزيداً من التجنيد . ومن الناحية الأخرى ، فإن رجال الثورة الصناعية ، قد برزوا من مجتمع غير مجند .

٣ - محاولات بديلة لتحقيق التوافق الاجتماعي :

يتناول المؤلف أماليب الدراسة الأمريكية والروسية والأوروبية الغربية - لاسيما البريطانية - بالتحليل والمقارنة .

٤ - الأعباء المتوقعة للعدالة الاجتماعية :

إن الحياة الاجتماعية مستحيلة دون قدر معين من الحرية الشخصية والعدالة الاجتماعية على السواء ، وتعمل التكنولوجيا على إمالة كفة الميزان نحو العدالة الاجتماعية .

وفي عصر تم فيه إلغائ نسبة الوفيات بفضل الطب الوقائي ، ماذا تكون عواقب الحرية غير المنظمة من حيث زيادة الجنس البشرى ؟
 « يناقش المؤلف احتمالات حدوث مجاعة كبرى على مر الأيام ، والمنازعات التي يبدو احتمال تولدها عن ذلك .

٥ - هل يمكن كفالة السعادة الدائمة ؟ :

لنفترض أن المجتمع العالمي قد وجد حلاً موفقاً لجميع هذه المشكلات ؛
 « فهل يقيض للجنس البشرى أن يحيا بعد ذلك حياة سعيدة دائمة ؟
 « هذا ما لن يتحقق : لأن كل طفل يفد إلى هذا العالم يحمل معه الخطيئة الأزلية ، مرة أخرى » .

الباب الثالث عشر

الخاتمة

الفصل الرابع والأربعون - كيف قُدر لهذا الكتاب أن يكتب

ولد الكاتب خلال العصر الفيكتوري المتأخر الذي مادته روح التفاؤل ، وجاهاته الحرب العالمية الأولى في مطلع رجولته « فكان أن أخذته الدهشة أمام أوجه التشبه بين تجربة المجتمع الذي يعيش فيه ، وتجارب المجتمع الهليني » .

تلك التجارب التي كانت الركن الأمامي في تعليمه • وهذا أثار في ذهنه
السؤالين التاليين ،

لماذا تموت الحضارات ؟

هل يقدّر للغرب الحديث أن يلتقي مصير الحضارة المملوكية ؟

ونتيجة لذلك ؛ امتدت أبحاثه لتشمل إلهيارات الحضارات الأخرى
المعروفة وانحلالها ، باعتبارها دليلاً آخر يلقى ضوءاً على سؤاليه •

وأخيراً تابع المؤلف بحثه عن أصول الحضارات ونموها ،

وهكذا ؛ تمت كتابة هذه الدراسة للتاريخ •

تصويب

صفحة	سطر	خطاً	صواب
٦٥	١٨	الخطر	الخطر
١٠١	١٧	يعملوا	يعتقوا
١٠٧	٨	قبل	قبل
١١٢	٢٢	، وحتى يتكون	(تشطب)
١٢٦	١	تقم	تقدم
١٣١	٢٠	المون	الملون
١٣٩	٧	البتاع	بقاع
١٦٠	٥	بالشيء الجديد للملكة فيكتوريا	للملكة فيكتوريا ، بالشيء الجديد
١٦٢	٤	ينفى	ينفى
١٧٦	١١	من	بين
١٧٨	١٠	تكتفى	فكتفى
١٨٠	١	الأول	الأول
١٨٢	٢	الحكومية	الحكومة
١٨٣	٤	أن	تأدية
١٨٦	٦	برج	برج
١٨٦	١٠	كما أن	كما لو أن
١٨٨	٤	نذهب	نذهب
١٨٨	٤	المتصلة	المتأصلة
١٩٢	١٥	الشعب	الشعب
١٩٤	١٩	يكل	يكن
١٩٨	٨	المكابدة	المكابدة
٢٠١	٨	عمالقة	عمالة
٢٠٩	٩	العالية	العليا
٢١٠	١١	مارسنا	ما درسنا
٢١٢	٩	العالية	العليا

فهرس

الجزء الرابع من « مختصر دراسة للتاريخ »

الموضوع	صفحة
مقدمة : فلسفة التاريخ عند توينبي	٧

الباب العاشر

الاتصال بين الحضارات في الزمن

الفصل الرابع والثلاثون - عرض لحركات البعث	٢٩
١ - تقديم - البعث	٢٩
٢ - بحث الآراء والنظم السياسية	٣٢
٣ - بحث النظم القانونية	٣٥
٤ - بحث المدارس الفلسفية	٤١
٥ - بحث اللغات والمصنفات الأدبية	٤٦
٦ - بحث الفنون المربعة	٥٥
٧ - بحث النظم والمثل العليا الدينية	٥٩

الباب الحادى عشر

القانون والحرية في التاريخ

الفصل الخامس والثلاثون - المشكلة	٧١
١ - معنى القانون	٧١
٢ - اعتناق المؤرخين الغربيين لنظرية القانون الإلهى	٧٤
الفصل السادس والثلاثون - انقياد شئون البشر لقانون الطبيعة	٨٤
١ - عرض للدليل	٨٤

الموضوع	صفحة
١ - شئون الأفراد الخاصة	٨٤
ب - الشئون الصناعية لمجتمع غربي حديث	٨٥
ج - تنافس الدول الإقليمية (توازن القوى)	٨٧
د - تحلل الحضارات	٩٢
هـ - نمو الحضارات	٩٤
و - لا درع يقي من القدر	٩٨
٢ - التفسيرات المحتملة لسريان قوانين الطبيعة في التاريخ	١٠٥
٣ - هل قوانين الطبيعة الجارية في التاريخ : حاسمة أو يمكن السيطرة عليها ؟	١٢١
الفصل السابع والثلاثون - تمرّد الطبيعة البشرية على قوانين الطبيعة	١٢٩
الفصل الثامن والثلاثون - ناموس الله	١٤٠

الباب الثاني عشر

طوال الحضارة الغربية	١٤٧
الفصل التاسع والثلاثون - الحاجة إلى هذا البحث	١٤٩
الفصل الأربعون - تصور الردود الأولية	١٤٩
الفصل الحادى والأربعون - فحوى تاريخ الحضارات	١٦٤
١ - التجارب الغربية مع الحضارات الغير الغربية السابقة	١٦٤
٢ - تجارب غربية فريدة	١٧٩
الفصل الثانى والأربعون - التكنولوجيا والحرب والحكومة	١٨٢
١ - احتمالات حرب ثالثة	١٨٢
٢ - نحو نظام عالمى للمستقبل	١٩١
الفصل الثالث والأربعون - التكنولوجيا والصراع الطبقي والعمالة	٢٠٢
١ - طبيعة المشكلة	٢٠٢
٢ - تأثير استخدام الآلات على المشروع الخاص	٢٠٤
٣ - محاولات بديلة لتحقيق التوافق الاجتماعى	٢١٢
٤ - الأعباء المتوقعة للعدالة الاجتماعية	٢١٦
٥ - هل تـُمكن كفاءة السعادة الدائمة ؟	٢٢٣

الباب الثالث عشر

الخاتمة

الفصل الرابع والأربعون - كيف قُدِّرَ لهذا الكتاب أن يُكتَبَ ٢٣٣

جداول تفسيرية ٢٤٣

سياق الاستدلال ٢٥١

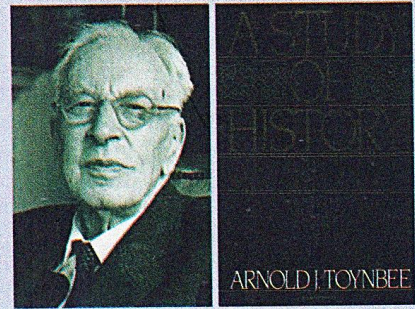
تصويب ٣٢٠

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز

الإشراف الفنى : حسن كامل

التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة



يذهب توينبي في هذا الكتاب إلى أن دراسة التاريخ تعنى - فى حقيقتها - دراسة المجتمعات أو الحضارات، وهو يقسمها إلى إحدى وعشرين حضارة اندرس معظمها ولم يتبق منها فى زماننا الذى نعيشه سوى خمس حضارات هى المسيحية الغربية، والمسيحية الأرثوذكسية، والإسلامية، والهندية، والشرق الأقصى، ثم مخلفات حضارات متحجرة غير معينة الشخصية كاليهودية. يدور الكتاب حول ثلاثة محاور: انبعاث الحضارات، وارتقاء الحضارات، وانهايار الحضارات.

بخصوص انبعاث حضارة ما فإن توينبي يصدف عن الفكرة التى تذهب إلى تفوق عرق ما وتفرد به بصنع الحضارة فالأعراق - فى معظمها- ساهمت فى صنع الحضارات وفى تقدمها، كما أنه يصدف عن البيئة الجغرافية كعامل أهم فى انبعاث الحضارة.

ويرى توينبي أنه بين إحدى وعشرين حضارة هناك خمس عشرة حضارة تتصل بصلات البنوة بحضارات سابقة عليها؛ فالحضارة الإسلامية- على سبيل المثال - هى محصلة اندماج حضارتين كانتا متميزتين فى الأصل هما الإيرانية والعربية وهما - معا - ترجعان إلى حضارة مندرسة هى الحضارة السورية التى تتفرع بدورها من الحضارة السومرية.